الشيخ أرسانيوس الكهفيّ

رفيق الشيخ يوسف الهدوئيّ

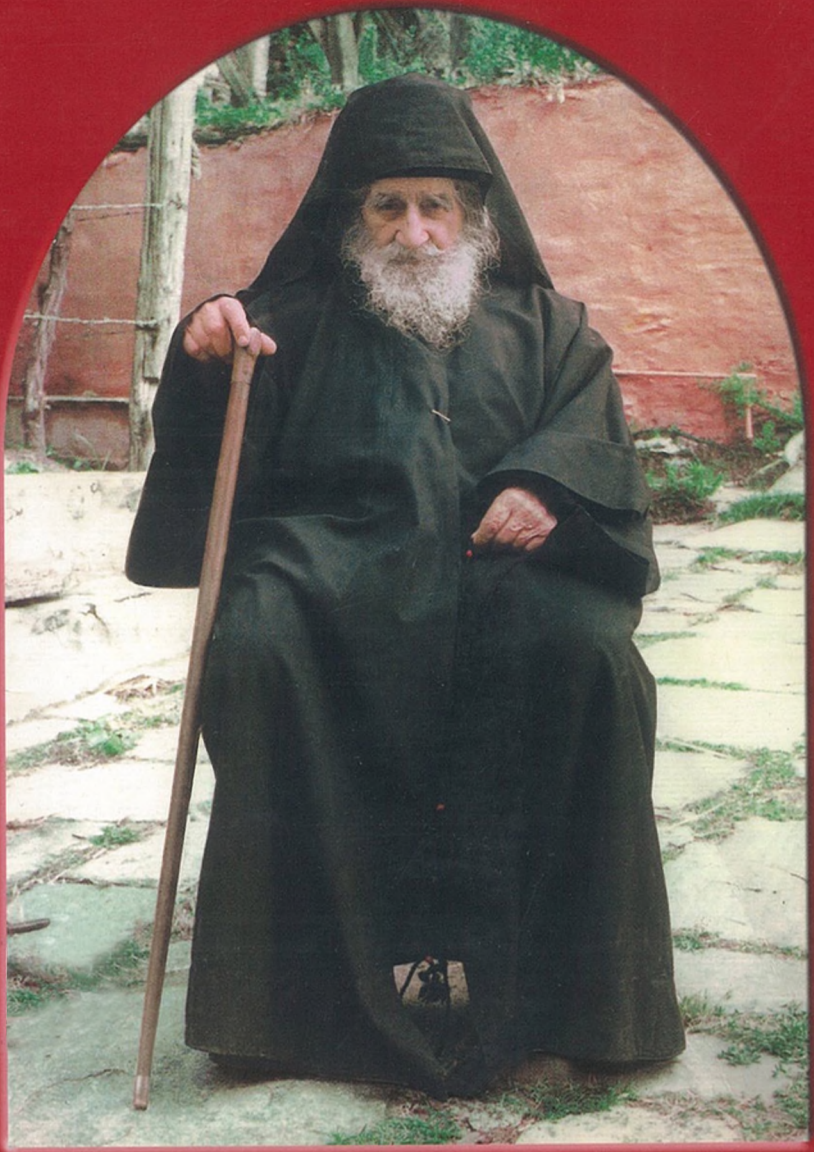

دير رقاد والدة الإله - حمطورة

الراهب يوسف الذيونيسيّ

الشيخ أرسانيوس الكهفيّ

(١٨٨٦–١٩٨٣)

رفيقُ الشيخِ يوسفَ الهدوئيّ

نقلَهُ إلى العربيّة

رهبانُ دير رقاد والدة الإله – حَمطوره

لكم البركة أن تنقلوا كتاب الشيخ أرسانيوس الكهفيّ إلى اللغةِ العربيّة.

الراهب يوسف الذيونيسيّ

***

جميع حقوق النشر محفوظة

منشورات التراث الآبائي

٢٠٠٨

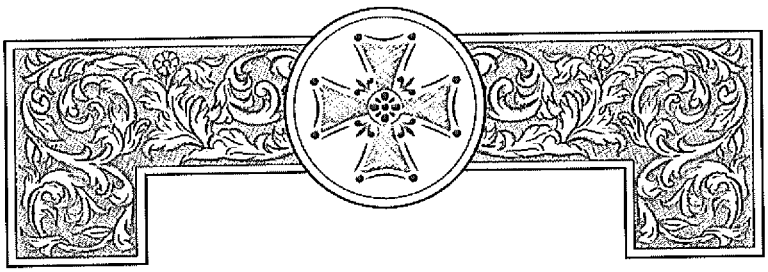

مقدّمة

«أذكروا مدبّريكم الذين كلّموكم بكلمةِ اللّه»(عب١٣:٧).

***

عندما قررتُ أن أزورَ الجبلَ المقدّسَ آثوس، لأوّلِ مرّة، خلال العامِ الخلاصيّ ١٩٦٤، وبعنايةٍ إلهيّة، كان ديرُ القدّيسِ ذيونيسيوسَ الشريفُ (الذيونيسيو) أوّلَ ديرٍ استضافني لمدّة عشرينَ يومًا، مع صديقٍ علمانيّ (هو الآن راهب كاهن).

كان الشيخُ غفرئيلُ الدائمُ الذكر، الذي لمعتْ شهرتُهُ بينَ آباءٍ كثيرين، رئيسًا للدير. هذا الشيخُ العجيب، اختارَ آباءً روحيّين أفاضلَ من صحراءِ الجبلِ المقدّسِ لتثبيتِ عملِهِ المقدّس. في تلكَ الفترة، حصلَ الديرُ على بركةٍ خاصّة، إذ اغتنى بأحدِ الأبناءِ الروحيّين لهدوئيٍّ عصرِنا الكبير، الشيخ يوسف الكوخيّ الهدوئيّ. وهذا الأبُ الروحيّ، هو الأبُ خارالمبوس.

وتطوّعَ راهبٌ مبتدئٌ من بلدنا، ليرشدَنا إلى قلّاية الأبِ الروحيّ النسكيّة. فاستغرقنا في سيرنا ساعةً وأكثرَ للذهابِ من الديرِ إلى «الإسقيطِ الجديد[١]».

انطلقنا في صباحٍ ربيعيٍّ مع صديقي الراهبِ المبتدئ، مرشدِنا ومواطنِنا. وكانت أُولى انطباعاتي التي لن أنساها أبدًا، تلكَ الرحلةَ الجميلةَ على طريقٍ ضيّقة، في محيطٍ مزهرٍ وذي رائحةٍ أخّاذةٍ مُتصاعدةٍ من العلّيق. وتمتدُّ الغاباتُ عن يسارِنا إلى داخلِ الجبل، وعن اليمينِ جُرُفٌ وعرٌ وقاسٍ، يَعْقَبُه خليجٌ لا متناهٍ، يطلُّ على قطعةٍ أخرى بعيدة من خلكيذيكي[٢]. في البعيد، وبعد منحدرٍ، بانَ فجأة، ديرُ القدّيسِ بولسَ الشريفُ، يعلوه وادٍ أبيض. وأطلّت علينا قمّةُ آثوسَ الناصعةُ البياض، كأحدِ جبابرةِ الميثولوجيا القديمة، في رؤيةٍ بانوراميّةٍ مغطّاةً بالغيوم البيضاء.

فجأة، ظهرَ برجُ الإسقيطِ الجديدِ الشاهق. وحالما صادفْنا الكوخَ الأوّل، قال لنا دليلُنا:

---

(١) الإسقيط الجديد: إسقيطٌ في الجنوب الغربي لجبل آثوس فيه ثلاثون قلّايةً تقريبًا. يتبع دير القدّيس بولس الشريف. كنيسة الإسقيط هي على اسم ميلاد والدة الإله.

(٢) خلكيذيكي هي المنطقة التي يقع فيها الجبل المقدّس آثوس في شمال اليونان.

- هذه القلاّيةُ هي للأبِ أفرام، الأخِ بالروحِ للأبِ خارالمبوس، هل تريدون أن تتعرّفوا به؟

- بكلِّ تأكيد.

دخلنا، فاستقبلنا الشيخُ بطيبةٍ وافرة. ومن كلماتِهِ القليلةِ المستنيرة، حصلنا مباشرةً على أعمق الانطباعاتِ الروحيّة.

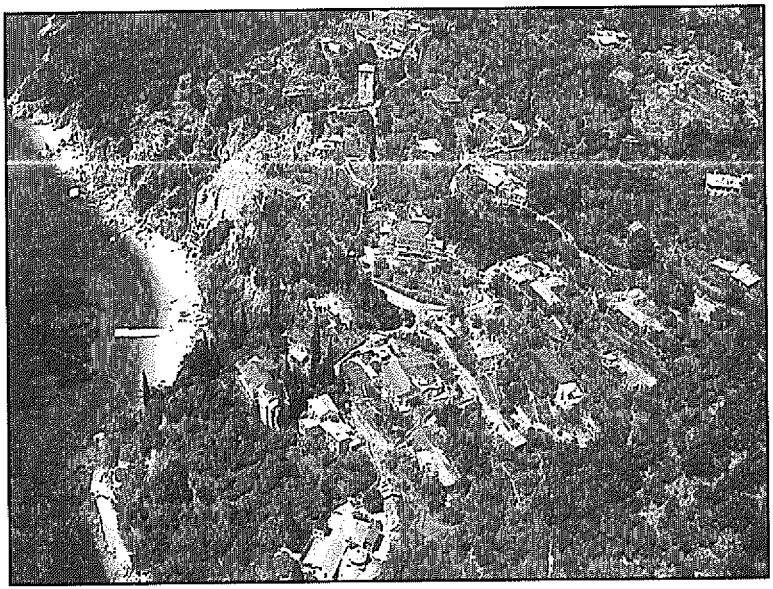

الإسقيط الجديد

شيءٌ آخرُ أيضًا انطبعَ داخلي، وهو تصرُّفُ أربعةٍ من تلاميذِه. هؤلاء قدّموا لنا الضيافةَ المعتادة، بدون أحاديث، ما عدا همساتٍ فقط، إذ كانوا يردّدون الصلاة: «يا ربّي يسوع المسيح، ارحمني»،

معطينَ انطباعًا أنّهم كانوا يعيشونَ في عالمٍ آخر.

نظرْنا من نافذةِ القلاّيةِ فشاهدنا تحتَ الصخرةِ كوخَين آخَرين.

- لمن هذه القلاّيةُ هنا؟

- إنّها قلاّيةُ أبينا الروحيّ.

- وتلكَ الصغيرة؟

- آه، هناك يسكنُ شيخٌ قدّيس، هو الأبُ أرسانيوس؛ لكن لا تستعجلوا، سنراها كلّها.

وعندما خرجنا من القلاّية، نزلنا باتجاهِ قلاّيةِ الأبِ الروحيّ خارالمبوس. فرأيناه يعملُ في الحديقة.

- «ها هو»، قال دليلُنا.

ما إنْ رآنا حتّى تركَ عملَه ورحّبَ بنا بكثيرٍ من المحبّة، واقترحَ علينا أن ندخلَ إلى الكوخ.

بعد هذه الانطباعاتِ الطيّبةِ التي حصلنا عليها من الأبِ الروحيّ، بقيَ علينا أن نزورَ الشيخَ الذي ينسُكُ في الكوخِ المقابل.

ومن اللحظةِ الأولى، اكتشفْنا في وجههِ الهادئِ شخصيّةً

بارَّةً وافرةَ المواهب: نقاء، محبّة، تواضع، وبالأكثر كان يتميَّزُ ببساطتِه المغبوطةِ وعدمِ وجودِ أيَّةِ سلبيّةٍ فيه. هذا كان الشيخَ أرسانيوس.

* * *

أما أنا فقد استأهلتُ أن أعيشَ مع هذا الشيخِ، الثمانيةَ عشْرةَ سنةً المتبقّيةَ لهُ من حياتِه على الأرض، منذ أن أعتقَتْني رحمةُ سيّدتنا والدةِ الإله مِنَ العالميّات ورتَّبتْني في أخويّةِ الأبِ خارالمبوس المنشأةِ حديثًا. وكان الأبُ أرسانيوس يُعتبرُ الأبَ الروحيَّ الفعليَّ للأخويّة، كونُه الأقدم، لكنَّ المسؤوليّاتِ التدبيريّة كانت كلُّها باستلامِ الأبِ الروحيِّ خارالمبوس.

أودُّ في ختامِ هذه المقدّمة، أن أُنَوِّهَ بأنّه رغمَ بروزِ العديدين من الآباءِ في الجبلِ المقدّس، فالقليلُ منهم عرفوا بدقّةٍ حياةَ الشيخِ الأبِ أرسانيوس، وعلى الأخصّ، في أوائلها تحت الإرشادِ المستنيرِ لمعاصرِه ورفيقِه في الجهاد، الشيخِ يوسفَ الكوخيّ الهدوئيّ العظيم. لذلك اعتبرتُ أنّه واجبٌ عليَّ أنا الحقير، أن أُدَوِّنَ ما خبرتُهُ وعرفتُهُ نزولاً عند رغبةِ العديدِ من أبنائِه الروحيّين، ولمسرّةِ الكثيرين وفائدتِهم.

كلُّ ما كتبتُه فيما بعد، يأتي مما أخبرَنا الأبُ نفسُه بفمِه، أو ممَّن كانوا مقرَّبين إليه.

* * *

هذه الطبعةُ نعتبرُها سيرةً مختصرةً لمسيرةِ هذَين المجاهدَين العظيمَين، الأبوَين يوسفَ وأرسانيوس، مرتبطةً بمسيرةِ أحفادِهما الروحيّين. والشخصُ الأساسيُّ والمركزيُّ بشكلٍ دائمٍ هو الأبُ أرسانيوس.

أما فيما يختصُّ باللغة، فإني كتبتُ بحرّيةٍ ممزوجةٍ بنَفَسِ الشيخِ وتعبيرِه، لأنَّه وكما هو معروف، فالدائمُ الذكر كان يتكلَّمُ اليونانيّةَ الحديثةَ بشكلٍ ضعيف.

أعبّرُ عن شكري الحار لكلِّ من ساهموا بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وحسبَ المستطاع، بهذه الطبعة الحاضرة.

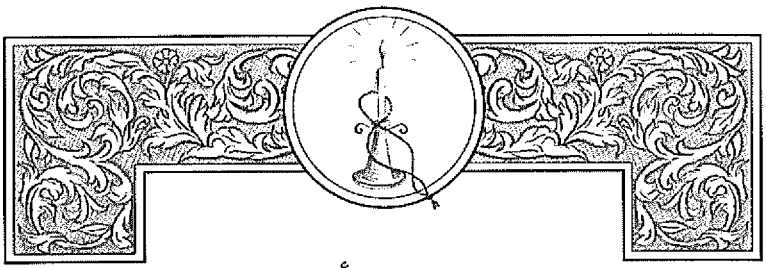

الفصل الأول

أعوام أناستاسيوس الطفولية
دعوة إلهية

أعوام الطفولة

كما أخبرَنا الشيخُ أرسانيوسُ نفسُه، أناستاسيوس غلانوبولس ابنُ ديمتريوس وسوتيريا بحسب التسمية العالميّة، أنَّ أوّلَ وطنٍ له كان البنطس، ذاكَ الوطنَ المباركَ والممجَّدَ الذي، بالرغم من قساوةِ نيرِ الغزاةِ الأتراكِ وتعسّفاتِهم، تمكَّنَ من البقاءِ ثابتًا في تقاليدِهِ اليونانيّة الأرثوذكسيّة. ففي أحوالٍ كثيرة، كانت الضغوطاتُ خانقةً للغاية، فإما أن يُنكِرُوا إيمانَهم ويصيروا مسلِمين، وإما أن يهاجروا.

حدَثَ أمرٌ مماثلٌ في عائلةِ الصغيرِ أناستاسيوس آنذاك. فإن الضغوطاتِ المتتابعة، والإغتصابات، والهجوماتِ الليليّة...، أجبرت جميعَ أفرادِ عائلتِهِ الكبيرةِ أن يهاجروا مع مواطنينَ آخرينَ كُثُر، إلى شمالِ روسيا، وكان هو في سنِّ الثانيةَ عشْرة. هناك تابعَ البنطيُّ اليونانيُّ في جوٍّ أرثوذكسيٍّ تقاليدَهُ المباركةَ والفريدة.

إنَّ بعضَ ما سمعناه من فمِ الشيخِ المقدّس سينفعُنا وسيكونُ لنا مثالاً. وأعتقدُ أنّه من المؤسفِ أن تُنْسَى هذه المرويّات.

⁂

عند أهلِ البنطس عادةٌ جميلةٌ جدًّا هي التالية: عندما يتزوَّج كلُّ الأولادِ الذّكور، والجدُّ على قيدِ الحياة، فإنّهم يسكنون معًا في بيتِه إلى أن يموت. لدرجةٍ يمكن القولُ فيها، إنَّ المنازلَ البنطيَّةَ كانت تُشكّلُ نموذجيًّا أديارًا مشتركةً صغيرةً أو كبيرة، يكون للجدِّ فيها بدلاً من الرئيسِ احترامٌ خاصّ.

قَبْلَ انطلاق كلِّ أفرادِ العائلةِ من أجل «الخبزِ اليوميّ»، كان عليهم أن يمرُّوا على الجدِّ ليقبّلوا يدَهُ ويحصلوا على بركتِه. وفي المساء، عندما يعودُ الرجالُ من العمل، وجَبَ على أصغرِ كنّةٍ أن تغسلَ أرجلَهم، رغم كثرتِهم أحيانًا. قال لنا الشيخ: «في بيتنا

فقط، وصلنا إلى استخدام اثنين وخمسين مِلعقة»[٣].

كان يراعى في العائلة كلُّ ما يتعلّق بالطاعة، والاحترام، وكذلك التُقى الدينيّ، أكثرَ من مجمعٍ ديريٍّ معاصر. أما فيما يخصُّ الأصوام، ودونَ مبالغة، فكانوا يجاهدون مثلَ الأديارِ المشتركةِ المعاصرة، ويتمسَّكون بدقّةٍ بكلِّ أصوامِ السنة ممتنعينَ عن الزيت. كذلك بالنسبة للصيام الثلاثيِّ الأيامِ في الأسبوعِ الأوّلِ من الصومِ الكبير. هذا، كان الشيخ يُخبرنا عنه، أنّه كان يستمرُّ من نهارِ الاثنين حتّى السبت. وفي نهارَيِ الأربعاء والجمعة، بما أنّهم كانوا يشتركون في أسرارِ القدساتِ السابقِ تقديسُها الإلهيّة، فكانوا يتشدَّدون بالبروتي[٤] مع قليلٍ من الخبز، إلى نهارِ السبت، حيث كانوا يأكلون الطعام المُعَدَّ بالزيت.

أما فيما يتعلَّقُ باكتسابِ الفضيلة، فكان الشيخُ أرسانيوس يقولُ لنا، إنَّ الجدَّ حافظَ على موقعهِ بشكلٍ جيّد. إذ كان هو نموذجًا للكلّ. فما كان يغضبُ البتّة، بل ينصحُ بكلِّ محبتهِ ويطبّقُ

(٣) ارتأينا أن نستعملَ خطًّا مختلفًا حين يتكلّم الشيخ أرسانيوس، لنسهّلَ القراءةَ فيميّز القارئُ بين حديثِ الشيخِ أرسانيوس وحديث الكاتبِ أو أيِّ شخصٍ آخر. (المعرّب)

(٤) البروتي (Proti): القربان الذي يوزَّع في آخرِ القدّاس وهو أوّلُ شيءٍ يؤكلُ بعد المناولة.

هو أوّلاً كلَّ ما ينصحُ بهِ الآخرين. وبالطبع ما كانت تغيبُ هنا وثمّة بعضُ التمارينِ من الجدّة، لكي تَظْهَرَ فضيلتُهُ أمامَ الأولاد.

مرّاتٍ كثيرة، كان الجدُّ يأتي من العملِ منهَكًا ويجلسُ إلى المائدة. لكنّ الجدّة، كانت عَمْدًا تُعِدُّ الطعامَ قليلَ الملح؛ فعندما يضعُ الجدُّ لقمةً في فمه، للحال كان يرميها. ثم وبدونِ أيِّ احتجاج، أو أيّةِ ملاحظة، كان يصرخ: «شو شو كتير شو»، أحضري ماءً. وكان يشربُ من الجرّةِ ماءً كثيرًا ثم يتابعُ فيأكلُ وكأنَّ شيئًا لم يكنْ.

أحيانًا أخرى كانوا يطبخون بدونِ ملحٍ كلِّيًا. وأيضًا: «ملح ملح كثير ملح»، أحضري ملحًا. وحالما كان يشبعُ من هذه الأطعمةِ غيرِ الشهيّة، ينهضُ فيرسمُ إشارةَ الصليبِ قائلاً من أعماقِ قلبِه: «المجدُ لك يا اللّه، أكلْنا اليومَ أيضًا».

أعتقدُ أنّ هذهِ الأمثلةَ تكفي، لكي نعتبرَ نحن أيضًا من حياةِ أجدادِنا القاسية.

* * *

في هذا الجوّ المبارك، عاش أناستاسيوسُ الصغيرُ طفولتَه مع شقيقتِهِ الأصغرِ منه، بارثينا، وقد انفصلا فيما بعدُ بداعي الترهُّب.

من المرجَّح أنّه ما كان يعرفُ اللغةَ اليونانيّة، لكنّه يتكلّم اللغتين البنطيّةَ والتركيّةَ بشكلٍ جيّدٍ جدًّا. وفيما بعدُ تعلَّمَ اللغةَ الروسيّة، فكان يقرأُ كتبًا دينيةً في اللغاتِ التي عرفَها، وقبْلَ كلِّ شيءٍ سِيَرَ القدّيسين. وقد حلَّ القدّيسُ ألكسيوسُ رجلُ اللّه في المرتبةِ الأولى من نفْسِه. فكان ينشرحُ قلبُهُ دائمًا حين يسردُ لنا سيرتَه. وكان شفيعَه الخاصَ في كلِّ حياتِه، ومساعدَهُ في أصعبِ لحظاتِ حياتِه.

الأمنية الإلهيّة والقرار الشجاع

في سنٍّ مبكّرة، بدأت أمنيةُ الحياةِ الرهبانيّة تستبينُ عندَ الأخوَين الصغيرَين. فحينَ خرجَ القرارُ المبارك، وعلِمَ الشابُّ بأماكنِ الحجِّ الخلاصيّةِ في فلسطين، التهبَ قلبُهُ وقرّرَ تركَ العائلةِ بهدفِ أن يتكرّسَ ويخدمَ هناك، حيثُ مشى اللّهُ نفسُه.

ولكن وجَبَ عليه أيضًا أن يتخطّى عائقًا آخرَ وأخيرًا. كان للبنطيِّ تقليدٌ صالحٌ، وهو إن لم يكن عرَّابًا في هذا العالمِ لصبيٍّ ما، ففي الحياةِ الأخرى، سيضعُ المسيحُ صخرةً في حضنِه.

آمنَ أناستاسيوسُ ببساطتِهِ الطبيعيّةِ التي ميّزتْهُ بهذا التقليد. وحينما علِمَ أنَّ امرأةَ أخيهِ ليونيذا حاملٌ، استدرَكَهُ وطلبَ أن

يُعمّد ولدَهُ. وقد سمّوه في المعمودية خارالمبوس.

لنترك الآن الصغيرَ خارالمبوسَ يكبُرُ حتّى ننشغلَ معه قليلاً فيما بعد.

قال أناستاسيوس: «لم يكنْ باستطاعةِ أيِّ شيءٍ آخرَ أن يعيقَني. فجُلّ همِّي، كان جمعَ قليلٍ من المالِ لأجرةِ المركبِ وشراءِ ثيابٍ داخليّةٍ للتبديل. وفي إحدى الأيّامِ الجميلة، وضعتُ الأغراضَ على كتفي، وسلكتُ الطريقَ إلى الأماكنِ المقدسة».

سيرًا على الأقدامِ إلى القسطنطينيّة

انطلقَ أناستاسيوس المشتعلُ بغيرةٍ إلهيّةٍ من روسيا ليصلَ منهَكًا بعدَ مسيرِ أيّامٍ كثيرةٍ ومشقّاتٍ أكثرَ إلى المحطةِ الأولى.

«محطتي الأولى كانت القسطنطينيّة. من هناك بحثتُ عن قاربٍ مُبحرٍ إلى فلسطين. هناكَ حصلَ لي شيءٌ غيرُ متوقَّع. فقد اقتربَ مني غشّاشٌ وعرضَ عليَّ أن يُرشدني، بقصدِ اختلاسِ ما أملكُ من أجرةِ القارب. فأنا دونَ مواربةٍ، كشفتُ له سرِّي بأني سأصيرُ راهبًا. وبما أنّه احتفظَ بكلِّ

المال، مدَّعيًا أن يقطعَ لي تذكرة، فقد أحضرَني إلى منزلٍ سيِّئِ السمعةِ لأقضيَ الليلةَ. وهناك أوعزَ إلى أولئكَ النساءِ الجيّدات أن يعتنِيْنَ بي عنايةً خاصّة. أنا حالما ذهبت، وإذ كنتُ منهكًا من الرحلة، طلبتُ أن يضعُوني في مكانٍ ما لأنام. فأشارت إحدى النساء إلى زاويةٍ في ممرّ. استلقيتُ فيها مباشرةً ونمت. لكني كنتُ باستمرارٍ وبشكلٍ متلاحقٍ أستفيقُ سامعًا ضجيجًا، وأغانيَ، وأحاديثَ غيرَ لائقة...

وإذ طلَعَ الفجر. نهضتُ فشكرتُ وغادرت. استوقفَني، فيما أخرج، شخصٌ مجهولٌ وقال لي:

- أنت، ماذا كنتَ تطلبُ هنا في الداخل؟

فقلت له :

- أحضرُوني لكي أنام.

- يا بنيّ، حيث أحضروك، بيتٌ سيءُ السمعة، لكنّ ملاكَكَ حرسَك. هيا اذهبِ الآن وفي مرَّةٍ أخرى انتبه!

***

سألْنَا الشيخَ، مَنْ كان هذا المجهول؟، فأجابَ ببساطته المعتادة: «ربما هو الملاكُ الحارس، وربما هو القدّيسُ

ألكسيوس!».

اختفى ذاكَ الغشَّاش. وصار الشيخُ مُفلِسًا بالكلّية، لكنّهُ تدبَّرَ بعونِ اللّه أجرةَ المَركَبِ إلى فلسطين.

في الأماكن المقدّسة

أخيرًا وصلَ أناستاسيوس، كظبيٍ ظمآن، إلى الأماكنِ الكلّيةِ القداسة. كان يقيسُ، على حدّ تعبيرِه، كلَّ خطوةٍ من خطواتِهِ بتفكير، لأنّه لم يكنْ مستحقًّا أن يطأَ حيثُ وطئَ المسيحُ وأمّهُ الكلّيةُ القداسة. وصلَ إلى الأماكنِ المقدّسةِ حوالي العام ١٩١٠، وبقي ثماني سنوات تقريبًا، خادمًا في أماكنِ الحجِّ المختلفة: في القبرِ الكلّيّ القداسة، وفي ديرِ السابقِ وفي بيتَ لحم. كان يُسرِعُ بكلّ رغبةٍ إلى أيِّ مكانٍ يرسلونَهُ إليه. أخيرًا صُيِّرَ راهبًا مبتدئًا في جبلِ الأربعين، مُتخذًا اسم أناتوليوس.

وأما أختُه بارثينا، ذاتُ النفْسِ المشابهة، فكانت قد صُيِّرَت راهبةً مبتدئةً في ديرِ الحمايةِ القدُّوسةِ البنطيِّ الشريف، ولمَّا تبلغِ السادسةَ عشْرةَ من العمر، وصار اسمُها إفبراكسيا. فيما بعد، وصلتْ هي أيضًا إلى الأماكنِ الخلاصيَّةِ في فلسطين، ملتهبةً بالغيرةِ الإلهيّة.

كلماتٌ قليلةٌ عن بارثينا الصغيرة

ولكنَّ بارثينا هذه، الأختَ الصغيرةَ لأناستاسيوسَ لم تكنْ أقلَّ من أخيها في الغيرةِ الإلهيّةِ والفضيلة. وسأذكرُ حادثةً غريبةً حصلتْ لها في بدايةِ حياتِها الرهبانيّة.

بما أنَّ أهلَها يتحدَّرون من البنطس، فكانوا يتكلَّمون اللغةَ التركيَّةَ بالدرجةِ الأُولى، ويعرفونَ القليلَ من اللغةِ البنطيَّة. عندما انتقلوا إلى روسيا، كانت بارثينا تَعرفُ فقط اللغةَ التركيّةَ بشكلٍ جيّد. وكما قلنا لم تتأخّرْ هي أيضًا عن أن تحذوَ حذوَ أخيها، فالتحقتْ بديرِ الحمايةِ القدّوسةِ البنطيِّ الشريف.

هناك لم تكنْ تتكلَّمُ اللغةَ اليونانيَّةَ، وعلى الأكثرْ لم تكنْ تفهمُ شيئًا من الخدمِ الكنسيَّة. ولهذا السبب كانت مستاءةً للغاية. ذاتَ ليلةٍ، عاينتْ في نومِها شخصًا قال لها:

- لماذا أنتِ حزينةٌ يا ابنتي؟

- كيف لا، وأنا لا أعرفُ أنْ أتكلَّمَ ولا أن أقرأَ أو أكتبَ، ولا حتّى أنْ أرتّل.

- لا تحزني يا ابنتي. سأعطيكِ دواءً لما تطلبين.

فتحَ لها فمَها، ووضعَ فيه شيئًا مثلَ حبّةِ حلوى. أكلَتْه

واستفاقت. ومن تلكَ الساعةِ انفتحَ ذهنُها وعرفتْ بعد ذلك أنْ تتكلَّمَ وتقرأَ وترتِّل، وبالطبعِ كانتْ تفهمُ بوضوحٍ معاني الكتبِ الليتورجيَّة.

غالبًا ما كان الشيخُ خارالمبوس الدائمُ الذكرِ يُخبرُنا بهذهِ الحادثةِ التي عرفَها قبلَ أن يترهَّب.

لقاء مع يارونيموس الذي من آيينا

في ذلكَ الوقتِ صادفَ أنَّ شمّاسًا تقيًّا جدًّا من أنحاءِ كبّادوكيا، اسمَهُ باسيليوس، بعد أن أتمَّ أوّلاً رغبتَهُ في زيارة كلِّ أماكنِ الحجِّ الخلاصيّة، انتهى إلى ديرِ السابقِ الذي على نهرِ الأردن، حيث خدمَ هناك لأشهرٍ كمدبِّر. هذا الإكليريكيّ هو مُجاهدُ آيينا يارونيموس، الذي ذاعَ صيتهُ فيما بعد.

إلتقى في ديرِ السابقِ الشماسُ التقيُّ - باسيليوس حينذاك- بشابٍّ آخرَ مُلتهبٍ بالحبِّ الإلهيّ، هو المبتدئُ أناتوليوس. هذا اللقاء أحدثَ لكلَيْهما نقطةَ تحوّلٍ في حياتهما. وجدَ أناتوليوس أخيرًا من كان يبحثُ عنه؛ أي المرشدَ المناسبَ ليعلِّمَهُ كيف يجاهد. تعجَّبَ الأبُ باسيليوس لمقدارِ العطشِ الكبيرِ الذي للمبتدئِ الشابّ،

فأخبرَهُ بكلِّ ما رأى وسمع، وبالأكثر ما عاشَهُ بقربِ أناسٍ قدّيسين في بلدِه.

من ذلك اليوم، دخلَ أناتوليوس في برنامجٍ جهاديٍّ قاسٍ. فحالما اكتشفَ الكنزَ وتذوَّقَ للتوِّ الثمارَ الأولى، دعا أختَهُ وقدَّمها للمعلِّم. لم يتأخرِ الأخوان، منذ الدروس الأولى، أن يشعرا في داخلهما بشعلةِ الصلاةِ والعشقِ الإلهيّ.

* * *

بعد أن صُيِّر أناستاسيوسُ راهبًا مبتدئًا في جبل الأربعين، تحت اسمِ أناتوليوس، كسابقِ اختياره، وخدمَ بكلِّ رغبةٍ لثماني سنينَ في أماكنِ الحجِّ المختلفة، وما إن سمعَ من معلِّمه، أنّه يوجدُ مكانٌ مفروزٌ للصلاةِ ولعبادةِ اللّهِ في بلادِ اليونان، هو الجبلُ المقدَّس، حتّى قرَّرَ بدون تأجيلٍ أن يهاجرَ إلى هناك.

أما الشماسُ باسيليوس، معلِّمُه الورعُ الذي حقَّقَ أمنيَتَهُ المشتعلة، فعادَ إلى القسطنطينيّة حيثُ مكثَ لمدّةٍ طويلة. أخيرًا، وبإشارةٍ إلهية، إنتهى إلى جزيرةِ آيينا، وقد شُرطِنَ كاهنًا فأبًا روحيًّا. وعندما سمعَ الكاهنُ والأبُ الروحيُّ بشهرةِ يارونيموسَ رئيسِ ديرِ سيمونوس بيتراس، الذي أصبحَ فيما بعدُ شخصيّةً معروفةً، نزلَ

إلى أمطشِ[٥] الصعودِ في أثينا، وارتبطَ معهُ بعلاقةٍ متينة. وقد ألبسَهُ الرئيسُ فيما بعدُ الإسكيمَ الملائكيّ، مسمّيًا إيّاه يارونيموس.

أما الراهبةُ إفبراكسيا، التي خدمت الأماكنَ السجوديّةَ الخلاصيّةَ أعوامًا كثيرةً، فعندما سمعت أن معلّمها يارونيموس موجودٌ في جزيرة آيينا، وبما أنّها عرفت في شخصهِ الأبَ الحقيقيّ، وكذلك الطبيبَ والمعلّم، كَتقلا أُولى الشهيدات بالنسبةِ لبولسَ، ودَّعت هي الأخرى الأماكنَ السجوديّةَ الخلاصيّةَ وتوجَّهت إلى جزيرة القدّيس نكتاريوس، تابعةً معلّمَها.

الأم إفبراكسيا

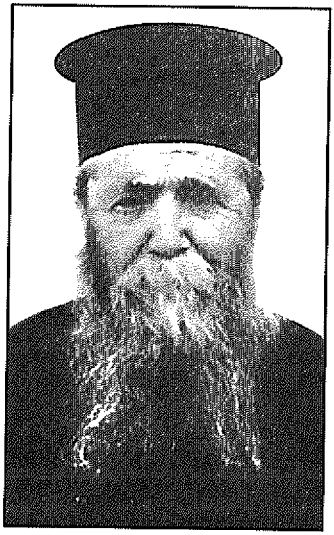

الأب يارونيموس

(٥) بيتٌ تابعٌ للدير

بما أنّني، بالتدبيرِ الإلهيّ، حصلتُ على البركةِ أن أتعرَّفَ إلى مجاهدِ آيينا، الإكليريكيّ اللامعِ والمواهبيّ، أُوردُ قليلاً مما تذوقتُهُ وسمعتهُ من فمهِ المقدَّس، فكان يقول:

«عرفتُ في وطني أناسًا قدّيسينَ تسلّمتُ منهم الأُسسَ الأُولى. أحدُهم كان متزوّجًا وله أولاد. بنى قلّايةً صغيرةً مقابلَ بيتِه، وجاهدَ هناك. فكان يغلقُ على نفسهِ في الداخلِ دونَ خبز، ولا ماء، مع وصيّةٍ قاسية: إن لم يجدوا البابَ مفتوحًا، لا أحدَ يزوره. مرارًا كثيرةً كان يبقى خمسةَ عشرَ يومًا مغلِقًا على نفسهِ وصائمًا. تخيّلوا أيّةَ حالةٍ روحيّةٍ بلغَ ذاك العلمانيّ!».

يقولُ الأبُ يارونيموس أيضًا من أجلِ الفائدة: «لم أمُدَّ يديَّ ولا للحظة إلى المدفأة لأُدفئهما؛ ولا لمستُ في حياتي امرأةً». هذا ما كان يُشدِّدُ عليه دائمًا لكي يحميَ أبناءهُ من علاقاتٍ بريئةٍ محدَّدةٍ يستغلُّها العدو، مرّاتٍ كثيرة، كعثراتٍ حقيقيّة.

هذا الشيخُ كان أوّلَ إنسانٍ موهوبٍ تعرَّفتُ إليه في حياتي، ذي موهبةٍ رؤيويّةٍ نادرة، سبق فرأى بها، بتواضعٍ كلّيّ، أشياءَ كثيرةً مستقبليّة. في تعاليمه، كان يُشدِّد دائمًا على الصلاةِ والمناولةِ المستمرّة، قدرَ المستطاع. ويقول شخصيًّا: «حتّى ولو ذرفتم دمعتَين

في الصلاة، فهذا لهُ قوّةٌ عظيمة».

وفيما يختصُّ بالطعام، فكانَ متساهلاً معنا وشديدَ القسوةِ على نفسه. كانت وجْبتُه المعتادةُ حساءً شرقيًا متقشّفًا، كما أخبرتنا تلميذتُهُ الدائمةُ الذكرِ الأمُّ إقبراكسيا.

والآن أُنهي هذا المقطع واضعًا مقتطفاتٍ مما كتبَتْهُ الكاتبةُ التقيَّةُ سوتيرِيا نوسي في المقطع الثالث من كتاب «اليروندا[٦] يارونيموس الذي من آيينا».

«في ديرِ السابقِ الشريف، الذي في الأراضي المقدّسة، التقى الشيخُ يارونيموسُ مع المبتدئِ أناتوليوسَ آنذاك، شقيقِ الراهبةِ إقبراكسيا بالجسد، التي استحقّت لسبعةٍ وأربعين عامًا كاملاً أن تخدمَهُ بكلِّ بساطةٍ وتقوى. وارتبطَ معهُ برباطٍ أخويّ».

تحتَ إشرافِ ذاكَ المعلّمِ المُرشد، ابتدأ الشابُّ أناتوليوسُ جهاداتِه الكبيرةَ في فلسطين.

إلقاءُ الضوءِ على لغزِ الناسكةِ فوتيني

كتبَ يواكيمُ سبيتسياريس الدائمُ الذكرِ عن الناسكةِ فوتيني،

(٦) اليروندا : هو الشيخ الروحيّ عادةً ما يطلق على رئيس الدير أو الأب الروحيّ.

أنَّها إذ بدأتِ الطَّغماتُ الملائكيّةُ تظهرُ لها في الأردن، انتقلتْ إلى مكانٍ مجهول، لتتوارى عن الأنظار. في هذهِ الفترةِ، كان الشيخ أرسانيوسُ مقيمًا في الأماكنِ المقدَّسة، إذ شاءَ التدبيرُ الإلهيُّ أن يخدمَ في القبرِ المقدَّسِ (١٩١٠-١٩١٨). وقد باحَ الشيخُ ذاتُه بالسرّ لحقارتي قائلاً:

«في تلكَ الفترة، غالبًا ما كانَ يظهرُ راهبٌ غريبٌ أجردُ في سهرانيّاتِ القبرِ المقدّس، ويتابعُ الخِدَمَ بانتباهٍ كبيرٍ وتقوى، لدرجةِ أنَّهُ أثارَ فضولَ الزوّارِ الأتقياء. فيما كانَ آخرون يرجونَهُ كثيرًا للتحدُّثِ إليه، كانَ هذا الراهبُ كما لو أنَّهُ يعيشُ في جوٍّ سماويّ، عاكفًا على تمجيدِ اللهِ بدونِ انقطاعٍ مغلِقًا على نفسه.

لكنَّهُ بطريقةٍ فضوليّة، وفيما كانَ يمرُّ بقربي، نظرَ على الفورِ إلى وجهي. وما عسايَ أقولُ لكَ عن هذهِ النظرة! هادئةٌ، حليمةٌ، مليئةٌ بالجمالِ والمحبّة. محبّةٌ ليس كما يتصوَّرُها العالم، وسينفصلُ ذهنُكَ من هذهِ الأرضِ فتقول: «أهذا أنتَ يا مسيحي تختبرُني؟ أم هل هوَ ملاكٌ سماويّ؟ أو ربّما أحدُ القدّيسين؟ من ثمَّ لماذا رمقَني أنا وحدي بهذهِ

النّظرةِ الحنونة؟ ماذا يعني هذا الأمر؟

وفيما أنا في حيرةٍ من أمري سمعتُ وأنا أصلّي صوتًا في داخلي: «هذا الذي رأيتَهُ ليس رجلاً بل امرأةً تُدعى فوتيني».

فوقعتُ مرَّةً أخرى في حيرةٍ، وبات يأكُلُني الفضولُ لأعرفَ مَنْ تكونُ فوتيني هذه؟ فيما بعدُ عندما صدرَ كتابُ «الناسكةِ فوتيني»، زالَتْ حيرتي كلّيًّا، ولو بعد فترةٍ متأخِّرَةٍ، إذْ كنتُ آنئذٍ في الجبلِ المقدَّسِ، وهي ربَّما كانت في السماوات».

تعليق: فيما بعدُ سُئلَ الكاتبُ عمَّا عسَى تكونُ هذهِ النظرةُ السماويّةُ السرّيةُ التي رمقتْ بها فقطْ الراهبَ أناتوليوسَ (آنذاك)؟

لعلَّها كانتْ تقولُ نبويًّا وبصمت: «أنت حينَ تذهبُ إلى الجبلِ المقدَّسِ ستتعرَّفُ هناكَ بالأبِ الروحيِّ يواكيمَ وثيوفيلاكتوسَ ابنِهِ الروحيّ. وسيزيلُ يواكيمُ حيرتَكَ عمَّنْ أكونُ أنا. وأنتَ، عوضًا عنه، ستتسلَّمُ رعايةَ ابنهِ اليتيمِ (أي الأبَ ثيوفيلاكتوس)». « أنا يا أخي أرضَيْتُ اللّٰهَ في صحراءِ الأردن. توجَّهْ أنتَ إذًا إلى حديقةِ العذراءِ وأَرْضِ اللّٰهَ بجهاداتٍ قاسيةٍ صعبة».

الفصل الثاني

السنون الأولى في الجبل المقدس
الطاعة للشيخ البسيط أفرام

الجبل المقدس - دير ستافرونيكيتا الشريف

عندما غادرَ الراهبُ أناتوليوس أماكنَ السجودِ المقدّسةِ حوالي سنة ١٩١٨، توجَّهَ كنسرٍ مجنَّحٍ إلى الجبلِ المقدّسِ حيثُ اختارَ الديرَ الأفقرَ آنذاك، ديرَ ستافرونيكيتا الشريف، بهدفِ الاستفادةِ من برنامجِهِ الفرديِّ لجهاداتٍ أقصى. فما لبثتْ أن برزت فضيلةُ الشابّ، الذي من جهةٍ، كان يخدمُ نهارًا في كلِّ مكان حيثُ تدعو الحاجة، ومن جهةٍ أخرى كان يسهرُ الليلَ بالطريقةِ التي لقَّنهُ إياها المجاهدُ يارونيموس.

خلالَ فترةٍ قصيرةٍ لبسَ الإسكيمَ الملائكيّ، مُتخذًا اسمَ أرسانيوس. تمَّتْ خدمةُ السيامةِ في قلاّيةِ بشارةِ العذراءِ الكبيرةِ التابعةِ لديرِ سيمونوس بيتراس في كَارياس، وفقًا لمشيئةِ عرّابه. وبتقبُّلِهِ الإسكيمَ المقدَّسَ طمحَ قلبُ الشابِّ أرسانيوس إلى جهاداتٍ أوفرَ نسكًا. لذلك اختارَ ديرَ ستافرونيكيتا الذي بدا له قاسيًا جدًّا، ورغبَ به.

ما برحتْ مشاعرُ الشابِّ تتأرجح: فمن ناحية، كان يتوقُ إلى الهدوء، ومن ناحيةٍ أخرى، كان يخافُ، إذ ربما لم تكنْ تلك مشيئةُ اللّهِ أن يتركَ، بسبب حياةٍ أسمى، نمطَ توبتِهِ الذي اتَّخذهُ بمشورةِ مرشدِهِ وحسبَ نصائحه. لذلك وضعَ موضوعَ صلاةِ المزمور «عرّفني يا ربُّ الطريقَ التي أسلكُها» كقانون. ولم يتأخّرِ اللّه المحبُّ البشر، الذي يعملُ مشيئةَ خائفيه أن يُعلِمَ هذه النفسَ النقيَّة، بصوتٍ شبيهٍ بذاك الذي سمعهُ سميُّهُ أرسانيوس الكبير: «أرسانيوس، اهربْ فتخلص - أرسانيوس أصمتْ، إهدأ».

نحو الصحراء الداخليّة

بما أنّه أخذَ العلمَ والدعوةَ من فوق، فلم يُعِقْه أيُّ شيء؛

للتوِّ أخذَ بركةَ عرّابِه وصلاتَه، وركضَ إلى قمّةِ جبلِ آثوس، كظبي عطشان، حيثُ كانت توجدُ في ذلك العصرِ مجموعةٌ مشهورةٌ من المجاهدينَ المتوشّحينَ باللّهِ والآباءِ الروحيّين، والذين تميَّز بينهم، كفجرٍ مُضيء، الشيخُ دانيال، مؤسِّسُ منسكِ الدانياليّين المشهور.

معرفة الراهب أرسانيوس بالشابّ فرانكيسكون

شابٌّ آخرُ، يُدعى فرانكيسكون، غادرَ العالميّاتِ بدعوةٍ وتدبيرٍ إلهيَّين، وبغيرةٍ إلهيّةٍ نادرة، وصلَ إلى الجبلِ المقدَّس حوالي ١٩٢٠- ١٩٢١، مفتِّشًا عن كهوفِ الجبلِ المقدَّسِ وثغورِه، طالبًا المجاهدينَ المتوشّحينَ باللّه لإرواءِ عطشِه الروحيّ.

صعد كِلا الشابَّين، بإشارةٍ إلهيّة، إلى القمّة المقدَّسة في الخامسِ من شهرِ آب للمشاركةِ في سهرانيّةِ التجلّي الاحتفاليّة. هناك، في القمّة، عاليًا، صارَ تعارفُهُما الأوّل. وحالَ تأكُّدِهما من تماهي طلباتهما ورغبتِهما الإلهيّة، تواعدا على أن يبقيا معًا لا يفرِّقُهما إلاّ الموت.

* * *

يجدرُ بنا حقًا أن نُشدِّدَ على الأمرِ التالي، أنَّ الأبَ أرسانيوس

بإحساسهِ البالغِ وحسنِ تقديره، لاحظَ في العلمانيِّ فرانكيسكون مواهبَ كبيرة، إحداها الإدارة. فدعاهُ من اللحظةِ الأولى لأن يستلمَ هو القيادة. وقال له: «**من الآن أنتَ ستكونُ العينَ وأنا الأذن**».

بعدما نزلا من قمّةِ الجبلِ المقدّس، عبرا بمنسكِ الشيخ دانيال الذي سبقَ ذكرُه، متأكّدَين أنّه أبٌ معاصرٌ متوشّحٌ باللّه. لكن بسبب مبالغتِهما بالحماسة، لم يسمحْ لهما أن يجلسا إلى المائدةِ المشتركةِ المعتادة، فلم يمكُثا هناك. لكن قبْلَ أن يغادرا لمتابعةِ بحثِهما، حَسُنَ لديهما أن يستشيرا هذا الأبَ الروحيَّ المشهور، الذي لاحظَ حميَّتَهما الصافية، فلم يُرِدْ أن يعارضَ هدفَهما. لكنّه شدَّد عليهما أنّه من الضروريّ أن يخضعا لشيخٍ مناسبٍ حتّى نهايةِ حياتِه، لكي يُحفظا من شراكِ الخدّاع ويرثا صلاةَ شيخِهما.

ولكي نلوّنَ السّردَ ونتذوّقَ قليلاً من حماستِهما النادرة وجهاداتِ فرانكيسكون الأولى، أُعيرُهُ القلمَ قليلاً، لكي يكتبَ في سيرةِ حياتِه في واحدةٍ من رسائلِه الكثيرة (تعبير عن خبرةٍ رهبانية، الرسالة السابعة والثلاثين)[٧]:

(٧) نص الرسالة مأخوذ من كتاب "الشيخ يوسف الهدوئي" منشورات التراث الآبائي نقله إلى العربيّة الأرشمندريت الراهب توما.

«حين كنتُ في العالمِ كانت لي، سرًّا، جهاداتٌ قاسيةٌ حتّى الدم. كنت آكلُ مرَّةً واحدةً كلَّ يومَين، فقط بعد الساعة الثالثة. جبالُ بندلّي وكهوفُها عرفتني كالبَجَع، جائعًا، صارخًا، طالبًا الخلاص. كنت أمتحنُ نفسي لأرى ما إذا كنتُ قادرًا على مكابدةِ الأتعابِ وأن أصيرَ راهبًا في الجبلِ المقدَّسِ آثوس. وما إن تمرَّستُ جيّدًا على هذا النمطِ من الحياة، لبضعِ سنوات، حتّى توسَّلتُ إلى الربِّ أن يسامحني لأنّي كنت أتناولُ الطعامَ مرةً كلَّ يومين. قطعتُ عهدًا على نفسي، متى خرجتُ إلى الجبلِ المقدس، أن أتناولَ الطعامَ مرَّةً كلَّ ثمانيةِ أيّام، كما وردَ في سيرِ القديسين».

إذ تمنطَقا بهذا الشوقِ الإلهيِّ النادر، كانا يجولان على كلِّ

الشيخ دانيال كاتوناكيا

المناسكِ المشهورةِ والكهوفِ وكلِّ ثغورِ الأرضِ الآثوسيّةِ لإرواءِ عطشِهما الروحيّ. وكتَبَ شخصيًّا في ذاتِ الرسالة: «كهوفُ آثوسَ كلُّها قبلَتْني زائرًا خطوةً تلوَ الأخرى... لكي أعثرَ على أبٍ روحيٍّ يعلّمُني التأمّلَ والعملَ السماويَّين».

البحثُ عن شيخٍ روحيّ

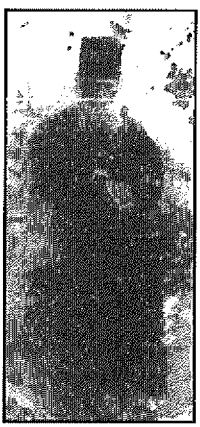
الأب كالّينيكوس

فعندما نزلا من منسكِ الدانياليّين، كانت تشعُّ حينذاك شهرةُ الهدوئيِّ الكبيرِ كالّينيكوس. هكذا أخبرَ الأبُ أرسانيوس: «قمنا بزيارتِهِ ورجوناهُ أن يقبلَنا في أخويَّته. وبالفعلِ قبِلَنا، لكنَّ وصيَّته الوحيدةَ كانت أن نحافظَ على الطاعةِ بكلِّ دقّة.

– نعم، فليكن مباركًا أيّها الشيخ، كلُّ ما تريدونه، ولكن قلْ لنا كيف نجاهد.

عندذاك قالَ لنا ذلكَ المجاهدُ العظيم :

– إن أنا علَّمتُكما حِرْفتي وتلذَّذتما بعسلِ الهدوء، فمن ينتبهُ إلى الأعمال؟

- وماذا نفعل؟

- الآن ستطيعان، وعندما أموتُ ترِثان موهبتي.»

إذذاك تبادلَ الشابّان النظرات. فالكلامُ صعبٌ. فبالفعل، هذا ما كانت عليه بدايةُ هذا الهدوئيّ الكبير.

* * *

وتابعَ الأبُ أرسانيوس: «في الواقع، كانت هذه طريقةً غيرَ مباشرةٍ لنغادر؛ لأنّ الأبَ كالّينيكوس كان يبقى دائمًا مغلِقًا على نفسِه، ولا يفتحُ لأحد. وكانت لَهُ عادةٌ يعرفُها الجيران، أنّهُ إذا ما احتاجَ إلى شيءٍ يرفعُ منديلاً كالعلم، بحيثُ أنَّ أوَّلَ مَنْ يرى هذا المنديلَ يعرفُ أنَّ الشيخَ يحتاجُ إلى شيءٍ ما، فيدخلُ الكوخ.

بعدئذٍ سألناهُ مجددًا:

- أيّها الشيخ، إنْ نحن غادرنا مِنْ هنا، هل تقبلُنا من وقتٍ لآخرَ كي توجِّهنا؟

- بكلِّ تأكيد، يكفي أوّلاً أن تجدا أبًا روحيًّا وببركتهِ سأكونُ في خدمتِكما».

أظنُّ أنّهُ ينبغي ألاّ يبقى نظامُ هذا الهدوئيّ الكبيرِ معتّمًا

عليه. هو نفسُه كان يعيشُ في صومٍ قاسٍ ويسهرُ طوالَ الليل، ولكنّه أعطى الحكمَ للطاعةِ المغبوطةِ ولقطعِ المشيئةِ الذاتيّة؛ متماهيًا هكذا بامتياز، مع نصيحةِ الشيخِ دانيالَ المستنير، الذي في منسكِ الدانياليّين الصغيرِ ذي العيشةِ المشتركة، ومع محفلِ كلِّ الآباءِ الأبرارِ والمتوشّحين باللّه، الذين يعتقدونَ بالإجماعِ أنّه بدونِ طاعة، فإنّنا نؤسّسُ بيتًا على الرملِ بالرغمِ من كلِّ صعوبةِ حياتنا.

* * *

يصفُ الأبُ يوسفُ رؤيتَهُ الروحيّة الأولى، في الرسالة التي أوردناها، عندما اكتسبَ صلاةً غيرَ منقطعة، كان يقول: «في يومٍ من الأيّام حيثُ صادفتني تجاربُ كثيرة»، مُتغاضيًا عن نوعِ التجاربِ الكثيرةِ وضخامتِها، التي أعلَمَنا بها الأبُ أرسانيوس، كونَهُ يعرفُها. إذًا، فالشيءُ الوحيدُ الذي نستطيعُ أن نعترفَ به هو، أنّه بالواقع «جاز في النار والماء»، بحسبِ قولِ المزمور.

ولكي يظهرَ قولُ السيّدِ أنّه فقط بواسطةِ التجاربِ والأحزان، «يجبُ أن ندخلَ ملكوتَ السماوات»، فقد تَقَبَّلَ الافتقادَ الإلهيَّ العظيمَ والأوّل، وكان «صائمًا ومنهكًا من كثرة الدموع[٨]»، كما يكتب هو نفسه.

(٨) نفس المرجع

خضوعُ المجاهدَين للشيخِ البسيط والقدّيس أفرام

كما جاءَ في الرسالةِ السابعةِ والثلاثين: «أخيرًا، وجدْنا شيخًا بسيطًا وصالحًا وغيرَ سيِّئ. أعطانا البركةَ أن نجاهدَ على قدرِ استطاعتنا ونعترفَ عند أيِّ أبٍ روحيٍّ نرتاحُ إليه». كان هذا الشيخُ معروفًا بأفرامَ البراميليّ (أي صانعَ البراميل)، وكانت قلاّيتُه على اسمِ بشارةِ والدةِ الإله، تحت منسكِ الدانياليّين المعروف. لم يتأخّرْ هذا الشيخُ الصالحُ عن إعطاءِ الراهبِ المبتدئ فرانكيسكون الإسكيمَ، مسمّيًا إيّاهُ يوسف.

ولكن سيكون من الظلمِ أنْ نُحجمَ عن ذكرِ فضائلِ هذا الشيخِ القدّيسِ أفرامَ، التي هي عدمُ القنية، والتفاني، والتقشّفُ والبساطةُ المغبوطة، التي لسوءِ الحظ، كان كثيرونَ يستغلُّونها لمصلحةٍ شخصيّة.

كان عملُهُ اليدويُّ الأساسيُّ صناعةَ البراميل. لم يرفضْ أبدًا مساعدةَ أيِّ كان، حتّى ولو كان العملُ على قَدْرٍ كبيرٍ من الصعوبة، ولكنّه لم يكن يطلبُ من أحدٍ المالَ البتّة. بل كان، وهو الماهرُ في صناعةِ البراميل، يأخذُ أيَّ مبلغٍ تعطيه إياه، وهذا ما جعلَهُ يعملُ ليلاً نهارًا من أجلِ الآخرين على حسابِ عملِهِ الروحيّ.

كذلك عرفَ به العلمانيّون، فتراكضوا إليه من أجلِ البراميل. فإذا ما انتهى من تصنيعِ البرميل، وكان وقتئذٍ يقدَّرُ بألفِ ذراخما، يعطونه مبلغًا يتراوحُ بين خمسين ومائةِ ذراخما، ويقولون له:

- أليس هذا جيّدًا أيّها الشيخ أفرام؟

- نعم، نعم، جيّدٌ يا بنيّ، أشكرك.

* * *

يقول الأب أرسانيوس: «**لم نتأخَّرْ لنفهمَ ماذا يجري، حتّى أنّ الأبَ يوسفَ ناداني ذاتَ يومٍ ليقول لي: «هذا العملُ اليدويّ، يُفقِدُنا الهدوء، ويعرِّض رئيسَنا لخطرِ الإعياء، بسببِ ما يتميّزُ به من سخاءٍ بالغ. لِنُقِمِ الصلاةَ أوّلاً أيّها الأبُ أرسانيوس، وبعدئذٍ نسألُهُ إن كان يوافقُ أن نغادرَ معه إلى مكانٍ أكثرَ هدوءًا». وهكذا كان. فما إن قلنا الفكرةَ للشيخِ حتّى قبِلَ بفرحٍ كبيرٍ، كأنّنا أخرجناهُ من مأزقٍ. وطلبَ مِنّا أن نفتِّشَ عن مكانٍ أكثرَ هدوءًا**».

في إسقيط القديس باسيليوس (١٩٢٣-١٩٣٨)

ويتابعُ الشيخُ أرسانيوس: «**عندما قرَّرنا أن نُعتِقَ الشيخَ من**

هذا العملِ اليدويِّ الثقيل، وقعَ نظرُنا على إسقيطِ القدّيسِ باسيليوس، حيثُ وَجدنا مكانًا منعزلاً جدًّا، هادئًا، وصعبَ الوصولِ إليه.

ففي صباحٍ طيّب، حالما ودَّعنا كنيسةَ البشارةِ الخشوعيّةِ وكلَّ الجيران، ركبنا بَغلاً وأخذنا معنا بعض الأغراضِ الضروريّة متّجهينَ إلى إسقيطِ القدّيسِ باسيليوس.

أوحَتْ لنا هذه الصخورُ الوعرةُ والموحشة، أنّها منزلُ الناسكِ الأوّلِ ورئيسِ الطغمة الرهبانيّة. لذا، كرّسنا الكنيسةَ التي شيّدناها للسابقِ العظيم يوحنّا المعمدان.

هنا في هذا المكانِ المبارك، بدأنا جهاداتِنا الكبيرة. أما فيما يخصُّ رئيسَنا المنعتقَ من الأمورِ المعيشيّة، فقد فرحَ وتجدَّدَ جهادُهُ على الأثرِ وأعطى كلَّ قواهُ لعيشةٍ روحيّةٍ أسمى وسهَرٍ طوال الليل».

وكما اعتادَ الشيخُ أرسانيوسُ أن يُسلِّينا ولو قليلاً، قال:

«في آخرِ حياتِه، كما هو طبيعيّ، استُنفدتْ قوى رئيسِنا وما عادَ قادرًا أن يتمِّمَ السهرانيّة والمسابحَ التي كان يتمِّمها قبلاً.

في ذلك الوقت، اعتادَ الراهبُ متّى الذي نسكَ في إسقيطِ القدّيسِ باسيليوس، وقد صارَ فيما بعدُ رئيسَ الفريقِ المتّاوي للتقويمِ القديم، أن يعتليَ المِنبرَ في الاجتماعاتِ المشتركةِ ويَعِظَ النسّاك. وذات مرّةٍ قالَ في العظة: «يا إخوة، قَصُرَتِ الأيّامُ».

وفي طريقِ العودةِ إلى البيت، قال لهُ الشيخُ ببساطتِهِ الكلّية: «يا ولدي، عفارم على الأبِ متّى! فاليومَ أجابَ على تساؤلي. لهذا السببِ أنا الآنَ لا أتمِّمُ مسابحَ كثيرةً كالسابق، فقد قَصُرَتِ الأيّام!».

ولكنّ الأبَ أرسانيوسَ أجابهُ بالبساطةِ نفسِها:

- «لا أيّها الشيخ، أنت تنامُ بسببِ الشّيخوخة».

فأجابَ الشيخُ من جديد:

- «لا، بلِ الليالي قَصُرَتْ على حدِّ قولِ متّى».

بمثلِ موهبةِ البساطةِ النادرةِ هذه، تركَ هذا الشيخُ الوقتيّاتِ، بما أنّه سبقَ فرأى نهايتَهُ، مخلّفًا إبنَيه الروحيّين المشمولَين دومًا بصلاته.

* * *

الراهبُ أرسانيوس يرى الشيخَ أفرامَ في الحلمِ بعد رقادِهِ

قبلَ أنْ أذكرَ الحلمَ، من المفيدِ أن أذكرَ ما يلي:

قُلنا للتوّ إنَّ الشيخَ أفرامَ المغبوطَ كان صانعَ براميلَ ماهرًا. ولكنْ فَاتَني أن أذكرَ أنَّهُ كان في الوقتِ نفسهِ حفَّارَ خشبٍ ممتازًا. لقد كان يُتقِنُ، إلى جانبِ مهنةِ تصنيعِ البراميلِ، مهنةَ الحفرِ على الخشب. وكانَ على الأخصِّ قد حفرَ إيقونسطاساتٍ لكنائسَ كثيرة. في الفترةِ التي نسكَ فيها الراهبان يوسفُ وأرسانيوسُ بقربهِ في كاتوناكيا، جُدِّدتْ كنيسةُ قلاّيةِ رؤساءِ الملائكة.

استدعى شيخُ القلاّيةِ حفّارًا، فطلبَ عشرينَ ليرةً ذهبيّة. وبما أنَّ الشيخَ لمْ يكنْ يملكُ المبلغَ، استدعى الشيخَ أفرام.

- هل تصنعُ إيقونسطاسًا؟

- نعم، أصنع.

ولم يتكلّما البتّةَ عن الكلفة. أنهى الشيخ أفرامُ العملَ وحانَ الآنَ موعدُ الدّفع، فبحثَ الشيخ في الصندوقِ، فلمْ يعثرْ إلاّ على لَيرتَين فقط. فأخرجهما وناولهما له قائلاً:

- هل هذا جيّدٌ أيّها الشيخ أفرام؟

- جيّدٌ، جيّدٌ أيّها الشيخ، شكرًا لك.

قال لنا الشيخ أرسانيوس: «أنا حالما عرفتُ اشتعلتُ بكلّيّتي، لم أستطعْ أنْ أحتمل، فذهبتُ إلى الشيخِ وقلتُ له:

- أيّها الشيخ، لا أستطيعُ أن أحتملَ الأمر. ذاكَ طلبَ عشرين ليرةً وأنت اكتفيتَ بليرتين فقط؟

فأجابَه الشيخُ البسيطُ الحكيم:

- يا بنيَّ، إذا استوفَينا كلَّ أجرِنا هنا، فماذا سيبقى لنا في السماوات؟

إذذاك فهمتُ أنَّ شيخَنا لم يكنْ طمَّاعًا. لديه فضيلةٌ لم نبلغْها نحن بعد. ولكن لكي أرى هذا بعيني، سأقولُ لكم ماذا أظهرَ ليَ الله.

بعدَ بضعةِ أيامٍ من رقادِ شيخِنا أفرامَ، رأيتُهُ في رؤيا فيما كنتُ أصلّي.

كان في مكانٍ مفعمٍ بالفرح، ويلمعُ وجهُهُ من كثرةِ المجدِ ويقفُ خارجَ كنيسةٍ صغيرةٍ غايةٍ في الجمال. فرحتُ عندما رأيتُهُ يتمتَّعُ بهذا المجدِ كلِّهِ وسألتُه:

- أيّها الشيخ، ما هذهِ الكنيسةُ الجميلة؟

داخل الكوخ في إسقيط القدّيس باسيليوس

- آه، هذه لي. هل تذكرُ الإيقونسطاس الذي حفرتُه بليرتَين؟ وبما أنَّني لم أقبضْ هناك، ولم أتذمَّرْ أو أتأفَّفْ، فقد حفظني المسيحُ في السماء. أتذكرُ ما قلتُ لك؟»

ثم قالَ الشيخُ أرسانيوس: **«عدتُ إلى نفسي من الرؤيا مملوءًا فرحًا، ولكنَّ الشيخَ لقَّنني، بعدَ موتِه، درسًا كبيرًا لن أنساه ما حييت».**

لقد أخبرَ الشيخُ أرسانيوسُ هذه الحادثةَ لكثيرين، كذلكَ الشيخُ خارالمبوسُ الدائمُ الذكرِ كان يذكرُها مرّاتٍ كثيرةً من أجلِ المنفعة.

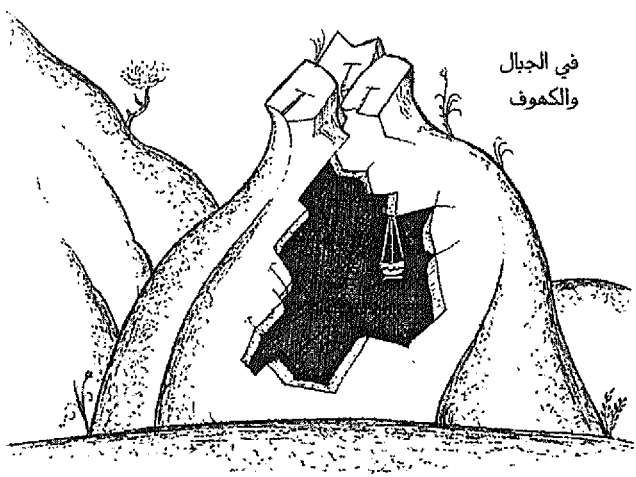

الفصل الثالث

جهاداتٌ أقوى بعدَ رقادِ رئيسهما الشريف

الراهب يوسف مُتَقدِّمًا

إثرَ رقادِ رئيسِهما، قالَ الراهبُ أرسانيوسُ للأبِ يوسف: **«تعرفُ يا أخي أنّي لا أستطيعُ أن أكونَ المتقدِّم، لذلك أرجوكَ أن تستلمَ أنتَ المسؤوليّةَ وسأخضعُ لكَ وأطيعُكَ حتّى الموت».**

هكذا يظهرُ بوضوحٍ التواضعُ الكبيرُ الذي ميَّزَ المجاهدَ منذ حداثتِه. فإنَّه غيرُ مهمٍّ لكَ أن تعرفَ كلَّ شيءٍ، بل أن تُدركَ حجمَكَ وتعرفَ مواهبَ الآخرين.

وبغضِّ النظرِ عن أنَّ الأبَ أرسانيوس كان يفوقُ شريكَهُ في

الجهادِ بعشرِ سنواتٍ من حياتِه الرهبانيّة، وكذلك في السنّ، لكنّه مع ذلك تمكّنَ من الإطاحةِ بشيطانِ حبِّ المجد، مفضّلاً طاعةً نموذجيّةً لمن هو أصغرُ منه. فبحسبِ قوانينِ جبلِ آثوس، الأقدمُ في أخويّةِ أيّةِ قلاّيةٍ يعقبُ رئيسَهُ بكلِّ استحقاق.

والواقعُ أنّ الأبَ أرسانيوس لم يُحفقْ في تقديراته، فقد ظَهَرَ الأبُ يوسفُ فيما بعد، إنسانًا أُهِّلَ لمواهبَ عظيمةٍ، لم يستأثرْ بها، بل أفادَ بها رفيقَهُ في الجهادِ وكلَّ من تبِعَهُ. وكان يدعو الملتحقين بالأخويّة، أبناءً وتلاميذَ، بينما كان دائمًا يدعو الأبَ أرسانيوسَ أخاه ورفيقَه في الجهاد، ويكرّمُهُ في الاجتماعاتِ المشتركةِ كشيخٍ موقّر.

من هنا فصاعدًا، يبدأ المجاهدان العظيمان جهاداتٍ أقسى.

مع الهدوئيّ دانيال – الشيخ كيرللس

يقول الأب أرسانيوس:

أثناءَ بحثنا عن آباءٍ أبرارٍ ومتوشّحين بالله، اكتشفْنا في كهفِ القدّيسِ بطرس، ناسكًا نادرًا، هو الأبُ دانيال، الذي امتلكَ موهبةَ الدموعِ المتدفّقةِ منه كمِن نبعٍ. وقد تزيَّنَ

بمواهبَ أخرى كثيرةٍ وقبْلَ كلِّ شيءٍ بالتمييز، وبُعدِ النظر، والمعاينةِ المسبقة. وعلامةً على موهبةِ المعاينةِ المُسبقة، سأقصُّ ما جرى لابني الروحيّ، الشيخِ كيرللس الذي من الإسقيط الجديد.

توجدُ في الإسقيطِ الجديدِ قلاّيةٌ على اسمِ الينبوعِ المُعطي الحياة. هناكَ نسكَ شابٌّ تقيٌّ خلَّفَ وراءَه أخاهُ اليتيم. وإذ قلقَ عليه، قرّرَ أن يذهبَ ليتعرَّفَ على الأبِ دانيالَ ويسترشدَ به.

أمَّا الأبُ دانيال، فبدونِ أن يعرفَهُ وقبلَ أن يبادرَهُ ذاك بأيَّةِ حركة، ناداهُ باسمهِ وقال: «أيّها الأبُ كيرللس، لا تقلقْ بشأنِ نيكوس، فإنّه بحالة جيّدة وهو يتهيَّأُ ليأتيَ بسرعةٍ ليكونَ قُربَكَ.»

بالفعل، وبعدَ قليل، وصلَ نيكوسُ ليكونَ بقربِ أخيه.

ويقول الشيخ:

«بما أننا تكلَّمنا عن الأبِ كيرللس، فسأقولُ بشأنهِ كلمتَين، لأنّه يستحقُّ هذا، وبعد ذلك نكملُ عن الأبِ دانيال.

تشدَّدَ نيكوس إذًا بقرب أخيه وصارَ راهبًا، وفيما بعدُ كاهنًا، عرفَهُ الجميع بالأبِ نيوفيطس. ولكنّ رئيسَهما تُوُفّي بعدذاك، تاركًا الاثنين مبتدئين فقط راسوفوروس[٩]. وعندما نزلنا مع الشيخِ وأخويّتنا من كهوفِ القدّيسةِ حنة إلى الإسقيطِ الجديد، تبعَنَا هذان الأخوان وسكنّا بجوارِنا.

بعدَ رقادِ رئيسنا، كانا يقولان لي أفكارَهما. فقرَّرتُ أخيرًا أن أجعلَ كيرللس راهبًا حاملاً الإسكيم رئيسًا للقلاّية، وهو بدوره، يقبَلُ الأبَ نيوفيطس.

وعلى الرغمِ من كلِّ العوامل الخارجيّة، لم ينفصلا عن الآباءِ الآخرين، فقبلهما الجميعُ كراهبَين فاضلَين مستَتِرَين وبالأكثر كيرللس، الذي حصل في آخر حياته (١٩٦٦-١٩٦٧) على موهبةِ بُعد النظرِ والمعرفةِ المُسبقة. فكان يكشفُ للبعضِ خطايا غيرَ مُعتَرَفٍ بها ويعطي لكثيرينَ أجوبةً على تساؤلاتٍ ومشاكلَ لا حلَّ لها. دعوني الآن أذكرُ حادثتين:

قال لرئيسِ إحدى الأخويّات: «كلُّ رهبانِكَ يسيرونَ بشكلٍ جيّدٍ جدًّا ما عدا (ش). فأجابهُ الشيخ حينئذ: «يبروندا

(٩) الراسوفوروس هو الراهب اللابس الجبة

كيرللس أخطأتَ، أنا ليس عندي (ش) في الأخويّة». فأجابَهُ كيرللس: «عندك». إذذاك غادرَ الشيخُ وهو متكدِّر. ولكن بعدَ مضيِّ وقتٍ قصير، نجحَ المجرِّبُ من جعلِ أحدِ الإخوةِ يخفي أفكارَهُ إلى درجةٍ كبيرةٍ حتّى إنّه خرجَ إلى العالمِ فصرعهُ وجرَّدهُ من جبَّته. فراح يصيحُ في الطريق، «أنا أدعى (ش)»، وكان هذا اسمَهُ العالميّ.

لكن الأمرَ الأكثرَ غرابةً هو أنَّه ومنذ سنينَ كثيرة، سبقَ الأبُ فرأى مستقبلَ أخويَّاتِنا الصغيرة قائلاً حرفيًّا، ومشيرًا إلى قلاّياتنا: «من هذه القلاّياتِ سيخرجُ رؤساءُ كُثُرٌ».

حقًّا، حتّى ولو ظهرَ الأمر غيرَ قابلٍ للتصديق، لا من قريب ولا من بعيد، فقد خرجَ خمسةُ رؤساءِ أديرةٍ من هذه القلاّياتِ الصغيرة[١٠]».

***

ويتابع الشيخ عن دانيال الهدوئيّ:

«هذا الشيخُ الكبير، الأبُ دانيال، كان نظامُهُ أن يسهرَ كلَّ مساءٍ ويخدمَ الليتورجيا في نصفِ الليل. فما كان

(١٠) هذا إلى حين رقاد الشيخ أرسانيوس. فبعد موته، ارتفع عدد الرؤساء إلى سبعة بإضافة رئيسين من دير الفاتوبيذي، واحدًا منهما صار أسقفًا.

يقبلُ أن يرتِّلُ له أحدٌ في الخدمة، غيرَ ابنهِ الروحيّ الأبِ أنطونيوس. فأساءَ كثيرون فهمَه، واعتبروه متملّقًا. وذلك لأنّه في كلِّ مرةٍ يقيمُ فيها الخدمة، كانَ يذرفُ نهرًا من الدموعِ وتستغرقُ الخدمةُ معهُ من ساعتين إلى ثلاثِ ساعات.

بعد انتهائِه من الخدمةِ، كان يغلقُ على نفسهِ مباشرةً في قلاّيتهِ لكي يكملَ ذرفَ الدموعِ لساعاتٍ طوال. ولحسنِ الحظّ، كان يستقبلني مع الشيخِ يوسفَ بشكلٍ استثنائيّ.

لأنّه كان يعرفُ أننا ننتظرُ كلمةً صالحةً من فمهِ المقدَّس، فأَوَّلُ حديثٍ اعتادَ أن يقولَهُ هو: تقولُ القدِّيسةُ سينكليتيكي: «المصباحُ ينير، ولكنَّ شفتَيه تحرقان».

يقولُ هذا القولَ ويعنيه، إذ تخوَّفَ من فقدانِ الحالةِ التي امتلكها، بسبب الأحاديثِ المشتركةِ. فيقولُ لنا بعضَ الأقوال. وبالطبع، لكي لا يضيعَ الوقت، كان يقرأُ أفكارنا بمفرده، ويدخلُ مباشرةً في مشاكلِنا. وبمجرّدِ أن يعطيَنا الوصفاتِ المناسبة، كان يطلقنا بسلام.

طعامُه هو نفسُه دائمًا. يأكلُ كلَّ السنةِ مرّةً واحدةً في اليومِ الفاصولياء المسلوقة. فرئاسةُ الديرِ ترسلُ له كيسًا كبيرًا

كلَّ سنة، أمّا ذاك الشيخُ القدّيسُ المتّكلُ على اللهِ في كلِّ الأمور، فيأكلُ دون تأفّفٍ قائلاً: «هذه أرسَلَها لنا الله، فإيّاها نأكل».

لكنَّ الشيخَ يوسفَ لم يقبلْ هذا البرنامج، لأنَّ أكلَ الفاصولياء باستمرارٍ يُحْدِثُ للناسكِ نفخةً وتأثيراتٍ في الجهازِ الهضميّ. لذلك توجّهَ باحتجاجٍ إلى ديرِ اللافرا دونَ أن يسألَ الشيخ. ومنذئذٍ لم يعودوا يرسلوا له الفاصولياء.

من هذا المجاهدِ الكبيرِ والشيخِ كالّينيكوس، تسلَّمنا ترتيبَ السهرانيّات الليليّة والنظامَ الغذائيَّ اليوميّ. فكنّا على مدارِ السنةِ نأكلُ مرَّةً واحدةً في اليوم، خمسةَ أيّامٍ بدون زيت، ونهارَيِ السبت والأحد نضعُ بضعَ نقاطٍ من الزيتِ في طعامِنا البسيط. فكنّا نأكلُ البِقسماط (الخبزَ المجفّف)، ونادرًا ما كان يصادفُ لدينا بعض الخبزِ الطازج؛ وطبعًا وضعَ لنا الشيخُ دانيال مقياسًا، إذ كان يمسكُ بكفِّهِ على قدرِ ما يسعُ ويقولُ لنا: «هذه هي الكميّة لتأكلوها».

إذا وجدنا بعضًا من البقولِ البرّيةِ أو صادفَ شيءٌ آخرُ جاهزٌ لدينا، كنّا نمزجهُ مع البِقسماط. وأما نهارَيِ السبت

والأحد فنأكلُ بعضًا من السردين أو قليلاً من الجبن إن وُجِدَ.»

هذه الشهادةُ يؤكّدها الشيخُ الكبيرُ يوسف قائلاً في الرسالةِ السابعةِ والثلاثين: «كان نظامُنا أن نأكلَ مرّةً واحدةً في اليومِ مقدارًا قليلاً من الخبزِ والطعام، وحتّى في الفصحِ كنّا نأكلُ وجبةً واحدة. ونقيمُ السهرانيّات على مدارِ السنة. فقد تسلّمنا هذا الترتيب مع الشيخِ أرسانيوس من شيخٍ صَحَويٍّ وقدّيسٍ هو الأبُ دانيال».

بهذه ننهي هذه الفقرةَ حولَ الهدوئيِّ الكبيرِ الأب دانيال، آملينَ من كلِّ الذين يعرفونَ أكثرَ عن حياتهِ العجائبيّة أن يعلنوها للعامّة، إضافةً إلى القليلِ الذي عرفناه من جدّنا أرسانيوس.

الشيخ يوسف (جالسًا) مع الشيخ أرسانيوس عن يمينه ورهبان آخرين

«بقسماط»
النظام الغذائيّ الاعتياديّ للمجاهدين

مرةً، سألْنا الشيخَ أرسانيوسَ أينَ كانوا يجدونَ الخبزَ الذي، كما رأينا، كان غذاءهم الأساسيّ. فقال لنا:

«في عصرِنا كانت الأديرةُ تجمعُ الفضلاتِ عن المائدة، وتُجفِّفُها وتوزّعها للمجاهدين. كنّا نأخذُ كلَّ ما كانوا يعطوننا إياه، أكان جيّدًا أم سيّئًا، رغمَ احتوائهِ على السوسِ أحيانًا.

ذهبت مرّةً إلى أحدِ الأديرةِ من أجلِ قليلٍ من البقسماط، فأعطاني الخادمُ كيسًا كاملاً. فقلت له: «إنّه كثير»، «كلاّ، خذه». إنّه أمرٌ متعبٌ أن تحملَ كيسًا مليئًا من الديرِ يحتوي أشياءَ أخرى مختلفة، وتصعد به إلى قمّة القدّيس باسيليوس! ولكني وصلتُ أخيرًا. فتحتُهُ مع الشيخ، فماذا وجدنا؟ كلُّه مُسَوِّسٌ؛ فتذمَّرتُ كإنسانٍ:

- هه ذاكَ المبارك، لِمَ لَمْ يَرْمِها للبغال؟ أكان ضروريًّا أن أبذلَ الجهدَ عبثًا في حملها؟

حينذاك قال لي الشيخ:

- لماذا عبثًا، أيّها الأبُ أرسانيوس؟

- وماذا سنعملُ بها؟

- ماذا سنعملُ بها؟ سنأكلُها! هذا ما أعطانا إيّاه الله، فلو كُنّا نستحقُّ أكثر، لكان أرسلَ لنا أفضل.

- وماذا سيصيرُ بهذا السُّوسِ أيّها الشيخ؟

فكَّرَ الشيخُ قليلاً وجاوب:

وجدتُ الحلَّ، من الآن فصاعدًا سنأكلُ عندما يحلُّ الظلام، وهكذا لا نعودُ نرى السوس.»

وخلُص الشيخُ أرسانيوس إلى القول: «وهكذا صارَ حتّى أكلناه كلَّه».

ثم سألناه: «أيّها الشيخُ ألم يصدفْ أن اعتلَّتْ صحّتُكم؟»

«يا بنيَّ، لكي لا أكذب، لقد استصعبتُ في البداية، ولكن ما العمل؟ طالما أنّ الشيخَ قد أمر! وصدِّقني بعدَ فترة، جعلَهُ اللهُ شهيًّا، فكنَّا وكأنَّنا نأكلُ أفضلَ الحلويات».

وكان هذا أيضًا ثمرَ طاعةِ الشيخِ أرسانيوس الكلّية.

* * *

أحيانًا أخرى كان يقولُ لنا: «لكي يجرِّبني الشيخ، كان يقولُ لي عند المساء: «أيّها الأبُ أرسانيوس، هيا بنا نأكلِ

البقسماط، هيا اقرأ الحروفَ (أي صلِّ). «أبانا الذي...»، ما إن أنتهي وأتهيّأ لآكلَ البقسماط، حتّى أسمعَ الشيخَ يقولُ لي: «لنفترض أيّها الأبُ أرسانيوس أنّنا أكلنا، قلْ صلاةَ الشكر». ورُغمَ كوني جائعًا، كنتُ، بسببِ الطاعة، أنهضُ وأتلو صلاةَ الشكر. لقد تكرَّر هذا الأمرُ ثلاثَ أو أربعَ مرّات. في المرّةِ الرابعة، نَفَدَت قوايَ لأنّني في النهارِ كنتُ أعملُ بقساوة، وفي الليلِ بأكثرَ قساوةٍ في السهرانيّة. حينئذٍ قلت للشيخ: «عذرًا، فأنا لم أعدْ قادرًا على التحمُّل، فماذا أفعل؟». أجابني وقتئذٍ: «تعال نأكل هذا المساء».

بجهاداتٍ كهذه وأخرى أصعبَ منها مَحَّصَ الشيخُ القويُّ يوسف، بالطاعة، هذا الشيخَ الصالح، ليس ليومٍ أو يومين، ولكن لأوّلِ ثلاثين سنةً تقريبًا.

منذ أن تعرَّفنا إلى الأبِ أرسانيوس، كان دائمًا يضعُ تحتَ وسادتِهِ صورةَ معلّمِهِ ورفيقِهِ في الجهاد. وعندما يسألُهُ أحدهم: «مَن هذا، أيّها الأب؟» كان جوابُهُ المعتادُ بكلّ بساطتِه: «مع هذا الذي تراه، قضينا أربعينَ سنةً حُفاةً. وبالفعل، إن يكنْ صيفًا أو شتاءً، وأثناءَ الثلوج، كُنّا دائمًا نسيرُ حُفاةً».

التقليدُ حول المجاهدين العُراة والإثنَين الحافيَين

ذات مرّة قال: «ذَهَبْنا مِنْ مَنْسَكِ القدّيسةِ حنّة ليلاً إلى قلاّيتنا في الثلوج، حافِيَين. وحالما اكتشفَ الآباءُ الآخرونَ آثارَ الأقدام، قَرَعُوا أجراسَ الكنيسةِ الكبيرة. وبما أنّه لم يكنْ في ذلك اليومِ أيُّ عيد، ركضَ رهبانُ الإسقيطِ إلى الكنيسة، ليعرفوا ماذا يحدث، وما سببُ قرعِ الأجراس.

فقال لهم أحدُ الرُّهبان: «أخيرًا، اكتشفنا المجاهدِين العُراة[11]، وها آثارُهم، هيّا بنا نتبعُهم لنجدَ مسكنهم». وفي صعودهم وصلوا إلى مغارتنا. فراحوا يطرحون أسئلتهم باحتدام:

- أين يختبئ المجاهدون العُراة؟»

أجاب الأب أرسانيوس، ببساطته المباركة:

- أيَّ عراة؟

- وصلوا إلى هنا، وها هي آثارُ أقدامهم!

- أيّها الآباء، نحن مشَيْنا، وهنا لا يوجدُ عراة.

(١١) بحسب مسيرة الجبل المقدّس الطويلة. يوجد التقليد التالي: هم مجموعةٌ من المجاهدين عددهم سبعة وبعضهم يقول اثنيْ عشَر يعيشون ذروةَ الجهاد وعملهم الوحيد هو الصلاة غيرُ المنقطعة من أجل كلّ العالم. وقد منّ عليهم السيّدُ بنعمةٍ خاصة أن يعيشوا في الفلاة عراةً. لا تراهم عيون البشر.

- لستم أنتم، يوجد عُراة!

وبالحقيقة، فيزيولوجيًّا كان أمرًا غيرَ معقولٍ، إذ من المعروفِ أنّه في الثلجِ المجلّد، لا بدَّ لأطرافِ القدمَين أن تتجمَّد. ولكنَّ الواحدَ بالإيمانِ باللّه والآخرَ بطاعةِ الشيخ، كانا يعيشان بما يفوقُ نواميسَ الطبيعة.

مرَّةً أخرى، وأثناء صعودهما إلى القلّايةِ سالكَين طريقًا قدميّةً[١٢] مغطّاةً بالثلوجِ حاملَين أغراضًا، للحظةٍ ابتدأ المجاهدان بالملل. فقال الشيخ: «أيّها الأبُ أرسانيوس، لقد ضعفتِ الآلة، دعنا نجلسُ قليلاً لكي نستعيدَ قوانا». راحَ المجاهدان يبعثران الثلجَ يَمْنةً ويَسْرةً وشرعا بالصلاةِ الحارّةِ والسّجدات. وما إن اتّحدتِ الدموعُ مع المياهِ المجلّدة، حتّى شعرا أنّهما تجدَّدا وتابعا صعودهما إلى القلّايةِ بارتياحٍ.

قال لنا الشيخ أرسانيوس:

«ذاتَ مرّة، كان علينا أن نذهبَ إلى مكانٍ ما، ولم يكنِ الشيخُ يوسفُ بحالة جيّدة. بعد أن أكملتُ قانوني، ومن أجلِ أن أعملَ مشيئتي، شجّعتُهُ وانطلقنا حافيَي القدمينِ فوقَ

(١٢) هي طريقٌ مختصرَةٌ شقّتها أقدام المارّة.

الثلج، حتّى بلغنا نصفَ الطريق. فقال لي الشيخ: «أرسانيوس لقد انطفأتِ الآلة، ماذا سيحدث؟». جدِّيًا قالها أم مزاحًا، لا أعرف فرفعتُهُ ووضعتهُ على كتفيَّ إلى أن وصلنا إلى القلاّية. ومنذ ذلك الحين تعلَّمتُ أن لا أعملَ ثانيةً مشيئتي.

عندما كُنّا نذهبُ إلى أيِّ مكان، كُنّا نمشي الواحدُ أمامَ الآخر، تفصلُ بيننا مسافةُ خمسةَ عشرَ مترًا إلى عشرين، لتجنُّبِ الأحاديثِ الطويلة، ولكي نتلوَ الصلاةَ دونَ انقطاع. فإن صدفَ وعبرَ أحدٌ ما، كُنّا نحيّيه بانحناءةٍ دون كلام. لكن في كلِّ مكانٍ يوجدُ فضوليّون؛ يرَون راهبَين حافيَي القدمين وبثيابٍ بالية، فينهالون بالأسئلة: «مِنْ أين أنتما؟ أين تذهبان؟ ألا تشعرانِ بالبَرْدِ حافِيَي القدمَين؟ الخ...».

ما كان الشيخُ يتفوّه ولا بكلمة، أما أنا فَعِزَّةُ نفسي لم تسمحْ لي، وكنتُ أتبادلُ الحديثَ معهم.

بعد ذلك كان الشيخُ يستدرجُني ويسألني بأسلوبٍ تهكُّميّ: «ماذا جرى أيّها الأبُ أرسانيوس؟ هل عرَّفتَ الإنسان؟ هل هو مستحقٌ ليصير أبًا؟»، بهذا الأسلوبِ المجازيّ كان الشيخُ يصلِحُني».

* * *

- حسن، أيّها الشيخ، ألم يكنِ الآباءُ الآخرون يفهمون جهاداتكم؟

- كان الشيخُ يوسفُ يُخفي ذاتَه على قدرِ ما يستطيع، وبالطبعِ كُنّا نَتَبالَهُ ولو لفترةٍ قصيرة؛ لذلك كُنّا خدَّاعَين بالنسبة لكثيرين.

ذات مرّة، ذهبنا للمشاركةِ بإحدى الأعيادِ الكبيرة. وبعدَ الخدمةِ الإلهيّةِ دخلَ كلُّ الناس إلى المائدة، ونحن أيضًا تبعناهم. فالراهبُ المسؤولُ عن المائدةِ ما إن رآنا حافيَي القدمَين ومُمَزَّقَي الثياب، شَتَمَنا وطردَنا خارجًا. إذذاك غادرنا دونَ أن نتفوَّه بكلمة. عندئذٍ لحقَ بنا شخصٌ آخرُ مجهول، ووضَعَنا في غُرفةٍ وأحضرَ لنا وأكلنا من كلِّ شيء.

«الطاعة فوق الذبيحة»

كما ذكرتُ آنفًا، هذان المجاهدان، أكملَ واحدهُما الآخر كجسدٍ واحدٍ، كما سبق فتعهَّدا. وبالطبع، تفوَّقَ الشيخ أرسانيوس كثيرًا بالأتعاب الجسديّة.

بعدَ السهرانيّاتِ الطويلة، فيما كان ينشغلُ الشيخُ الكبيرُ

بالعملِ اليدويّ، صانعًا صلبانًا صغيرةً بسيطة، كان الأبُ أرسانيوس يهتمُّ بالأعمالِ الخارجيّة في البيت، في بناءِ الجدرانِ الصغيرة في كلِّ مكان. ولكنّه كان باستمرارٍ ينزلُ إلى المرفأِ لكي يحملَ من ستّين إلى سبعين كيلوغرامًا، ليس فقط أغراضهم الخاصّة، بل بشكلٍ رئيسيٍّ لكي يخدمَ شيوخًا آخرين. هذا أيضًا كان من ضمنِ واجباته.

أما بالنسبةِ للسهرانيّة، فأعوامًا بكاملها ما كان بإمكانهِ لا أن يجلسَ ولا أن يعملَ أقلَّ من ثلاثةِ آلافِ مطانيّة. ولسنينَ طوالٍ أيضًا، كلا الإثنَين لم يناما على الجنب، كما يذكرُ الشيخُ يوسف في رسائله. ولكن في النهايةِ قالَ الأبُ أرسانيوس:

أصلحتْ لنا الراهباتُ هذه المبالغة. فمرّةً، خرجَ الشيخُ من الجبلِ لكي يُشدِّدَ الأديار. وفي أحدِ الأديرةِ النسائيّةِ رأت الراهباتُ القائماتُ بالخدمةِ أنّه كما فرشْنَ السريرَ هكذا وجدنَه. وصلَ الخبرُ إلى مسامعِ رئيسةِ الدير. فاستدعت الشيخ وقالت له:

- هل تعرف أن تطيح؟

- أعرف.

- إذًا، من اليوم فصاعدًا ستستلقي على السريرِ عندما

تخلدُ للراحة.

وفي الواقع، صار الشيخُ في موضعٍ حرجٍ، لكنّه أطاع. فنام لأوّلِ مرّةٍ على الجنب، وعندما استفاقَ كانَ يشعرُ بقدرٍ كبيرٍ من الراحة والصفاء، حتّى أدركَ كلامَ الإنجيل «الطاعة فوق الذبيحة»[١٣].

مرَّت السهرانيّةُ بشكلٍ جيّد، حتّى عندما عاد قال لي: «أيّها الأبُ أرسانيوس، من اليوم فصاعدًا سنرتاحُ على أسرَّتِنا الخشبيَّة». فأجبتهُ بدونِ نقاش: «فليكنْ مباركًا».

صلاة الشيخ ورغبته الصالحة

كان يمرُّ بنا كثيرونَ ولكن قليلونَ هم الذين يبقون؛ فحياتُنا كانت قاسية، غير أنّهم كانوا يأخذونَ بعضَ الدروسِ من الشيخِ ويذهبونَ إلى حيثُ يمكنهم. «الأفضلُ أن تذهبوا إلى الطاعة، حيثُ الأمان، وليكنْ عندكم اهتمامٌ متواضع».

* * *

- أيّها الأبُ، بعدَ هذهِ السهرانيّةِ المنهِكَة، كيفَ أمْكَنَكَ أن

(١٣) ١ ملوك ١٥: ٢٢

تحملَ حملاً ثقيلاً كهذا في هذا الطريقِ الصّاعدِ الشاقّ؟!

- طبيعيٌّ أن تعجزَ بُنْيَةُ جسدي، ولكن عندما يمتلكُ الابنُ الروحيُّ إيمانًا في صلاةِ أبيهِ الروحيّ، يمكنهُ أن يرفعَ جبلاً. مرّاتٍ كثيرةٍ حينَ كنتُ أحملُ فوقَ طاقتي وأوشكُ على الركوع، أُسرعُ وأرسمُ إشارةَ الصليبِ معتمِدًا على صلاةِ أبي الروحيّ، فيخفُّ الحِملُ لوحده وكأنَّ أحدًا ما يدفعني، وكنتُ أصعدُ كطيرٍ مردّدًا الصلاةَ دون توقّف. ذاتَ مرّة، خرجَ الشيخُ إلى العالمِ فقال لي: «أيّها الأبُ أرسانيوس، سأعودُ بعدَ خمسةَ عشرَ يومًا تقريبًا وسأحضرُ أغراضًا، فعندما تسمعُ صفّارةَ القاربِ انزلْ إلى أسفل». «فليكن مباركًا».

عندما غادرَ الشيخُ فكّرت: الآن يا أرسانيوس فيما أنت لوحدك، أفلا تشدُّ الحزام قليلاً؟ فإنّي إلى جانبِ السهرانيّة الطويلة، انقطعتُ عن الطعامِ لمدّة أسبوع؛ وكنت أقول: «أيتأخَّرُ الشيخُ بعد؟». ولكن بعدَ أسبوعٍ سمعتُ صفّارةَ القارب. جاءَ الشيخ. فركضتُ مباشرةً إلى أسفل، ضربتُ مطانيّةً للشيخِ وحملتُ حوالي السبعين كيلوغرامًا، وصعدت كطيرٍ.

- أيّها الشيخ، هناك عاليًا أين وجدتم ماء؟

- كان لدينا مستودعُ مياهٍ، وكنّا نجمعُ بقناةٍ مياهَ الأمطارِ للإحتياجات الأوليّة. أما بالنسبةِ لِـزوّارِ قلاّياتنا فكنتُ أنقلهُ على كتفيَّ من بعيد. وذات يـوم، كانت الشمسُ حارقة، أحزنـني الشيخُ وهو يقولُ لسيّدتنا الكليّةِ القداسة، «أترجّاكِ يا عذرائي، دبِّري لنا قليلاً من الماء، لأنَّ الأبَ أرسانيوس يتعبُ كثيرًا». حينئذٍ سَمِعَ للتوِّ صوتًا من الصخرةِ المجاورة، فأحالَ نظرهُ فإذا بالصخرةِ تتبلَّلُ وتقطرُ قطراتٍ قطرات. وللحالِ وضعنا وِعاءً وجمعناها. مذّاك أُعتقتُ من تعبئةِ الماء.

حوادث عجيبة من حياة المجاهدَين

لقد قلتَ، يا أبُ، إنَّ الشيخَ كان يخرجُ إلى العالم. فهل كنتَ تذهبُ معه؟

«كان الشيخُ يمتلكُ موهبةً كبيرةً في تشديدِ النفوس، أما أنا فكما يخرجُ الثعلبُ إلى السّوق (إشارةً إلى إثارةِ الشهوات). لكننا ذاتَ مرَّةٍ خرجنا معًا، بسببِ أختي، وذهبنا إلى جزيرةِ

آيينا لكي يتعرَّفَ الشيخُ على الأبِ يارونيموس. وعندما تبادلَ الشيخان الحديث، بقيَ الشيخُ يارونيموس منذهلاً من كلِّ ما سمعهُ من فمِ الشيخِ المبارك، كما قالت لي فيما بعدُ أختي البيروندیسا إفبراكسيا. مذّاك صارَ يوقّرهُ توقيرًا خاصًّا. كذلك احتاجني مرّةً أخرى خارجًا، فذهبنا إلى «ذراما» عند أقربائي، إلى حيثُ انتقلوا من روسيا بسببِ ضغوطاتِ الشيوعيِّين.

ذات مرّة، أيضًا، كنتُ بمفردي في قلاّيةِ القدّيس باسيليوس، ولا أعرفُ كيفَ أن واحدًا من «بيرييا» أضاعَ الطريقَ ووُجدَ خارجًا بالقربِ من قلاّيتي. استضفتُهُ واقترحتُ عليه أن يقضيَ الليلَ إذا أراد. فقال لي:

- كلاّ، كلاّ سأغادر. كيفَ تستطيعُ أيّها الأبُ، أن تعيشَ سنينًا في هذه الصخور؟ فلَو أنتَ قيّدتني سأقطعُ القيدَ وأغادر.

- وأنت أين تقيم؟

- في بيرييا.

فأجبتُه:

- وإن أنت قيدتني في بيرييا، فسأقطع القيد وأرجع

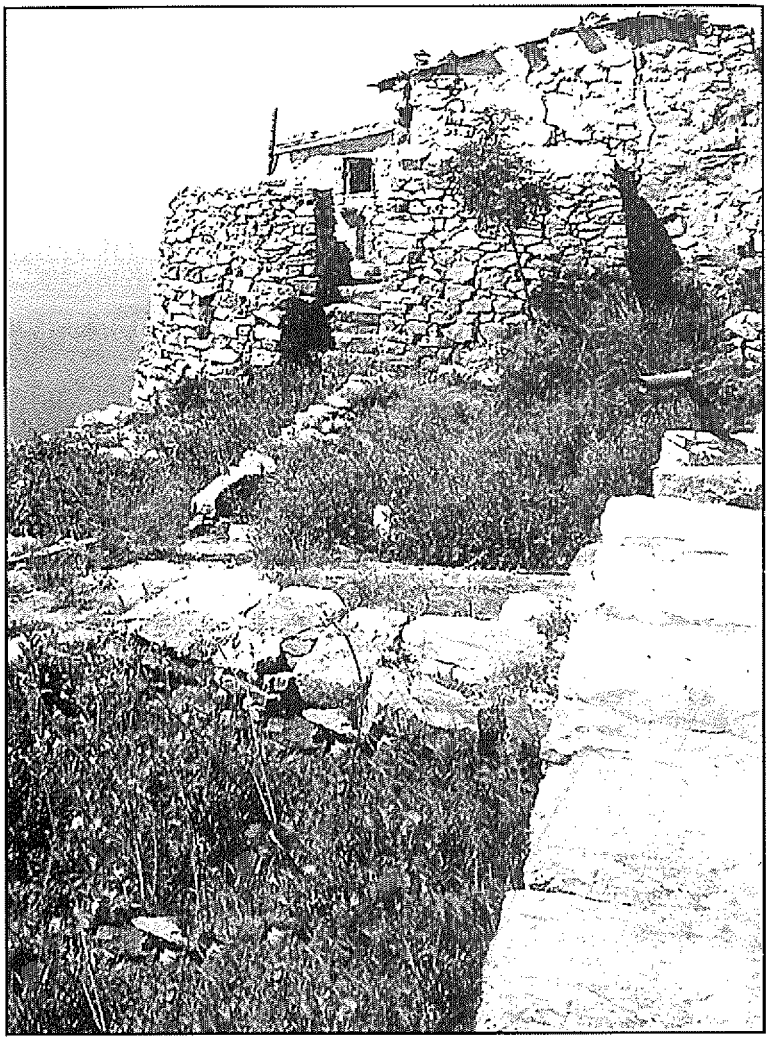

قلّاية الناسكين الحَدَثين في إسقيط القدّيس باسيليوس

إلى هنا!».

الواقعُ أنّ الأبَ ببساطةٍ كليّةٍ أعطى جوابًا حكيمًا ومناسبًا، وتابع:

حسنٌ، هذا ليسَ بشيء، فمرّةً أنزَلَنا أحدُهم ليلاً من منسكِ القدّيسِ باسيليوس إلى منسكِ القديسة حنّة، لأنّه لمْ يعدْ يستطيعُ المكوثَ من كثرةِ الخوف. هذا جاءَ عند المساء فوضعهُ الشيخُ في قلاّيتهِ لكي ينام، وكانَ الشيخُ يسهرُ في الكنيسة. وبعد قليلٍ أخذَ يصرخُ بقوّة. ركضنا إليه، فإذا به يرتمي على عنقِ الشيخِ، وكان يرتجف.

«ما بكَ أيّها المبارك؟»

فسقطَ عند أقدامنا بدموعٍ قائلاً:

«جاءت الشياطينُ وراحت تضربني بالعصيّ حتّى كادت تقتلني. خذوني إلى منسكِ القدّيسة حنة، لم أعدْ أحتمل».

فقال له الشيخ:

«اهدأ يا بنيَّ حتّى الصباح، لن يعاودوا ضربكَ، فقد أخطأوا. ففي كلِّ ليلةٍ يثخّنونني ضربًا بالعصيّ، ولكنّهم أخطأوا وضربوكَ أنت!»

وعلى الرغم من كلِّ ما قلناه له، لم يهدأ ؛ «أريد الذهاب». ما العمل، الليل حالك؟ أخيرًا، أنزلناه إلى منسك القدّيسة حنّة.

* * *

حسنًا يا أبانا، قُلْ لنا الحقيقة، هل ضرَبَتْكم الشياطينُ بالعصيّ؟

في السنين الأولى، ضُربنا كثيرًا بالعصيّ نحن الإثنين، ولكنَّ الشيخَ كان يُضرَبُ على الأكثر، لأنَّ صلاتَهُ كانت تحرقهم. أما أنا فكانوا يضربوني أقلّ، على الرغمِ من أنّي لستُ بشيء، ولكن لأنّي بشكلٍ رئيسيٍّ كنتُ تحتَ الطاعة.

عندما يطيعُ الابنُ الروحيُّ بشكلٍ صحيح، ويعترفُ بأفكارِه، يقطعُ لهم سلطتهم. وعندما يرى المجرِّبُ أنّكَ تسلّمُ نفسكَ للطاعة، وتتمّمُ كلَّ واجباتِكَ الروحيّة، حينذاك يحاولُ أن يدمّرك، وذلك بأن تُخفي أفكاركَ عن أبيكَ الروحيّ.

دعني أذكرُ لك هذه الحادثةَ التي حصلت معنا، بحيث لو لم يكنْ للشيخِ هذه الموهبة، لكان الراهبُ، في طرفةِ عين، قد ضاعَ من بين أيدينا.

في قلاّيةِ القدّيسِ باسيليوس نسكَ معنا كاهنٌ هو «الأب يوحنا». هذا كان تقيًّا جدًّا، ولكنّه بسيط. وقد توقّفَ لفترةٍ عن أن يعترفَ للشيخِ بأفكارِه. فناداه.

- كيف حالك، أيّها الأب يوحنا.

- جيّد، جيّد جدًّا، أيّها الشيخ.

- أليس عندك أيّ فكرٍ تعترفُ به؟

- كلاّ، كلاّ. إنّي بأفضلِ حال.

أثناءَ الصلاةِ قلقَ الشيخُ بشأنِ الأبِ يوحنا، إذ جاءهُ صوتٌ يقولُ له إنَّ الأبَ يوحنا ليس على ما يرام. إذذاك قال لي الشيخ: «أرسلْ لي يوحنّا بسرعة»، فناديته. فلمّا جاءَ، قال له الشيخ بقسوةٍ:

- أريدك أن تعترف لي بأفكارك.

- أيّها الشيخ، ليس عندي أيُّ شيء...

فعنّفهُ الشيخُ قائلاً:

- لن تغادر إذا لم تعترف.

عندما أصرَّ عليه بدأَ يبلعُ ريقَهُ ويقول:

- باركْ أيّها الشيخ، فقد أوصاني ملاكي ألاّ أقول لأحدٍ شيئًا. وها إنّي بصلاتكَ استحققتُ مؤخّرًا أن أصلّي مع ملاكي، وهو اضطرّني ألاّ أكشفَ أفكاري، ولكني أنتهزُ الفرصةَ لنتسامحَ بكلِّ ما أخطأتُ به إليك. فقد اتّفقنا أن ننزَلَ معًا، غدًا مساءً، عند الأبِ متّى لكي أتناول، وبعد

ذلك سينزلُ النبيُّ إيليا بعربةٍ ناريّة، ليستلمَ روحي.

حالما سمعهُ الشيخُ ضربهُ بالعصا قائلاً:

- لقد ذهبتِ العرباتُ، وكذلك الفرسان. أيّها المسكين، لقد أحكمَ الشيطانُ قبضتَهُ عليكَ ليرميَ بك من على الجُرُفِ ويبعثَ بك إلى الجحيم، وأنتَ لا تتكلّم!

- ولكن أيّها الشيخ، هل هذا ممكن؟

- انتظر وسترى إن كان ممكنًا أم لا .

في المساءِ ذاته، وفي الساعةِ التي كان يزوره فيها الملاك، عادَ وظهرَ له مجدَّدًا، لكن هذه المرّة ليس بهيئةِ ملاكٍ بل شيطانًا حقيقيًّا بقرون، وقال له بوحشيّةٍ: «ألم أقلْ لك، أيّها الراهبُ القذر، ألاّ تبوحَ بسرِّنا للشيخ؟ آه، بسهولةٍ هربتَ منّي، وأنا كنتُ أخطِّطُ جيّدًا لكي أدمرَك!».

ما إن سمعَ الأبُ يوحنا هذه الأقوالَ حتّى تملّكهُ الرّعبُ وركضَ مباشرةً إلى الشيخ، وسقطَ عند قدميه واعترفَ له بالجميل. أترَون مقدارَ الخطرِ المحدقِ بالراهبِ الذي يُخفي أفكارَهُ عن شيخِه؟

* * *

نصائح وأحداث عجيبة
من حياة الشيخ أرسانيوس

شخصٌ من أخويّةٍ أخرى، جاء إلى الرهبنةِ بحميّةٍ كبيرة، وخضعَ لمعلّمٍ قاسٍ بجوارِنا. كان يجاهدُ كثيرًا في بدايةِ حياتهِ الرهبانيّة، مقيمًا السهرانيّات، واقفًا طوالَ الليل، ضاربًا مطانيّات، إضافةً إلى الأصوام، وحفظِ الطاعةِ والاعترافِ الصريحِ...

ولكن بعد ثلاثِ سنين أصابهُ التواني معطيًا السلطةَ للمجرّبِ، وراحَ يتراجعُ إلى الوراء. وتعكَّرَ عقلهُ في الصلاة، فراحَ يجلسُ وينام. هذا كان يستفيقُ منهكًا، ثم يعاودُ النوم، وكان يعاني كثيرًا ليُتمَّ واجباتهِ الروحيّة. وعلاوةً على ذلك، فقد هاجمهُ أيضًا شيطانُ الزنى وحاربهُ بشكلٍ مخيف.

وفي هذه الفترة، أحبطَهُ وهمسَ له بأذنه، أنّه بهذا التراخي سيكونُ مصيرُهُ الجحيم. والمقلقُ أكثر أنّه جعلهُ يخجلُ أن يعترفَ قائلًا له:

«كنت تشقى، أنت الذي عملتَ سهراناتٍ ومطانيّاتٍ كثيرة، وذرفتَ كثيرًا من الدموع، وجاهدتَ كثيرًا، والآن ها

عساك تقولُ للشيخ؟ فإذا سمعَ بتهاونكَ وفوقَ كلِّ هذا حربِ الزنى، سيطردُكَ بكلِّ تأكيد. أفلا تغادر من ذاتك؟».

ولكنّه راحَ يفكّرُ بطريقةٍ ما كي يخرجَ من هذه التجربةِ المُرَّة: «ماذا سأفعل؟».

ويبدو أنَّ اللهَ افتقدَهُ وأنارَ عقلهُ ليفكّرَ على الشكلِ التالي: «ما بالكَ لا تذهبُ عند الأبِ أرسانيوس لتكشفَ له أفكارك؟».

جاءَ الراهبُ مُطأطأَ الرأسِ من الخجل، وتمكَّنَ بمحاولاتٍ كثيرة، أن يقولَ لي أفكارَهُ كلَّها، وقبْلَ كلِّ شيءٍ حربَ الزنى. هذا، كعديمِ الخبرة، كان يعتقدُ أنّه إنْ هو اعترف، سأحتقرُه. ولكن أنا، من جرّاء خبرتي، كنت أعرفُ حيلَ الشيطان، فحضنتُهُ وقلتُ له:

- أحسنتَ يا بنيَّ؛ الآنَ علمتُ أنّكَ مجاهدٌ وأنّ المسيحَ يحبُّك.

- أنا أيّها الشيخ؟

- نعم أنت. ولكي أُوضحَ لك، قلْ لي بصراحةٍ، عندما كنتَ تجاهدُ بقسوةٍ ولم تكنْ لديكَ حروب، ما الفكرةُ التي

كوَّنتها عن نفسك؟

- آنئذٍ أيّها الشيخُ كنتُ قدّيسًا صغيرًا؛ أما الآنَ فأنا أسوأُ الكلّ.

- ليباركك الله. الآن تتكلّمُ بشكلٍ جيّد. كلُّ جهاداتِنا وأتعابِنا يجب أن تؤولَ إلى التواضع. ولا مرّةً كنتَ قدّيسًا، ولكنَّ نعمةَ اللهِ ظلَّلتك، وكنت تظنُّ أنّهُ كان شيئًا خاصًا بك. لذلك تركتكَ النعمةُ لكي تفهمَ نفسك. ولكن باعترافِكَ سترجعُ النعمةُ ثانيةً. المهمُّ ألاّ تخجلَ من الاعترافِ لأبيك الروحيّ، وأن تتمسَّكَ دائمًا بهذا الفكر: «أنا لستُ بشيء، كلُّ ما عندي من الصلاحِ فهو من الله، بصلواتِ أبي الروحيّ. إن هجرَتْني فسأعودُ وأسقطُ على الفور».

مذّاك صارَ الراهبُ يعترفُ لرئيسِ ديره، وإلى الآنَ هو يجاهدُ برغبةٍ كبيرة.

نستنتجُ من هذه الأمثلة أنَّ الأبَ، كختمٍ لجهاداتِهِ القاسية، وصلَ هو نفسُهُ إلى مرحلةٍ متقدّمةٍ جدًّا في التواضع، وخبرَ بالروحِ القدسِ الكلماتِ ذاتَها التي قالَها المسيحُ لمعاصرِهِ سِلوانَ المجاهدِ الروسيّ: «احفظ ذهنك في الجحيم ولا تيأس».

شذرات عن القدّيس سِلوان الآثوسي

تطرّقنا مرّةً إلى ذكرِ هذا المجاهدِ الروسيِّ الكبيرِ المعاصر، فسألتُ الأبَ:

- أيّها الشيخُ ربّما تعرّفتم إلى القدّيس سِلوان؟

- لقد سمعنا الكثيرَ عن هذا المجاهدِ الكبيرِ وقد سألني الشيخُ إن كنتُ أريدُ أن نذهبَ لنتعرَّفَ إليه، ولكنّني فضَّلتُ أن أقول لا.

- ولكن، لماذا أيّها الشيخ؟

- أنا كنتُ أعرفُ اللغةَ الروسيّة؛ ولكنَّ الشيخَ لم يكنْ يعرفُها، ولن أكونَ مرتاحًا أن أتكلَّمَ أنا ويسمعَ الشيخ. لكنّنا كنّا على معرفةٍ وطيدةٍ بالشيخِ صفرونيوس الذي عثرَ علينا لوحدِهِ وكان يأتي بانتظام، لأنّه كان يقدِّرُ الشيخَ كثيرًا[١٤].

* * *

رفضُ اقتراحِ الشيخِ لا يُعتبرُ عصيانًا، ولكنّه إشارةُ تواضعٍ كبيرٍ وتمييز. فهو، كابنٍ روحيّ، ما كان ليرتاحَ أن يتكلَّمَ هو

(١٤) يذكر الأب صفرونيوس في كتابه «القديس سِلوان الآثوسيّ» أنّه خلال تواجده في الجبل المقدّس تعرف على سبعة نسّاكٍ كبار. كان الشيخ يوسف واحدًا منهم كما يؤكّدُ لنا الراهب الكاهن زخريا الذي من دير إسكس.

ويسكتَ الشيخُ ويسمع. فلينتبهِ الكثيرونَ منّا إلى هذا ولنتمثّل به.

في السهرانيّة

عندما سمعَ أحدُ الإخوةِ كلَّ ما يتعلّقُ بالشابِّ المجاهدِ الذي سبقَ ذكره، سأل الأبَ:

- أيّها الشيخ، أنا في البدايةِ كنتُ أسهرُ طوالَ الليلِ واقفًا، وأعملُ المسابحَ ضِعفين، وما كانت الدموعُ تتوقّف أبدًا. كنتُ معتقًا بالكاملِ من الحروب، إضافةً إلى تأديةِ الطاعةِ والعملِ وحسنِ الإستعداد. أما الآنَ، فلم أعدْ أمتلكُ هذه القوّة، ولا أقدرُ أن أقفَ الليلَ بطولهِ في الصلاة، والأسوأُ من ذلك أنّي حالما أجلسُ، مباشرةً يصيبني التواني والنوم.

- **كم ساعةً تنام؟**

- من أربعٍ إلى خمسِ ساعات.

- **يا بنيَّ، لا تنظرْ إلى ما نفعلُ نحن، فالقدماءُ يملكونَ بنيةً مغايرة. يجبُ عليكَ أن تفيَ هذا الجسدَ حقَّهُ بأن تعطيَهُ حاجتَهُ من الراحة. أنتَ تعملُ النهارَ كلَّه بقسوةٍ ونومُكَ قليل. من الآنَ فصاعدًا ستنامُ من ستِّ ساعاتٍ**

إلى ستِّ ساعاتٍ ونصف. حواليْ أربعِ ساعاتٍ ونصف بعدَ الظهر وساعتين في الصباح.

أجاب الأخُ بغيرتِه الشبابيّة:

- ولكن، ألا يجبُ أيّها الشيخُ أن نجاهدَ قليلًا؟

فأجابهُ الأبُ بكلامٍ مغبوط:

- إذا لم تنمْ كما أوصيتُكَ، فستنامُ وأنتَ تصلّي!

أكّدَ لي هذا الأخ، أنّه بنصيحةِ الأبِ ذاتِ التمييز، استطاعَ أن يستعيدَ ترتيبَ السَّهرانيّةِ النظاميّ.

* * *

سألَ أخٌ آخر:

- أيّها الشيخ، إنّي أسهرُ في الليل، ولكن أحيانًا كثيرةً تُتعبني قدمايَ، وغالبًا ما أجلس، وأحيانًا يحاربني التواني والنوم.

- يا بنيَّ، إذا تعبَ الحارسُ الليليُّ أثناءَ وقوفه، يجلس؛ فإن سرقَهُ النومُ أثناءَ جلوسهِ قليلًا، فالقانونُ لا يمسكُه، ولكن إن صدفَ وأمسكوهُ مستلقيًا، فحينذاك يفقدُ عمله. والأمرُ ذاتهُ بالنسبةِ لنا. فإنْ سرقَنا النومُ أثناءَ جهادِنا قليلًا، فليسَ هذا على قدرٍ من الأهميّة، ولكن إن استحوذتْ

علينا التجربةُ ورضخْنا لها، حينذاك ستأكلنا كما الخضار.

- وعندما ننعس أيّها الأب، ماذا نفعل؟

- آ ! يوجدُ الكثيرُ من الأدوية. أَتَعبتَ وأنت واقفٌ للصلاة؟ لا تجلسْ بل اركع. وإن نعستَ وأنتَ راكعٌ فانهض، تمشَّى قليلًا قائلًا الصلاةَ بصوتٍ عالٍ، إلى أن تشعرَ بألمٍ من أعماقِ النفس. ألمْ يقلْ داود «من الأعماق صرخت إليك[١٥]». كذلك يوجدُ دواءٌ آخر، ارشقْ قليلًا من الماءِ على وجهِك. يقولُ القدّيسُ اسحقُ السّوري: «كلُّ مَنْ يريدُ أن يخلص، فليحرِّك[١٦] نفسَه».

إن كانت هذه الآليّاتُ كلُّها لا تُفْلِحُ، فحينذاكَ يوجدُ دواءٌ أسمى. كان الشيخُ يسمّيهِ منطادَ كلِّ الأهواء: «أمسكْ قضيبًا وعندما تنعسُ أو تستحوذُ عليكَ الأفكار، اضرب ضربتين أو ثلاثَ ضرباتٍ على فخذِك، وسنرى إن أنتَ تستفيقُ أم لا!».

وتابعَ الشيخُ أرسانيوس قائلاً:

لقد وضعَ لنا شيخُنا يوسف نظامًا، أن نشربَ فنجانَ

(١٥) مزمور ١٢٩: ١

(١٦) أي استخدم المطانيّات.

قهوةٍ قبلَ السهرانيّة، فهو منبِّهٌ مساعد. ولا نتركُ المطانيّاتِ إلى النهاية. لأننا عندما نمتلكُ من البدايةِ صلاةً حارّة، كذلك الرؤيةَ وتأنيبَ الضمير، حينئذٍ لا ينبغي أن نهملَ تتميمَ القانون[١٧] أوّلاً. فيما بعدُ، حينما تضعفُ الآلةُ وتحتاجُ إلى وَقُود، فلنعاودْ تحميَتها بهذه الوسائلِ التقنيّةِ المختلفةِ وبالمطانيّاتِ المعتادة والصلبان، حسبما يتوجَّبُ على كُلٍّ واحدٍ منّا وفقَ القانونِ الذي يرتئيه له الشّيخ.

كلُّ هذه الأدويـة هي لنُشعِلَ الآلـة، ونستدرَّ عطفَ المسيحِ وسيّدتنا الفائقةِ القداسة. فإن أعطانا الله قليلًا من الدموع، حينئذ تمتلئ الأعينُ باليقظة.

يا لَهـذهِ الدّمـوع! جاهدوا الآن طالما أنتم في سنِّ الشباب، لكي تحبّوا المسيحَ وسيّدتَنا الفائقة القداسة، وتتذوّقوا دموعَ المحبّة الجميلة تلك. هل امتلكتَ الدموع؟ إذًا ستصبح السهرانيّةُ عيدًا!

* * *

كذلك كان الأبُ يعطي أهميّةً لعناصرَ أخرى، كالحالةِ

(١٧) إضافةً إلى الخدم المشتركة. يجب على الراهب أن يتمّمَ واجباته في قلايته. عادةً ما تكون عبارةً عن مطانيّات وصلاة بالمسبحة حسب تمييز رئيسه.

الجوّية.

أفضلُ فترةٍ للصلاةِ هي الخريفُ والربيع، حيثُ يكونُ الجوُّ صافيًا. وإذا لم تكن الصلاةُ في هذه الفترة جيّدة، فمن المؤكَّدِ أنّ شيئًا آخرَ ليس جيّدًا. فالتجربةُ تكونُ مستفحلةً ويلزمُ فحصُ الذات، والإعترافُ والسّجن[١٨].

لذلك انتبهوا قدرَ ما تستطيعون من العصيانِ، واللومِ، ومن التكبُّر، والحسد، ومن كثرةِ الطعامِ، وكلِّ شيءٍ يعطي إمكانيّةً للتجربة، وكذلك من كلِّ استرخاء.

هل حانَ وقتُ استيقاظك؟ فلا تتقلَّبْ في السّريرِ ولا تتثاءَب. لا تنهضْ كمائتٍ... الرهبنةُ تتطلّبُ حياةً فينا؛ إمّا أن نعيشَ وإمّا أن نموت. هل استفقتَ؟ انهضْ، ارسمْ إشارةَ الصليب، وباشرْ بـ: يا ربّي يسوع المسيح ارحمني.

* * *

كذلك الأمرُ الآخرُ الذي كان يشدّدُ عليه الأبُ كتقدُّمٍ أكيدٍ في الصلاة، هو الثقةُ بشخصِ الشيخِ والاعترافُ الصريحُ بالأفكار.

ولكن هناك مؤشّرٌ آخرُ مهمٌّ جدًّا لتقدّمنا الروحيّ هو النعمةُ

(١٨) أي سجن الحواس.

الخاصةُ خلالَ أيّامِ الآحاد، وكذلك في كلِّ الأعيادِ الكبيرة. فإذا كان أحدٌ ما في هذه الأيّامِ لا يرى نعمةً مزدوجة، هذا يعني أنّ ثمّةَ أمرًا لا يسيرُ بشكلٍ جيّد.

البرنامج

من أهمِّ عناصرِ حياةِ الراهبِ البرنامج.

كان الأبُ أرسانيوس يقول، كما تعلَّم من أبيهِ الروحيّ، إنّ الراهبَ الحقيقيَّ الذي ليس عندَه برنامج، لن يلحظَ تقدّمًا. ويشرحُ، أن ليس للابنِ الروحيِّ الحقُّ البتّة، في أن يَعْصِيَ أباه الروحيّ، فيُتلِفَ برنامجَه. ولكن عندما لا يتعلّقُ الأمرُ بالطاعة، فليَقْسُ على نفسه، فيكونَ البرنامجُ قاسيًا جدًّا. أحانَ وقتُ الخدمة؟ لا تتأخرْ ولا للحظة، ولكن اعملْ بحسبِ ترتيبِ النظام. إذا قلت هيّا، رويدًا رويدًا، فستأكلُ عندَ الغروب. تحين ساعةُ النوم، فتذهبُ أنتَ للغروب. وكذلك هناكَ ما هو أسوأ، إذ يجلسُ البعضُ في ساعةِ النوم ويثرثرون ويذهبون متأخّرين ليناموا، فيستفيقونَ متأخّرين، غيرَ نائمين، مثقلين وغيرَ طبيعيّين وليس فيهم شهيّة للقانون.

كان يقول لنا: «ذاتَ مرّة، عندما كنّا في كهوفِ مناسكِ

القدّيسة حنّة الصغيرة، جاءَ الرهبانُ من بعيدٍ حاملينَ المؤنَ وبعضَ السمك، وكانت ساعةَ هدوء. فقالوا: «أيّها الشيخ، لقد أحضرْنا سمكًا ويحتاجُ للطبخ، وإلا سيتعفَّن». ودونَ أن يثيرَ الشيخُ يوسف أيَّ نقاش، أجاب: «أُفَضِّلُ أن يتعفَّنَ السمكُ على أن أُفسدَ النظام؛ اتركوها كما هي واذهبوا مباشرةً للنوم». في اليومِ التالي قالَ لنا: «أنا تركتُها عمدًا لكي تتعفّن، لتتذكّروا هذه الحادثةَ كلَّ حياتكم». ربما يعتقدُ البعضُ أنّ الشيخَ مبذِّر. فمرّاتٍ كثيرة، كنّا في منسكِ القدّيسِ باسيليوس نأكلُ الطعام محمَّضًا كي لا نرميه. وذاتَ مرّةٍ في الإسقيطِ الجديد، بما أنَّ الرهبانَ ما كانوا يقدرون أن يأكلوهُ محمَّضًا، وكي لا يرميَ الفاصولياء الفاسدة، صلَّى صلاةً حارةً بدموع. ثمّ في اليومِ التالي وضعها وأكلناها. فإذا هي أشهى من الحلاوة!».

***

- أيّها الشيخ، عندما لا يقدرُ أحدٌ ما أن ينامَ في ساعةِ الاستراحة، فما عساه يفعل؟

- يقولُ الآباءُ القدّيسون: «امكثْ في قلاّيتِكَ وهي ستعلِّمُك».

المطالعة

كان الأبُ يعتبرُ المطالعةَ ضروريّة، فيقول:

المطالعةُ نوعٌ من الصلاة. نحن كنّا نقرأُ كلَّ يومٍ إصحاحًا أو إصحاحَين من الكتابِ المقدّس، ومن ثم كتبًا آبائيّة. كلُّ ما نقرأه عن القدّيسِ اسحقَ السّوري، كنّا نحفظُهُ بشكلٍ جيّدٍ جدًّا؛ وإنْ لم يكن بحوزتكَ كتابٌ آخر، فالقدّيسُ اسحقُ السّوري يكفي، فهو يقولُ كلَّ شيء. كما كنّا نقرأُ السّلّميّ، والأب دوروثيوس، وكيف نحيا مع الله، والقدّيس مكاريوس[١٩]...، وكذلك سيرَ آبائِنا القدّيسين. فعندما نقرأُ حياةَ قدّيسِينا نربحُ شيئين: أوّلًا، يوقِظُنا مثالُ جهاداتِهم من خمولِ التهامل، وثانيًا، عندما نقرأها بتقوى يتشفّعون إلى المسيح من أجلنا. ولكن، يجبُ أن نصلّيَ دائمًا قبلَ أن نبدأَ بالمطالعة. وبعدَ الصلاةِ نقرأُ سيرةَ أحدِ القدّيسين وبقدرِ ما تؤثّرُ فينا، نضحي غيرَ قادرين أن نوقفَ الدّموع. وهذا يحدثُ لأنّ الصلاةَ تنيرُ العقل.

---

(١٩) ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أنّ النصوص الآبائية هذه كانت متوفرة آنذاك باللغة اليونانية القديمة. أفليست معجزةً حقا أن يقرأ الشيخ ويفهم عمق معاني النصوص الآبائية بالرغم من صعوبة اللغة؟

- أيّها الأب، ما هو أكثرُ ما يجبُ أن نقرأه في الكتابِ المقدس؟

- كلُّ الكتابِ المقدّسِ موحًى به ويجبُ أن نقرأه. ولْنُعْطِ المزاميرَ الأولويّةَ ما بينَ أسفارِ العهدِ القديم؛ فهي صلاةٌ قويّةٌ جدًّا.

أقوالُ الشيخِ أرسانيوس هي ثمرُ الخبرة

ما تَيَقّنّا منه، نحنُ الذين عشنا بقربِ الشيخ، هو أنّ كلَّ هذه الأشياءِ البسيطةِ التي علّمنا إيّاها ليست مجرّدَ أقوالٍ نظريّة، بل ما قد طبّقهُ وعاشه، لذلك نقلَها إلينا بسهولةٍ ممّا عنده.

عندما جاءَ الأبُ ب. لأوّلِ مرّةٍ كمبتدئٍ إلى قلاّيةِ البورازيري حاربتْهُ الأفكارُ[٢٠] لدرجةٍ كبيرة، حتّى إنّه لم يعدُ قادرًا أن يتلوَ الصلاةَ في السهرانيّة. فركضَ إلى الأبِ أرسانيوس يطلبُ المعونة، فشدّدهُ قائلًا: «**لا تتضايق؛ أنا سأصلّي لك ولن تزعجك الأفكارُ هذا المساء**». وبالفعل، كما أكّدَ الأخُ أنّه في تلك الليلةِ لم يقتربْ إليه أيُّ فكر، لدرجةٍ تعجّبَ فيها لقدرةِ صلاةِ الأبِ هذه. وعندما

(٢٠) الأفكار هي اضطراب رهيب للعقل. فكثيرا ما تجمد الصلاة فتتألم النفس وتشعر باستشهادٍ حقيقيّ.

حانَ موعدُ القدّاسِ الإلهيِّ اليوميِّ ركضَ المبتدئُ ليشكرَ الأب، وأجابهُ هذا الأخيرُ ببساطةٍ: «**لهذا أرسَلْتَها جميعها إليَّ، هذا المساء!**».

ذاتَ مرّةٍ، وقعَ أخٌ آخرُ في تجربةٍ غيرِ متوقّعةٍ من جرّاء التباسٍ، وسجنوهُ في قسمِ الشرطةِ ليلتَين. أمام تلكَ الحاجةِ الكبيرةِ استدعى صلاةَ الأبِ من كلِّ قلبه. قال: «حينئذٍ اشتعلَتْ داخلي للتوّ شعلةٌ، بعلامةٍ أنّه لمدّةِ ثمانٍ وأربعين ساعة لم آكلْ ولم أشربْ، ولم أجلسْ ولم أنم، بل كانت قدمايَ تُمسكانني كخشبتَين، واقفًا أصلّي دونَ انقطاع».

وكما أكّدَ الأخ: «كانت هذه هديّةً كبيرةً من الأب». فلطالما أظهرَ لأبنائهِ قليلًا ممّا كان يملكُهُ عندما كان بعدُ على قيدِ الحياة.

على الرغم من كلِّ هذا، فحينَ يقارِنُ نفسَهُ بالشيخِ الكبير، كان يعتبرُ نفسَه، لتواضعِه، أقلَّ بكثير.

أحاديثُ الأبِ المشتركة مع زوّارٍ أتقياء

كان يزورُ الأبَ رهبانٌ كثيرون وكذلك علمانيّون كُثُر، يعطشونَ لحياةٍ روحيّةٍ أسمى ويلتمسونَ صلاةَ الشيخ.

وَمِن عاداتِه المباركة، في كلامِه مع العلمانيّين، أنّه كان يقولُ لهم:

- **دعوني أرى أيديكم.**

- ولكن لماذا أيّها الشيخ؟

- **أريدُ أن أرى إن كنتم تلبسون محبسًا (قاصدًا بذلك إذا كانوا متزوّجين). فإذا كنتم متزوّجين سنتكلّمُ أشياءَ روحيّةً معيّنة؛ وإذا كنتم أحرارًا، فأشياءَ أخرى.**

عندما كان الزوّارُ يهتمّون أن يعرفوا عن الصلاةِ القلبيّة، كان يسأل:

ألديكم أبٌ روحيّ؟ هل تعترفون؟ أتصلُّون؟ أتذهبون إلى الكنيسة؟ هل تصومونَ نهارَي الأربعاء والجمعة؟ أتتناولون بانتظام؟

إذا كان الزوار متزوّجين، كان يضيف:

أتمتنعون عن نسائكم في الأصوام، وأيّامَ الآحاد والأعياد؟ أتلِدُون أولادًا على قدرِ ما يهبُ الله؟ أتملكون محبّةً تجاهَ الأعداءِ والأصدقاء؟

إن أنتم عملتم كلَّ هذا، حينئذٍ سنتكلّمُ عن الصلاة

القلبيّة. وإلا، فالصلاةُ القلبيّةُ يوك[٢١]، لئلا نضيِّعَ أقوالَنا.

* * *

كان يتردَّدُ على قلّايةِ البورازيري تلميذٌ لاهوتٍ تقيّ، هذا طرحَ على الأبِ السؤال التالي: «أيّها الشيخُ كيفَ يمكننا أن نصلّيَ دونَ انقطاع، وفقًا لنصيحةِ الرسولِ بولس؟».

بالحقيقةِ صارَ الأبُ في موقعٍ حرج، إذ كان هو نفسُهُ يعيشُ هذا السرّ؛ ولكن كيف سيشرحُهُ بكلماتٍ حتّى يفهمهُ مُحادِثُه، الذي يبدو أنّه كان ما يزالُ يجهلُ هذه اللغة؟ لكن لِلَحظةٍ، ولكي يخرجَ من هذا المأزقِ، اضطرّ لأن يوضِحَ له قائلًا:

«يا بنيَّ، كيف أجعلُكَ تفهم؟ ففي هذه اللحظةِ بالذات فمي يكلّمك، في حينِ أنَّ الآلةَ تعملُ في قلبي باستمرار».

تعجَّبَ الطالبُ من هذا الجواب مفكّرًا، «ما هي يا تُرى هذه الشعلةُ التي تحيطُ بهذا الشيخِ البسيط، حتّى إنّه في نفسِ الوقت، وأثناء الحوار، يمتلكُ داخليًّا الصلاةَ غيرَ المنقطعة!».

عادَ الشابُّ نفسُه وسأل: «أيّها الشيخ، نعرفُ أنّكم تصومونَ بقسوةٍ كبيرةٍ، كيف تحتملون؟». أجابَ الأبُ ببساطة، ولكن

(٢١) أداة نفي باللغة التركية

بحكمةٍ واستنارة: «**عندما يكونُ في بيتِكَ ميت، هل تكونُ لك الشهيَّةُ لتأكلَ أو تشرب؟**».

وكذلك عقّبَ السائل، شارحًا لي أنّ الشيخَ كان يملكُ في داخلِهِ ذكرَ الآلامِ الخلاصيّةِ غيرَ المنقطعِ لدرجةٍ كبيرة، حتّى إنَّ شعلةَ الألمِ والمحبّة، إضافةً إلى ذكرِ الموت، أضعفت هذه الشهيّةَ الطبيعيّةَ والتي لا عيبَ فيها.

هذا الشابُّ المذكورُ أعلاه، حالما تخرَّج، التحقَ للعيش في جبلِ آثوسَ حيثُ صارَ راهبًا. واليومَ هو رئيسُ ديرِ القاتوبيذي الكبيرِ الشريف.

* * *

كان هناك تلميذٌ آخرُ يتردَّدُ بانتظام على قلّاية البورازيري لكي ينتصحَ ويأخذَ بركةَ الأب. ذات مرّة، بعد أن مرَّ واستمدَّ صلاتَه، وفيما هو يخرج، لاحظَ أنّ الأبَ يهمسُ في أذنِ الأخِ الآتي بعدَه. فبدافعِ الفضولِ سألَهُ فيما بعد: «ماذا همس لك الأب؟» فأجابه، قال لي:

«**إنَّ هذا يذهبُ إلى ديرِ القدّيس غريغوريوس ليترهَّب**».

صُعِقَ الشابّ، فبالفعلِ كانَ هذا هدفَه. ولكنّهُ لأسبابٍ

شخصيّة، كان يحفظُ سرَّه بشكلٍ مطلق. واليومَ هو راهبٌ وجذعٌ مهمٌّ في ديرِ الغريغوريو الشريف.

* * *

في اجتماعٍ آخرَ صغيرٍ مع علمانيّين، قال له شابٌّ تقيّ:

- أيّها الأبُ أرجو منك أن تصلّيَ لأجلي.

- **ما اسمك؟**

- اسمي أندراوس.

- **أنا ينبغي أن أصلّيَ لأندراوس. ولكن، لكي تُستجابَ صلاتي الخاصّة، يجبُ على أندراوس أن يهتمَّ ويصلّيَ لنفسه. يقول القدّيسُ أنطونيوس: «لا أنا أرحمُكَ ولا حتّى الله يرحمك، إن لم ترحمْ أنتَ نفسك».**

- ماذا يعني هذا، أيّها الشيخ؟

- **ألم تفهمه؟ حسنًا؛ في هذه الحالِ سأقولُ لكَ أمرًا حدثَ هنا، وفي زماننا. مرَّ زائرٌ في الصحراءِ باحثًا عن قدّيسين، كما تفعلُ أنت الآن، لكي يصلّوا لأجله. فوجدَ مجاهدًا وقال له: «أرجوكَ أيّها الشيخ، صلِّ لأجلي؛ عندي مشاكلُ جِدّيّة». فحزنَ المجاهدُ لأجله، وأخذَ يصلّي كلَّ**

مساء، في السهرانيّة، لأجل العلمانيّ.

في ليلة، وبينما هو يصلّي، رأى الشيطانَ خارجَ قلاّيته، يضحكُ ويسخر. فقال له الراهب: «لماذا تُفسدُ عليَّ هدوئي أيّها الملعون؟».

أجابهُ الشيطان: «ها، ها، ها؛ أضحكُ لأنَّكَ تسهرُ بدون جدوى من أجل «يوحنّا» الذي أمتلِكُه. هذا يسهرُ، ولكن في أماكني الخاصَّة (عانيًا بذلكَ بكلِّ تأكيدٍ مراكز الفساد). قبلَ قليلٍ أنهى سهرتَهُ وها هو الآنَ يشخر!».

هه، الآن هل عرفْتَ ما أريدُ قولَه؟

- نعم أيّها الشيخ، الآن فهمت. إنّه يجبُ علينا نحن أيضًا أن نعيشَ مسيحيًّا ونستمرَّ محاولين قدرَ استطاعتنا.

* * *

سألَ شابٌّ آخر:

- أيّها الشيخ، ماذا أفعل؟ عندما أذهبُ إلى الحمّام لقضاءِ حاجتي يحاربني شيطانُ النجاسة.

- حارِبْه أنتَ قائلًا الصلاةَ بسرعةٍ كبيرةٍ وباستمرار.

- ولكن أيّها الشيخ، هل يجوزُ أن نتلوَ الصلاةَ في الحمّام؟

- آ! في مكانِ قضاءِ الحاجة؟ (هكذا كان يقول عن

الحمّام بكل دقّة في اللغة البنطيّة). ومن قال لك أنّه لا يجوز؟ ألم يقلِ الرسولُ بولس: «صلّوا بلا انقطاع»[٢٢]. أتحارِب؟ أحاربُكَ. أتضعُ فيَّ الفكر؟ أنا أُخرِجُهُ بالصلاة. ألا تعرفُ ذاكَ الشابَّ الذي من كثرةِ الصلاةِ مزَّقَ الشيطان؟ ذات مرّة، أصيبَ المجرِّبُ بالكَلَبِ من كثرةِ الصلاة، ووجدَ الفرصةَ فيما كانَ الشابُّ يقضي حاجتَه، فظهرَ أمامهُ وقالَ له: "ألا تخجلُ أن تتلوَ الصلاةَ وأنتَ في الحمَّام؟". فأجابهُ الشابُّ مباشرةً: "نعم، وفي الحمّامِ سأقولُها باستمرار، لكي أُخرجَ الأوساخَ من نفسي!".

إذذاك لم يحتملِ الشيطان، فتمزّق وصار دخانًا.

فكاهةُ الأبِ
المتعةُ مع الإستفادة

كان الشيخُ دائمًا في أحاديثِهِ مع الشَّبابِ ذوي الاهتماماتِ المختلفةِ مَرِحًا، ولكنَّهُ كان يفيدُهم. ومرّاتٍ كثيرةً، كان السامعونَ يضحكونَ كثيرًا.

(٢٢) ١ تسالونيكي ٥ :١٧-١

عنادُ المرأة

سأخبرُكم قصّةً لتُحْسِنوا اختيارَ الزَّوجة.

مرَّةً، في بلدي البنطس، شابٌّ مثلُكُم، مزارعٌ، أحبَّ فتاةً. ولكنْ لم تكنْ للفتاةِ خبرةٌ في الزراعة. فقالَ لهُ أهلُه: «يا ولدُ هذهِ الفتاةُ ليست لك». «كلاَّ، إنّها لي».

ماذا يفعلون؟ قديمًا كانوا يقولون، «قالَ الشيخُ» الآنَ تغيَّرَتِ الأحوالُ، فصاروا يقولون «قال الشابّ».

ضَحِكَ الشبّان.

اضحكوا ولكنْ اسمعوا ما الذي حصل:

هل تريديني؟ أريـدُكَ. أنهَوا كلَّ شيءٍ وتمَّ العرس. وطالما أنَّهما تزوَّجا بنيَا لهما بيتًا صغيرًا. انطلقَ الرجلُ المزارعُ إلى عملِهِ وباشرَ بالزراعةِ والتقليمِ والغرسِ والبذرِ... والمرأةُ في المنزل. في البدايةِ قال الشابُّ «فلأدعْها إلى أن تعتاد».

أخيرًا حانَ وقتُ الحصاد، إذذاكَ قالَ لها:

- هل تعرفين كيف تحصُدِين؟

- أعرفُ.

- حسنًا، غدًا تهيَّإي لنذهبَ معًا إلى الحصاد.

في الصباحِ، أحضرَ الرجلُ مِنجلَين، أمَّا هيَ فقدْ أحضرتْ مِقصَّين.

قال لها الرجل:

- لماذا تحتاجينَ المِقصَّين؟

- ألسنا ذاهبَينِ للحصاد؟

فرسمَ الرجلُ إشارةَ الصليبِ وقال:

- يا امرأةُ إنَّنا ذاهبان إلى الحصاد، هل تفهمين؟ وليسَ إلى الحلاقة.

- نعم، أفهم. خذْ هذين المِقصَّين لتسنَّهما.

- هيّا اتركيهما، فلسْنا بحاجةٍ إليهما.

- كلاَّ، نحنُ بحاجةٍ إليهما.

كلمةٌ منه وثلاثةٌ منها، علا الصراخُ وقالَ الرجل:

- هيا اذهبي من هنا واتركيني أحصدُ وحدي.

- كلا، سآتي أنا أيضًا.

- إذًا التقطي المِنجلَ، وهيا بنا نذهب.

- كلاّ، سأحصدُ بالمِقصّ.

- آمان،آمان ألا تفهمينَ أنَّكِ لا تستطيعينَ أن تحصدي

بالمِقصّ.

غضِبَ الرجلُ مجدّدًا.

- اسمعيني، إنْ تفوَّهْتِ بكلمةٍ أخرى فسأضربُك.

لا جدوى. صفعَها صفعةً خفيفةً لكي تخاف، ولكنَّها بقيَتْ تعزِفُ معزِفَتَها. وعاودَ الرجلُ صفعَها مرَّةً ثانيةً وثالثة».

قال الشيخُ متعجّبًا: «يا لَلتجربة!»، وتابع:

- سأقتلُكِ.

- أقتلْني.

- هكذا إذًا؟

رَماها أرْضًا وأشبعَها ضربًا. ولحسنِ الحظّ، أنَّها بقيَتْ تتنفَّس. وصارتْ نصفَ ميتة. وإذْ هيَ على هذهِ الحالِ ملقاةً لا تتحرّكُ قالَ لها بعصبيَّةٍ: «سأعلّمُكِ أنا إنْ كانوا يحصدُون بالمِقصّ».

وماذا فعلتْ تلك؟ إذ كانتْ لا تستطيعُ الحراكَ البتّةَ، أجابتْ بيدها. فرفعتها قليلاً وأشارتْ بإصبعَيها كحركةِ المِقصّ.

آ، لا أعرفُ كيفَ صمدَتْ ولمْ تمُتْ.

فضحكِ الشبَّانُ.

اضحكوا الآن، ولكن احذروا ألاَّ يصيبَكم ما أصابَ هذا الشابّ. كلُّ منْ يعملُ مشيئتَهُ ولا يطيعُ فسيتعرَّضُ لمثلِ هذهِ الأمور. احترمُوا أهلَكم واسمعوا لهم، وبكلِّ تأكيدٍ ليكنْ لكم أبٌ روحيٌّ. ولا تعترفوا بخطاياكم فقط بلْ استشيروه في كلِّ شيء.

نحن صِرْنا رهبانًا ولحسنِ الحظِّ أنَّ اللهَ حفِظَنا من هذهِ الارتباكات. الرهبنةُ هي الحياةُ الأسمى، ولكنْ ما عسايَ أفعلُ لكم، المكانُ يتَّسِعُ.

ولكنَّ الناموسَ واحدٌ للجميع. كانَ الآباءُ يقولون: «قالَ الشيخ»، أما الآنَ في هذا الجيلِ فيقولون: «قالَ الشابّ». كلُّ هذهِ الأمورِ تحصلُ للذين لا يطيعونَ الشيوخ.

- أيُّها الأبُ، عندي تساؤل. في قريتي يقولونَ إنَّ أهلاً أجبَروا ابنتَهم على الزواجِ وهيَ لا تريد. وبعدَ فترةٍ فشلَ هذا الزواجُ والكلُّ في القريةِ يلومونَ أهلَها.

- آ ليس بهذهِ الطريقة، فالزواجُ لا يصيرُ غصْبًا ولا الرهبنة. فربّما يكونُ الأهلُ طامعِين بالمال. على الأهلِ

أن يستشيروا ولدَهم ويرجُوا خيرَه وليس أن يُجبِروه. أمّا عندَنا فيصِفُ الآباءُ الرهبنةَ على أنّها عِلمُ العلومِ وفنُّ الفنون. أنا عندما أرى شبّانًا مثلَكم في الجبلِ أدعو لهم: «أنزِلهم كلَّهم يا مسيحي ليصيروا رهبانًا». ولكنْ ليسَ عنْ إجبارٍ منّا، فنحنُ نعملُ واجبَنا، نُرشِدُ ونُعلِّمُ ونرمي الطُّعمَ كما يرمي الصيّادُ الطُّعمَ للسمكةِ، فربما يصطادُها. كلٌ يؤيِّدُ مهنتَه، أفلا نؤيِّدُ نحن المهنةَ الأسمى.

- أيُّها الأب، طالما تقبلونَ أنَّ الأهلَ يخطئون، فكيفَ يمكنُنا أنْ نقبلَ نصيحتَهم؟

- أن تـنـتـصِحَ شيءٌ وأن يُجبروكَ بالقوّةِ شيءٌ آخر. استمعْ لأهلِك وقدِّمْ لهم كلَّ احترام. ولكن المهمَّ أن تسترشدَ عندَ أبٍ روحيٍّ جيّد. فالأبُ الروحيُّ ضروريٌّ جدًّا، يغفرُ لكَ كلَّ خطاياك. فهو ينصحُ باستنارةٍ إذ يمتلكُ النعمة. لا يطلبُ ما لنفسهِ بل يرجو خلاصَ النّفوس.

لنقلْ أنّكَ تريدُ أن تصيرَ راهبًا ولم يوافقْكَ أهلُك الرأي؟ سَلْ أباكَ الروحيّ. يمكنُ ألاّ تصير راهبًا، لكنّه سيستنير ليجيبَكَ. وكذلك الأمرُ إنْ كنتَ تفكّرُ بالزواج.

بما أنّي أرى أنّ ذهنَكُم يتوجّهُ ناحيةَ الزواجِ، فسأروي لكم قصّةً أخرى وبعد ذلك... ألآنَ أَطلقْ عبيدك.

* * *

المرأةُ السيّئةُ النهِمَةُ التي تُخفي الطّعام

امـرأةٌ أخـرى متزوِّجةٌ كانت نهمةً جـدًّا. كلَّ صباحٍ، يذهبُ زوجُها إلى الحقولِ ليعمل، أما هيَ فتبقى في البيت. ذاتَ يومٍ قالَ لها الرّجل:

- ضعي في حقيبتي بيضتَين مسلوقتَين.

فقالت له:

- آه، هذه الدّجاجاتُ اللعينات، يجبُ أن نقتلَها كلَّها، فهي لا تبيضُ.

- وهـل يُعقلُ هـذا يـا صغيرتـي ألاَّ تبيضَ ولا بيضةً واحدة؟

- حتّى ولا بيضة.

- لا يُعقَل ربَّما يسرقُها أحدٌ ما!

احتارَ الرجل، فالسارقُ يسرقُ بيضةً أو اثـنـتَين. «إمّا أنَّ امرأتي تنامُ واقفةً، أو أنَّها تزورُ الجيرانَ وتدعُ البيتَ يُسرق.

سأبقى غدًا في البيتِ لأرى ماذا يجري».

في صباحِ اليومِ التالي، ودَّعَ امرأتَه وذهبَ إلى عملِه. بعدَ قليلٍ، عادَ سرًّا واختبأ بالقربِ من القنّ، فلاحظَ أنَّ الدَّجاجاتِ تدخل الواحدةُ تلوَ الأخرى لتبيض. أخيرًا، رأى السيّدةَ الجيّدة، امرأتَه، تدخلُ وتجمعُ البيضَ كلَّهُ. فقالَ في قلبِه «ها هيَ السارقةُ إذًا. فلأرَ لمنْ ستعطي البيض».

بعدَ قليلٍ، أشعلَتِ النارَ وراحتْ تَقلي البيضَ في مِقلاةٍ كبيرة. ثم التهمتْ كلَّ شيءٍ بشراهة. فبُهِتَ الرّجلُ وقالَ في نفسِه: أينَ وضعتْ كلَّ هذه البيضات؟ وراحَ يفكِّرُ: هلْ أظهرُ أم لا! وفيما هو يفكِّرُ، أخذَ يسمعُ امرأتَه تتنهَّدُ وتقول: «آخ ما الذي أصابَني، إنَّ مَعِدَتي تؤلمُني كثيرًا، آخ، معدتي. آخ، ماذا أصابَني. أَمَرِضْتُ، أو سأَمْرَضُ. وراحتْ تعيدُ الكَرَّةَ، آخ، أَمَرِضْتُ أو سأَمْرَضُ».

لم يحتملِ الرجلُ بل قفزَ منَ الزاويةِ، وراحَ يضربُها بالعصا حتّى طرحَها أرضًا.

- إما أنْ تكوني قد مرضتِ أو ربَّما ستمرضين! أنا سأجعلكِ تمرضينَ أيَّتها المرأةُ القذرة، لأعلِّمَك أن تأكلي

مِقلاةَ بيضٍ لوحدكِ، وأمّا هذا الرجلُ الحمارُ، فليَمُتْ في الحقولِ بالفضلاتِ الجافّة.

ضحكَ الشبّانُ عندَ سماعِهم القصّة، فقالَ لهم الشيخُ مجدَّدًا: اضحكوا، ولكنّكم لا تعرفونَ أيَّ شيطانٍ هو هذا النهَم. إذا فَقَدَ الإنسانُ المحبَّةَ وامتلكَ هذا الهوى، فسيفضِّلُ أن يأكلَ كلَّ شيءٍ ويتركَ الآخرينَ يموتونَ منَ الجوع.

ذاتَ مرَّةٍ، صنعَ معنا أحدُ الرّهبان الصَّنيعَ نفسَه. ففي إحدى السهرانيّات، في مناسكِ القدّيسةِ حنَّةَ، حضَّرَ الطباخُ وجبتَي الصباحِ والمساء من أجلِ تسهيلِ العمل. وبما أنّ الكلَّ أكلوا بعدَ السهرانيّة، في الصباح، أبقَوا طبقًا من السمكِ لوجبةِ بعدِ الظهر. ومن كثرةِ التّعبِ، ذهبوا ليرتاحوا تاركينَ الصّحونَ دونَ تنظيفٍ.

كان فيما بيننا راهبٌ يدعى يعقوبُ. البعضُ كان يقولُ عنهُ إنّهُ أحمق، والبعضُ الآخرُ يقولُ إنّهُ يلعبُ دورَ المتباله.

هذا بدلَ أن يغادر، اختبأ في المطبخ. وحالما غادرَ الجميعُ أنزلَ الطبقَ وأكلَه كلَّه. ثمَّ نظّفَ كلَّ الصحونِ والطبقَ أيضًا.

جاءَ الطبّاخونَ قبلَ قليلٍ من المائدةِ لكي يجهِّزوا الطّعام. وحالما رأَوه، قالَ لهم يعقوبُ بلا مبالاةٍ وبِتَلعثمٍ كما كان يتكلَّم:

- نظ... نظ... نظفتُ أنا... أنا الصُّحون.

فقالَ الطبَّاخُ: عفارم عليك يا يعقوبُ.

ثم أنزلَ الطبقَ فألفاهُ فارغًا نظيفًا.

- يعقوبُ، أينَ وضعتَ الطَّعام؟

- أَكَلْ... أَكَلْ... أكلتُه كلَّه.

في البدايةِ، بدا لهم الموضوعُ غيرَ قابلٍ للتصديق، ولكنَّهُ فعلاً قد أكلَهُ.

لحسنِ الحظِّ، أنَّ الآباءَ فهموا الموضوعَ وعاملوه بالحُسنى.

ثم أردفَ الشيخُ قائلاً:

ماذا يفعلونَ الآن؟ فإذا كانَ أحمقًا، فالقانونُ لا يمسكُه وإذا كانَ يلعبُ دورَ المتبالهِ فكأنَّهُ يقول لهم: «هل تأكلونَ السّمكَ مرَّتين، ألا تكفيكُم مرَّةٌ واحدة؟ إنَّكم رهبانٌ...».

كانَ الشبَّانُ يضحكونَ، ولكنَّهم استفادوا.

وأنتم أيّها الشيخ، ما رأيُكم بهذا الراهب؟

- أنا لا أعرفُ الكثيرَ عنهُ، ولكنْ من المحتملِ أنَّهُ يلعبُ دورَ المتباله. هذا منذُ أنْ تعرَّفت إليه، لمْ أرَه يومًا ينتعلُ حذاءً لا صيفًا ولا شتاء. أما بالنسبةِ لثيابه، فكانَ دائمًا يتجوَّلُ بجبَّةٍ قصيرةٍ ممزَّقة. وكذلكَ بالنسبةِ للنومِ، فحيثُ كانت تظلم، هناكَ تشرقُ عليهِ الشمس. لقدْ أحبَّهُ الشيخُ يوسفُ كثيرًا، لذلكَ كانَ يأتي إلينا بانتظامٍ ويأكلُ كلَّ ما نملِك. ولم يكنْ في الطعامِ غريبَ الأطوار. بالطبع، كانَ صوّامًا ويأكلُ أيَّ شيءٍ نقدِّمه له. الآن كيفَ يمكنُ أن يأكلَ طبقًا من السمك؟ الغريبُ أنَّهُ لم يقلْ لنا.

بهذهِ الأقوالِ الجميلةِ والمباركةِ، أنهى الشيخُ حديثَه وأطلقَ الشبابَ بدعاءٍ كانَ يُردِّدُه دائمًا: «هيّا إلى صلاةِ يسوع، ولْيَسِرْ أمامَكم ملاكُكمُ الحارس».

السنونوةُ البرّيَّةُ على كتفِ الأب

كانَ يوجدُ الكثيرُ من طيورِ السنونو البرّيّةِ التي تبني أعشاشَها في أسوارِ الأديارِ الخارجيّةِ الشاهقةِ. وهي برّيّةٌ لدرجةِ

أنّها حالما ترى إنسانًا تطيرُ هاربَةً بسرعةِ البرق. ولكنْ ذاتَ مرّة، وفيما الشيخُ يصلّي على الشّرفةِ، إذا بسنونوةٍ تحطُّ على كتفه. فساءلها الشيخ: «**هلْ أرسلَك المجرِّبُ لتقطعينني عن صلاتي؟**» ثم أردفَ قائلاً: **حوَّلتُ رأسي ناحيتَها محدِّقًا فيها، فحدَّقَتْ فيَّ هي أيضًا، ثم عاودْتُ الصلاة.**

بعدَ قليلٍ، عدتُ فنظرتُ إليها ففعلتْ هيَ كذلك. فقلتُ لها: «يا طفلتي، ما العملُ الآن؟»، وفكَّرْتُ أن أطردَها فحزِنَتْ. فقلتُ لها: «آه، لقد فهمْتِني. لن يزعجَك الأبُ، هيّا اجلسِي قدرَ ما تشائين ولكنْ شرطَ ألاّ توسِّخي على كتفِي.

* * *

كانَ الأبُ يروي لنا هذهِ الحادثةَ بكلِّ بساطةٍ ليسلِيَنا. لكنَّ أحدَ الإخوةِ ذكرَ لي الأمرَ التالي:

عندما يعودُ الإنسانُ بمعاضدةِ النّعمةِ إلى حالةِ آدمَ قبلَ السقوطِ، تشعرُ الحيواناتُ بهذه الحالةِ وتركضُ إليهِ كما إلى آدم. هذا ما كانَ يحصلُ لكثيرٍ من القدّيسين.

يبدو أنّ صلاةَ الشيخِ النقيَّةَ جذبتْ هذا الطائرَ البرّيَّ وهدَّأتْهُ.

الراهبُ الذي يضايقُه الشيطان

مرَّةً، أسرعَ أحدُ الإخوةِ إلى الأبِ مرتعدًا.

- ساعدني يا أبانا.

- ما بكَ يا بنيَّ؟ تبدو مُرتعبًا جدًّا، يا حبيبي.

- آه، أيّها الشيخُ فالمجرّبُ لا يدعُني أعيشُ بهدوء. يحاربُني في النومِ وفي اليَقَظة. في النوم، صراخٌ وتهديداتٌ والأمرُ نفسُه أثناءَ السهرانيّة. وحالما أبدأُ بقانوني يقرعُ البابَ وأسمعُ أصواتًا متوحّشةً وتهديدات. ومن كثرةِ الخوفِ أرتجفُ كالسّمكة. إلى أين أذهبُ لكي أخلص؟

- يا بنيَّ، أنت مجاهدٌ عظيم! لقد فَهِمَكَ الشيطانُ، وها هو يسخرُ منك. عندما نقول «يا ربِّي يسوعَ ارحمني»، يحترقُ المجرِّبُ لمجَّردِ سماعِهِ اسمَ المسيح. فيخترعُ طرقًا كثيرةً لكي يجعلَنا نصمت. يضعُ اهتماماتٍ وأفكارًا وتجاربَ وأيَّ شيءٍ تتخيَّلُه، حتّى لا نصلّي. وقد أدركَ أنَّكَ جبانٌ فراحَ يقولُ لكَ: إمَّا أن توقفَ الصلاةَ أو أدخُلَ فأقتلَك. تشجَّعْ ولا تخفْ منهُ، إنَّهُ كذَّاب، فهو لا يستطيعُ أن يقتلعَ شعرةً، إنْ لم يُعطَ الإذْنَ من فوق. يتركُه اللهُ لكي يُدرِّبَنا.

حينَ كنَّا مع الشيخِ، كان يدرِّبنا بشكلٍ أقسى، لدرجةٍ أنَّ هذا العاتي كان يضربُنا بالعصيّ. لكنَّنا لم نكنْ جبناءَ مثلَك. عندما كانَ المجرِّبُ يأتي، كنّا نصلّي من كلِّ قلوبِنا، ونعطي كلَّ نفوسِنا لله. كانتِ الصلاةُ تجري بسرعةٍ لكنْ بنقاء. كانَ ذهنُنا يلتصِقُ بمعنى الصلاة، وكنَّا نلتصقُ بالصلاةِ وبيسوعَ المسيح. إذذاك كنّا نشعرُ في داخلِنا بالفرحِ والوداعةِ وتسيلُ الدّموع. عندئذٍ يختفي المجرِّبُ فنشكرُ الله. اسمعْ ماذا جرى مرّةً للأبِ أفرامَ الذي من كاتوناكيا:

في السنينَ الأولى لمعرِفتِنا به، كان يجاهدُ بحميَّةٍ كبيرةٍ في الصلاة. ذاتَ مساءٍ، ارتمى على فراشِه ليرتاحَ قليلاً ثمَّ ينهضَ ليتابعَ السهرانيّة. وكانتِ الشياطينُ تحسُدُه كثيرًا، لأنَّ صلاتَه كانت كالنار. فجاءتْ فرقةٌ بكامِلِها ووقفتْ خارجَ قلاّيتِهِ وبدأتْ تُصدر أصواتًا. فاستفاقَ الراهبُ مُرتعبًا، أنصتَ، فأدركَ أنَّها الشياطين. كانوا كلُّهم يصرخونَ بصوتٍ واحد: «حربٌ- حربٌ...».

اعتقدوا أنَّهُ سيرتعبُ مثلَك. لكنْ ماذا فعلَ الراهب؟ نهضَ من فراشِهِ كالبرق، أمسكَ المسبحةَ وأجابَهم بقوّةٍ

وشجاعة: «نعم، نعم حربٌ-حرب». وأطلقَ العنانَ لآلتِه: «يا ربِّي يسوعَ ارحمني، يا ربِّي يسوعَ...».

كانت سهرانيّةً ظلَّ يتذكَّرُها لسنواتٍ كثيرة. ثم شكرَ الشياطينَ لأنَّهم أيقظُوه للصلاة. هل سمعتَ كيفَ يجاهدون؟ هيَّا اذهبْ للصلاةِ، وفي المرَّةِ المقبلةِ افعلْ أنتَ هكذا إذا كنتَ تريدُ أن تنتصر. خَفْ من الله وليسَ منَ الشيطان.

كانَ الجوُّ بائسًا

ذاتَ مساء، فيما كانَ أحدُ الإخوةِ المبتدئين يُقيم سهرانيّة، هاجمَهُ شيطانُ التواني. أصابَهُ ثِقْلٌ في رأسِهِ مع آلامٍ حادةٍ وراح يتثاءبُ، أخيرًا ارتأى أن يعملَ واجباتِه الرّهبانيّةَ الضروريّة واستسلمَ للنوم.

في الصباحِ الباكرِ ذهبَ إلى الشيخِ ليعترفَ بخطاياه لكي يساعده. ولكنَّ المجرّبَ دخلَ في الوسط. فراحَ الأخُ يمشي ويتمتم: «أُفٍّ من هذا الخجل!».

وقبلَ أنْ يعترفَ للشيخِ، بادَرَه هذا الأخيرُ بالقول: «ما هذا الخجل! وضعَ اللهُ الخجلَ للبشرِ لكي لا يُخطئوا. ولكنّ

الشيطانَ استغلَّه حتّى لا يعترفوا فيبتلعهم». على الأثرِ تشجَّعَ الأخُ وقال:

- نعم، البارحةَ لم تكنْ السهرانيّةُ على خيرِ ما يُرام.

- آ، هذا الوضعُ يأتي من الزلاّتِ المرتكَبةِ في النهار.

- ما معنى هذا أيّها الشيخ؟

- ألا تفهم؟ ربَّما تكونُ قمتَ بعصيانٍ ما أو مخاصمة أو إدانـةٍ أو كسلٍ... نعم، ففي الليلِ نحتاج أن نكون حيويّين. نحنُ كنَّا نمسِكُ بالعصا، فإذا ما أصابَنا التواني نضربُ المطّانيّات (نعملُ) وإذا عاوَدَنا نضربُ ذواتِنا بالعصا. وكنّا نصلّي طوالَ الليلِ واقفين. وهكذا تَعَلَّمْنا أن نقيمَ السهرانيّة. إمّا أنْ نعيشَ أو أن نموت.

- ولكنْ في سهرانيّاتٍ سابقة، كنتُ أستطيعُ أنْ أقفَ لأكثرِ من ساعةٍ والصلاةُ تسيرُ كالساعة. الحقيقةُ أنّي بالأمسِ أردتُ أنْ أعملَ مشيئتي، كما استحوذَ عليَّ الكسلُ قليلاً أثناءَ العمل. وفي الليل، كانَ رأسي يؤلمُني وأُصبتُ بدوارٍ ولم أستطعْ أن أقف. نمتُ قليلاً فاستغرقتُ.

- بقليلٍ من الكلماتِ نقولُ القليلَ من كلِّ شيء. إنّي

مريضٌ قليلاً ولكنّي خمولٌ قليلاً، عَصَيْتُ قليلاً، وأدنتُ ... ماذا بعد!... آه فالأفضلُ أن نقول: «كانَ الجوُّ بائسًا... أُصيبَ الحمار». خُلاصةُ القولِ، ضعْ قاعدةً ولا تخف. اذهبْ هذا المساءَ وأنا سأكونُ معك. هيّا، ولتكن صلاتي معك. وملاكُكَ الحارسُ فليَسِرْ قدّامَك.

اعتادَ الشيخُ تشديدَنا بهذهِ الأقوالِ المغبوطةِ وبقوّةِ صلاتِهِ الخاصّة. لم يثبّطْ عزيمَتَنا أبدًا.

الراهبُ يوسفُ يتناولُ من أيدي الملائكة
جهاداتٌ أقسى- تُفّاحاتُ العذراء

كان الأبُ أرسانيوس يقولُ عن الشيخِ يوسف، إنَّ واحدًا من أشكالِ الجهادِ الكثيرةِ التي استعملها، أن يغلقَ على نفسهِ لفترةٍ طويلةٍ في كهفٍ دونَ أن يخرجَ أبدًا. «أمّا أنا، فلأنّني لم أمتلكْ هذه القامة، كنت أخدمهُ في الأشياءِ الضروريّة».

في أحدِ الأعيادِ الكبيرة، تولّدَ داخلَهُ شوقٌ كبيرٌ لتناولِ الأسرارِ الإلهيّة، لدرجةٍ جعلَ فيها الأرضَ مُوحلةً من كثرةِ الدموع، معذّبًا نفسَهُ، كغيرِ مستحقٍّ لجسدِ ودمِ مخلّصنا.

وعندما بلغَ هذه الحالةَ الكبيرةَ من الانسحاق، لمعَ الكهفُ المظلمُ فجأةً بنورٍ سماويّ. فرفعَ نظره، فإذ به يرى ملاكًا سماويًّا يمسكِ بيدَيه الجسدَ السيديَّ والدمَ في ملعقة، وهمس: «يناولُ عبدُ اللّه، الراهبُ يوسف جسدَ المسيح ودمه». هكذا ناوله واختفى.

ولكن هل كان الأبُ أرسانيوس يسعى وراءَ اهتماماتٍ جهاديّة؟ قال: «**عندما سمعتُ أنّ كثيرًا من القدّيسين كانوا يلبسون مُسوحًا في حياتهم، جرَّبتُ أنا هذا الجهاد، ولكن ما عساي أقولُ لكم؟ لم أحتملْه. فقد امتلأ جسمي كلُّهُ جروحًا؛ وكان يَخِزُني كالمسامير. فاحتملتهُ حوالي السنة ومن ثمّ خلعتُه**».

وتساءلَ أحدهم: ومن منّا يحتملُ أن تثقبَهُ هذه الشعرات الخشنةُ كالإبر؟!.

* * *

لم يكن المجاهدان الكبيران، في خضمِّ جهاداتهما الشبابيّة، يُشعلان الموقدةَ البتّة ليستدفئا، على الرغمِ من قساوةِ الهواءِ الشتويِّ تحتَ قمّةِ آثوس. وكانا معتادَين باستمرارٍ أن يقطعا مسافةَ ذلكَ الطريقِ المثلج، ويصعدا إلى كنيستِهما المحبوبة التي على اسم

السيّدةِ الفائقة القداسة، حيث كانا يمضيان الليلَ مصلّيَين.

أخبرَنا الأبُ أرسانيوس ما حدث لهما، قائلًا: «ذاتَ مرّةٍ في الشتاء، كُنّا صاعدَين الطريقَ القديمّة، وما إن صِرنا على مقربةٍ من كنيسة الفائقةِ القداسةِ، حتّى سقطَ ضبابٌ كثيف، وهذا كان إمّا بفعلِ الطاقةِ الشيطانيّة، وإمّا لتمتحِنَنا سيّدتُنا الفائقةُ القداسة، وبِتْنا لا نرى حتّى على مسافةِ خطوةٍ واحدة. فقال لي الشيخ:

«يا أبانا أرسانيوس، هنا، في الأعلى، الأماكنُ خطرة، ومن الممكنِ أن نسقطَ عن إحدى الجروف. فالأفضلُ لنا أن نقضيَ الليلَ هنا، فالأمرُ سيّان».

ما عسايَ أقولُ لكم، فقد أقمنا سهرانيّةً بغايةِ الروعة، لن أنساها أبدًا! وفي الصباح، عندما طلعَ النور، وُجدنا واقفَين وراءَ كنيسةِ الفائقةِ القداسة. كانت هذه أيضًا إحدى عطايا الفائقةِ القداسة.

ومرّة أخرى، هل تدري ماذا دبّرت لنا أمُّنا الطيّبة فيما كنّا صاعدَين مساءً، محمّلَين منهكَين؟ دخلْنا الكنيسة، وإذ برائحةِ مسكٍ تفوحُ من تفّاحتَين طازجتَين معلّقتَين أمامَ

إيقونتِها. فقالَ الشيخُ بجرأة كبيرة:

«أيّها الأبُ أرسانيوس، سنأكلُ هاتَين التفّاحتَين، وسنصلّي مسبحةً للّذي تركهما. فقد تركهما من أجلنا لأنَّنا بحاجة».

ولكن لمّا أكلناهما، وكانتا بمنتهى الحلاوة، شعرنا أنّهما كالثمارِ الفردوسيّة. إذذاك انفتحَ ذهنُنا ونظرنا الواحدُ إلى الآخر. فسألَني الشيخُ يوسف:

«في أيِّ فصلٍ نحنُ الآن، يا أبانا أرسانيوس؟».

وكان حوالي آخرَ شهرِ شباط.

«في مثلِ هذا الفصلِ أين يوجدُ تفّاحٌ طازجٌ بهذا القدر؟».

حينذاك سقطنا على وجوهِنا بدموعٍ أمامَ الإيقونةِ وشكرْنا سيّدتنا الفائقة القداسة التي كانت تعتني بنا كأمٍّ حنون، على هذه العطيّة السماويّة. وفي ذلك العصرِ لم تكن البرّادات موجودة. لذلك ما من شكّ، أنّها كانت عطيّةً سماويَّةً مِن سيّدتِنا الفائقة القداسة».

* * *

جراسيموس مينا ياس

سألْنا الشيخَ إن كان ينسكُ بجوارهم رهبانٌ آخرون.

«كان يمرُّ الكثيرون، وينتفعون من الشيخ، ولكن ما كانوا يستطيعونَ أن يعيشوا حياتنا.

ذاتَ مرّة، مرَّ شخصٌ مثقّفٌ كثيرًا يدعى مينا ياس (هو الراهبُ العالمُ المعروفُ جراسيموس مينا ياس)، وطلبَ أن يبقى بقربِنا لوقتٍ قصير، إذ كان بحاجةٍ كبيرة. فقالَ الشيخ: إن هو أطاع، فليبقَ قدرَ ما يشاء.

كان هذا الإنسانُ يحملُ معه حقيبةً صغيرة. فسأله الشيخ:

- ماذا يوجدُ في هذه الحقيبة؟

- أدويةٌ، أيّها الشيخ. لأجلِ ذلكَ جئتُ إليك، ربما تداويني.

- أنا سأداويك، لكن بشرطٍ واحد، أن تلقيَ بما في هذه الحقيبةِ من على المنحدر، وستأكلُ كلَّ ما نأكلُهُ نحن، مرّةً واحدةً في اليوم.

- ولكنْ أيّها الشيخ، إذا رمَيْتُ الأدويةَ أنتكسُ، فهذه

تساعدني. وكذلك بالنسبةِ للطعامِ فأنا مضطرٌّ، بداعي المرض، أن أتَّبعَ نظامًا خاصًّا وآكلَ من وقتٍ لآخر.

- جيّدٌ جدًّا، كما ترتاح.

في المساءِ قالَ له الشيخ:

- هيا يا بنيَّ، عند الصباحِ اذهبْ بسلامٍ إلى أيِّ مكانٍ آخر.

- ولكنْ أيّها الشيخ، أنا جئتُ بقربكَ لتساعدَني.

ثمّ أردفَ الشيخ:

- قلتُ لكَ، لكي تبقى هنا أريدُ منك شيئين، أن ترميَ الأدويةَ وتأكلَ مرّةً واحدةً في اليوم.

- ولكنْ أيّها الشيخ، هذا لا يجوز.

- غادرْ إذًا.

- لا أستطيع.

لم يغادر، ولا أطاع، إلى أن افتقدَهُ الله وسمَع في داخله صوتًا قويًّا يقول: «لماذا لا تسمعُ للشيخ؟».

عندئذٍ رمى الأدويةَ وأكلَ معنا. وفي صباحِ اليومِ التالي جاءَ إلى الشيخِ فرِحًا وقال له: «ليس عندي كلماتٌ أقولها لكَ

كي أعبّرَ لك عن امتناني؛ فقد انحلَّت كلُّ الأمراض وأشعرُ كأنّي طفل».

كان يعاني من سبعةِ أمراضٍ كبيرة. ولكن ماذا جرى فيما بعد؟ جاءَ ذاتَ يومٍ وقال:

- أيّها الشيخ، لقد عاودَني واحدٌ من الأمراضِ السبعة.

- أريدُ منكَ أن تعترفَ بأفكارك.

- البارحة، أيّها الشيخ، جاءَني فكرُ جُحُودٍ وقال لي، «أَجْبَرَكَ فرمَيتَ الأدوية؛ أنتَ كإنسانٍ إن مَرِضْتَ مجدّدًا، أين ستجدُ أدويةً أخرى هنا في الصحراء؟».

- آ، هذا هو السبب، لذلك عاودَكَ المرض.

- أيّها الشيخ، اشفني وأَعِدُ أنّي سأنتبهُ فيما بعد.

- يكفيكَ أنّك شُفيتَ من ستّة أمراض، ستحتفظُ بهذا لكي تنتبه، وكذلك لكي تحملَ صليبًا صغيرًا».

أفرام «السمين»

بعد انتقالِ الأبِ يوحنا الراعي، (الذي ذكرناه في الصفحة ٦١) نسكَ بقربنا شابٌّ آخرُ تقيٌّ دعَيناه أفرام. ولأنّه كان ضخمًا

بعضَ الشيء، لقّبناه بـ «أفرام السمين». كان طيّبًا جدًّا، مجاهدًا، ومطيعًا... بالطبعِ أراحني قليلًا، لأنّه ذو بنيةٍ قويّة.

لكنّه عندما نزلَ إلى المرفأِ ليُحضرَ أغراضًا، وبسببِ تداولِ الأحاديث، سمعَ أنّ بعضَ الرهبان يحصلون على إذنٍ ليخرجوا لأيّامٍ قليلة. وبعدما حرّضوه، جاءَ إلى الشيخِ يترجّاهُ أن يأخذَ هو أيضًا فرصةً لمدّة أسبوع.

أثناءَ الصلاةِ إستشعرَ الشيخُ بمعلومة، أن «لا ترسلِ الأبَ أفرام إلى الخارج، لأنّه لن يعود». ولكنّ أفرامَ أصرَّ:

«الكلُّ يذهبون ويعودون، أنا فقط سأبقى؟». قال له الشيخ: «قلتُ وتكلّمتُ ولا أتحمّل المسؤولية». «لا، أيّها الشيخ، سأعود».

غادَرَ وحتّى الآن لم يعدْ، وقد وصلَ إلى أميركا. قامَ بزيارتِنا في نهايةِ حياتهِ في قلاّية البورازيري، وكان الشيخُ قد رحلَ إلى السماء، وذرفَ أمامَنا دموعًا كثيفةً لائمًا نفسَهُ كعاصٍ قائلًا: «حتّى في أميركا كنت أرى أبي الروحيّ يحضُنُني ويقولُ لي متوسّلًا، تعالَ يا بنيّ، إنّي أنتظرك، ومع هذا ما كنتُ أسمع».

هذه كلُّها أمثلةٌ لكي لا نثقَ كثيرًا بأنفسنا، خاصةً الشباب. هذا لو سمعَ كلامَ الشيخ لكان الآنَ الخَلَفَ لأَخَويَّتنا.

ولكن عندنا أيضًا ما هو أسوأ، فهذا على الأقلِّ بقيَ لابسًا الجبة. أعرفُ الكثيرينَ الذين دهاهم الشرّير، أخرجَهم، وفي النهاية دنَّسوا الإسكيمَ بالخطايا، أو علِقوا بروابطِ الزواج.

حادثتان للرجوع العجيب

لدينا بعضُ الاستثناءات، فهناك بعضُ الرهبانِ الذين رجعوا مجدّدًا بتوبةٍ كبيرة. مَثَلُ ذلك حالةُ شيخِنا، أفرامَ صانعِ البراميل. هذا عندما انطلقَ للرهبنة، لم تكنْ لديه أيّةُ فكرةٍ كيف يتحاربُ مع «رئاساتِ وسلطاتِ الظلام»، لكنّه أظهرَ عزمًا حسنًا. وإذ علمَ أنّ عمَّه راهبٌ، تولّدَ في قلبهِ البريء الشوقُ لأن يتمثّلَ به. هكذا وصلَ ذاتَ يومٍ إلى قلاّيةِ البشارة في كاتوناكيا، بالقربِ من عمّهِ الشيخ يوسف.

ولكن عندما رأى المجرِّبُ شابًّا آخَر يتّشحُ بالسواد ليتسلّحَ ضدَّه، ماذا فعل؟ في البداية هيّجَ على الشابِّ الأهواءَ الجسديّةَ بحدّةٍ كبيرة، فاضطربَ الشابّ. إذذاك قال: «ما

عسايَ أفعل؟ فالأمورُ صعبة».

ولسوءِ الحظ، لم يتمكَّنْ أبوه الروحيُّ أن يعلّمه عن فخاخِ العدوِّ وأنّ الدواءَ هو الاعتراف. فالشابُّ كان يجهلُ حيلَ العدو، ولكنّه بعزمٍ صالح، ركضَ إلى أمامِ إيقونةِ البشارة وقال لسيّدتنا الفائقةِ القداسة، كرضيعٍ إلى أمّه: «يا عذرائي، كما أرى، إنّ الأمورَ صعبة، لذلك فكَّرتُ لو تَدَعينني أخرجُ إلى العالمِ قليلًا لأتزوّج، لكي تعبرَ عنّي الحرب، وأعِدُكِ أنّي سأرجع».

في النهار التالي، حيّا عمّهُ وقال له: «في الوقتِ الحاضر، أنا محتاجٌ لأن أخرج، لكنّي سأعود». فخرجَ ووجدَ امرأةً للزواج. ولكنّ الشابَّ أرادَ منذ البدايةِ أن يوضحَ الأمر. فقال لها: «أنا أهدفُ أن أتزوّجَ فقط لوقتٍ قصيرٍ ثمّ فيما بعدُ سأصير راهبًا، أتقبلين؟». لم تأخذِ المرأةُ الكلامَ على محملِ الجِدّ، ففكَّرَت في نفسها قائلةً: «بكلِّ تأكيدٍ يمازحني».

تمَّ الزواج. وفي السنةِ التالية، أنجبا طفلًا. وها هي الأفراحُ تعمّ، ثمّ المعموديّة... ولكنَّ الشابَّ فيما بعدُ جلسَ وفكَّرَ بالأمر مليًّا، «في سنةٍ واحدةٍ ولدٌ، فإن بقيتُ سنةً أخرى،

فسأُنجبُ الثاني والثالث... هه، حينذاك سأشيخُ وستذهبُ الرهبنة»، فنادى امرأتَه وقال لها:

- هل تذكرين اتّفاقنا قبل أن نتزوّج؟ إذًا ها قد انتهى الزواج، وغدًا أذهبُ لأصيرَ راهبًا.

صُعقَتِ المرأةُ وراحت تصرخُ وتبكي.

- لا تحزنْ لأجلي، ولكن ما ذنبُ هذا الطفل؟ من سيعتني به...؟

- إذا كان الطفلُ هو العائق، فهذا سهلٌ جدًّا، انتظري وسترَين.

ركضَ إلى إيقونةِ سيّدتِنا الفائقةِ القداسة وقال لها: «يا عذرائي، أنا لا أحنثُ بوعدي، ولكن هناكَ عائقٌ وهو الطفل». وفي نفسِ الليلة، أخذتِ الفائقةُ القداسةِ نفْسَ الطفلِ البريئةَ إلى السماوات. بعدَ دفنِ الطفل، وباندفاعٍ غيرِ متوقّف، عادَ الشابُّ إلى الموضوع.

- الآن إذًا، يا حبيبتي، تحرَّرنا من الطفل، وقد حانَ الوقتُ أن أذهبَ إلى غايتي.

وكذلك المرأةُ بقيت مصرّةً.

- وكيف سأعيش، كيف سأتدبَّرُ أمري لوحدي؟

حينذاك قال لها الزوج:

- تدبَّرتُ أمرَ الصبيّ، وها قد حانَ دورُكِ إذًا، انتظري قليلًا لأقولَ للعذراء...

ما إن سمعتِ المرأةُ هذه الأقوالَ الخاليةَ من كلِّ رجاءٍ ارتجفت، وسقطت عند قدميه وراحت تترجَّاه:

- لا يا حبيبي؛ دعني أعيشُ، واذهبْ حيثما تشاء.

في الصباحِ، جهّزت له أغراضَه وتركتْه حرًّا. ذاك وصلَ بسرعةٍ ومباشرةً إلى عمِّه في كاتوناكيا، ومع أنَّهُ لم يتعلَّم بعدُ أن يتصدَّى لهجماتِ الشياطين، بقيَ حتّى النهايةِ إشارةَ فضيلةٍ لكلِّ الذين عرفوه. لقد استحققنا أن نخضعَ لهذا الشيخِ حتّى مماتهِ ونحصلَ على صلاتهِ المقدّسة.

* * *

شيخٌ آخرُ من ديرِ القدّيسِ غريغوريوس المقدّس، جَرَفَهُ الشوقُ إلى الأهل، عندما كان شابًّا، ليخرجَ قليلًا إلى العالم؛ وهناك وقعَ في فخٍّ منصوبٍ وعلقَ في شباكِ الزواج، أنجبَ صبيًّا.

كان الصبيُّ يرى بعينَيه البريئتَين صليبَ الإسكيمِ الملائكيّ الأحمر على صدرِ أبيه.

عرفَ الوالدُ معنى هذا، فلم يحتملْ توبيخَ الضمير، وعادَ إلى ديرِه. مذّاك صارَ نموذجَ توبةٍ لكلِّ الأخويّة. ولكي يُظهرَ اللهُ أنّه قَبِلَ توبتَه، ففي حينِ رقادِه، عَلِمْنا أنَّ جسدَهُ أفاضَ طيبًا. هذا الراهبُ هو مكاريوس الذي من ديرِ القدّيسِ غريغوريوس، الذي رقد عام ١٩٧٥. عرفتُ أيضًا بعضَ الاستثناءات المشابهة، ولكن هناك من هم أكثرُ بؤسًا قد ابتلعهم العالم. لهذا أقولُ لكم كلَّ هذه الأشياءِ لننتبهَ قدرَ ما نستطيع.

حولَ مجاهدٍ عادمِ الفضّة

سردَ لنا الأبُ أنّه «ذاتَ مرّةٍ عندما سمعتُ بشهرةِ أحدِ المجاهدين، أخذتُ بركةً لكي أتعرَّف عليه. كان عادمُ الفضةِ هذا، ينسكُ في أعلى قلاّيةٍ تحت قمّةِ آثوسَ بقليل، ولم يكنْ قد وصلَ جليدُ الشتاءِ المرعبُ بعد. كانت تسقطُ الصواعقُ في ذلك المكانِ الواحدةُ تلوَ الأخرى، ومرّاتٍ كثيرةً كانت

تحرقُ له ثيابه، كما كان يقول. وبما أنّني غِرتُ من هذا التجرُّدِ قلتُ له: «هل أستطيعُ أيّها الشيخُ أن أمكثَ هنا؟»، فأجاب ذلك المحارِبُ ذو الخبرة: «يا بنيَّ، إن كنتَ تملكُ الدموعَ مستمرَّة، تستطيع»».

ولكن لماذا لم يمكثِ الأب؟ أتُراه لم يكنْ يمتلكُ موهبةَ الدموع؟ أو هل ظهرَ مِن كلِّ ما سبقَ أنّ جهادَهُ كان أدنى؟ وكيف كانت النعمةُ تعضدُهُ حينذاك إن لم يكنْ يتغذّى من حمَّامِ الدموعِ اليوميّ، والذي مرّاتٍ كثيرةً كان يوصينا قائلًا: «**جاهدوا لتقتنوا دموعًا حلوة، إنّها حَلوى من الفردوسِ مباشرة**».

لم يبقَ الأبُ لسببٍ واحدٍ بسيط، أنّه كان ما يزالُ تحت طاعةِ الشيخِ الكبير الذي تعهّدَ نحوه أنّ الموتَ فقط سيفصلهما.

الأبُ الروحيُّ إفثيميوس

في عصرِ الشيخِ أرسانيوس، تميّزَ فيما بينَ القاماتِ الروحيّةِ المهمّةِ الأبُ الروحيُّ إفثيميوسُ الدائمُ الذكر.

أخبرَنا الأبُ أرسانيوس أنّ هذا الأبَ الروحيَّ كانَ مجاهدًا عظيمًا. اعتادَ هذا الأبُ أن يغطّسَ قميصَهُ الداخليّة في الشمعِ

الساخن، فتتجمَّدَ وتصيرَ كالمشمَّع. فيلبسَها صيفًا شتاءً.

هذا اعتادَ أن يجلسَ على كرسيِّ القدّيسِ أثناسيوسَ اللافرا الكبير، وكان أبًا روحيًّا مشهورًا في كلِّ الجبلِ المقدّس.

في الآحادِ والأعياد، كان كثيرٌ من رهبانِ صحراءِ اللافرا يذهبونَ إلى الدير. بعدَ الخدمةِ الكنسيّةِ الطويلة، جرتِ العادةُ أن يقيموا مائدةً للزوّار. ويشتركُ النساكُ أيضًا، فيأكلونَ ويشربونَ ويرتاحون قليلاً ثمَّ يعودونَ إلى قلاّياتهم. لكنّهم في طريقِ العودة، كانوا يستغلُّون الفرصةَ ليعرِّجُوا على الأبِ الروحيّ، ليناقشوا معَه بعضَ الأفكار.

فكانوا يقرعون البابَ متلفّظِين بالعبارةِ المعتادة: «بصلواتِ آبائِنا القدّيسين...» وحالما يسمعونَ صوتَ الشيخِ العميقَ من الداخل: «آمين» يدخلونَ على الفور.

- أهلاً بكم، ماذا لدينا اليوم؟

- أيّها الأبُ القدّيسُ، إذا أمكنَ أن نناقشَ بعضَ الأفكار.

- قولوا لي الحقيقة، هل أكلتم؟

- نعم.

- هل شربتم؟

- نعم.

- هل استرحتم.

- نعم.

- عملٌ جيّد. الآن، آن لي أن آكلَ أوّلاً وأشربَ و... وبعد ذلك نتحدَّثُ في الروحيَّات.

لقد اعتادَ الأبُ الروحيُّ دومًا أن يقولَ هذا على سبيلِ المزاح، لكنَّهُ كانَ يدركُ ما يقول. وكانَ يعني بهذا القولِ أنَّهم يجبُ أن يذهبوا أوّلاً إلى الأبِ الروحيِّ، وبعدئذٍ يهتمُّوا بالبطون!

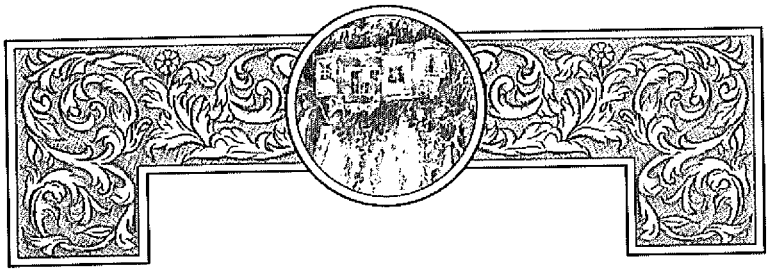

الفصل الرابع

مناسكُ القدّيسةِ حنةَ الصغيرة
أخويةُ الشيخِ يوسف الأخيرة

التوجّهُ إلى كهوفِ القدّيسةِ حنة الصغيرةِ

(١٩٣٨- ١٩٥٣)

بعد خمسةَ عشرَ عامًا من الجهاداتِ القاسية في منسكِ القدّيسِ باسيليوس، قرَّرَ المجاهدان النزولَ إلى أماكنَ أقلَّ بؤسًا. فالأبُ أرسانيوس كان يحدِّثنا قائلًا:

«كان لشيخِنا أخٌ يدعى نيكوس. تبِعَ أخاه، فأتى إلى قربنا ما بين ١٩٢٥-١٩٣٩ وصارَ راهبًا، ودُعيَ في السيامةِ

أثناسيوس. منذُ أن تنسَّكَ الأبُ أثناسيوسُ معنا، تسلَّمَ هو الخدماتِ الخارجيّة. ومذّاك انشغلتُ أنا بالأشغالِ اليدويّة. كانت قلاّيتُنا في منسكِ القدّيسِ باسيليوسَ صغيرة، فبحثْنا عن مخرجٍ. وما إن سمعَ الشيخُ بوجودِ كهوفٍ منعزلةٍ في المناسكِ الصغيرةِ التابعةِ للقدّيسة حنة، حتّى بحثَ عنها فوجدها مناسِبةً للهدوء.

وهكذا، خلالَ أيّام، تحرَّكنا مباشرةً، تاركينَ قلاّيتنا القديمة للأبِ يوحنّا الراعي.

وبداعي الحاجةِ عُدنا إلى البداية، نجهِّزُ من جديدٍ الكهوفَ الصغيرةَ التي كنَّا نسكنُها وكنيسةً صغيرةً خشوعيّة جدًّا.

لم يتأخَّرْ كاهنُنا المناوب، الأبُ أفرام الذي من كاتوناكيا، عن المساهمةِ في هذا العملِ على قدرِ ما كان يسمحُ له أبوه الروحيّ. وأما بالنسبةِ للإيقونات، فقد تبرَّعَ جيراننا، أخويّةُ القدّيسةِ حنة، أن يرسموها. وقد حافظنا معهم على علاقاتٍ أخويّةٍ متينة.

في ذلك العصر، تميَّزتْ بقربنا شخصيّتان مهمّتان هما

الأب الراهب جراسيموس ناظم التسابيح

الأب جراسيموس ناظمُ التسابيحِ المشهور، وابنُ عمِّهِ التقيّ العالِم الأبُ أبيمالك. وهكذا بات لنا جيرانٌ جيّدون».

الأبُ أفرامُ الذي من كاتوناكيا

على غرارِ الآخرين، ذكرَ الأبُ عن كاهنِ أخويَّتهم المناوب، الأب أفرام، حيثُ أشعرُ أنّه من الواجبِ أن أقولَ بضعَ كلماتٍ عنه. فمن ناحية، كلُّ مسيرتِهِ الروحيّةِ مرتبطة، دونَ انفصال، بهذين المجاهدَين الكبيرَين وبأخويّتهما. ومن ناحيةٍ أخرى، فهو من أهم الشخصيّات المعاصرةِ في الجبل المقدّس.

لاحظت، منذ بدايةِ خضوعي، الرابطَ الأخويَّ القويَّ المتبادَلَ ما بين الأبِ أفرام الذي من كاتوناكيا وتلاميذِ الشيخِ يوسف، وكم يكنُّ من الإحترامِ الخاصّ لشخصِ الأبِ أرسانيوس.

فعندما ابتعدنا من الجوارِ إلى الإسقيطِ الجديد، ومنه إلى قلاّية البورازيري، كان هذا الشيخُ الدائمُ الذكرِ يتركُ هدوءه باستمرارٍ لكي يزورَ «أبناء عمّه»، كما كان يدعونا، وعلى الأخصّ لكي يحصلَ على بركةِ الأبِ أرسانيوس.

وكنموذج حيٍّ عن تقواهُ وتقديرِه الكبيرَين لكلا الشيخين، كان عندما نستدعيه لكي يقيمَ لنا الصلوات، يقولُ بحسب القانون: «أذكر يا ربُّ عبدك... بصلواتِ الأبوَين القدِّيسَين يوسف وأرسانيوس». وكذلك في بدايةِ صلاتِه الخاصّة، كان دائمًا يقول: «بصلوات الأبوَين القدِّيسَين يوسف وأرسانيوس».

وأحيانًا كثيرةً كان الأبُ أفرام يزورُنا في قلاّية البورازيري، ويقضي الليلَ هناك، ومن ثَمَّ ينتقلُ إلى أبناءِ عمّه الآخرين، كما كان يدعوهم، أي إلى دير الفيلوثيو، ويمكثُ من يومين إلى ثلاثةِ أيّام، مُشدّدًا الشيخَ وكلَّ الأخويةِ المنشأةِ حديثًا. وفي طريقِ العودةِ كان يتوقّف ويمكثُ بضعةَ أيّامٍ بقربنا، في البورازيري.

أثناءَ المائدة، كان الشيخُ يغتنمُ الفرصة فيقترحُ على الأبِ أفرام أن يتوجّهَ إلينا ببعض النصائح. وحتّى نتذوَّقَ نحن أيضًا بعضًا من الأقوالِ الآبائية، أَعرضُ للذكرى تلكَ الأقوالَ القليلةَ

المقتضبة.

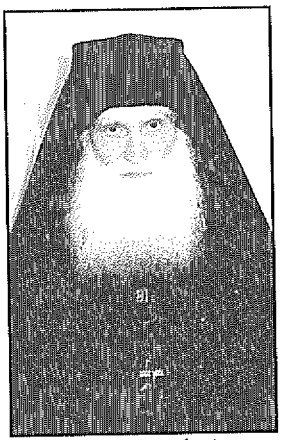
الأب أفرام كاتوناكيا
(١٩١٢-١٩٩٨)

«يا آبائي الأحباء، الحياةُ الرهبانيّةُ سهلةٌ جدًّا، ولكنّها بغايةِ الصعوبة. فبالنسبةِ لطالبِ رهبنةٍ حقيقيّ، الرهبنةُ هي فردوس. وعلى الراهبِ أن يتعلّم شيئين؛ الأوّلَ أن يقولَ «بارك» والثاني «فليكن مباركًا». إنّها بمنتهى البساطةِ والسهولة، ولكن لسوءِ الحظّ، قليلونَ هم الذين يطبّقونها. تعلّمتَ هذهِ الدروسَ جيّدًا؟ إذًا قد تعلّمتَ الرهبنة.

جاهَدَ أبونا الروحيُّ يوسف مع الأب أرسانيوس بقسوةٍ لا متناهية. فمثلُ هذه الجهاداتِ نصادفها فقط في سيرِ القدّيسين الكبار. ولكنّ هذا المجاهدَ الكبير كان دائمًا يُقرِّظُ الطاعةَ أكثرَ من كلِّ الجهاداتِ النسكيّة. أتريدُ أن تكتسبَ مواهبَ؟ إذًا عليك بالطّاعة! أتريد أن تكتسبَ الصلاة، أتريدُ دموعًا؟ تريدُ موهبةً عجائبيَّةً، بُعْدَ نَظَر، سابقَ عِلْم؟ كلُّها بالطاعةِ وبالطاعة فقط».

أعتقدُ أنَّ كلَّ ما ذكرناه أعلاه يكفي لذكرى هذا الشيخِ

القدّيس. أَعرضُ فقط كلَّ ما قاله لنا، كختمٍ لحديثهِ المُلهم:

«مررتُ بكم أوّلًا، جلستُ قليلًا؛ لكنّي لم أستطعْ أن أرى الشيخَ يوسف. بعدئذٍ ذهبتُ إلى دير الفيلوثيو، حيثُ تمكّنت من رؤيةِ الشيخ.

ها إنّي فلسفتُ الأمرَ قليلًا، فأنْ لا يكونَ الشيخُ، هنا، مع أبنائه، فهذا أمرٌ غريب. ولكنّي بعدَ قليلٍ لاحظتُ أنّ الرهبانَ هنا، عندهم الأب أرسانيوس. ولرهبانِ ديرِ الفيلوثيو كلُّ الحقِّ في أن يكونَ عندهم الشيخُ يوسف».

لقاءُ الأبِ أفرام بالشيخ يوسف

ذاتَ يوم، سألْنا الأبَ أرسانيوس:

– يا أبانا، ينتمي الأبُ أفرام إلى أخويّةٍ أخرى، لكن الرابطَ الذي يجمعُنا قويٌّ ومتبادَل، لدرجةِ أنّه كان يُعتبرُ عضوًا وجِذْعًا في أخويّتنا.

«عندما جاءَ الأبُ أفرامُ إلى جبلِ آثوس عام ١٩٣٣، نسكَ عند الأبِ نيكيفوروس في كاتوناكيا. هذا لمَّا رأى غيرةَ الشابِّ وتقواه، وشَّحهُ بالثوبِ الرهبانيِّ في غضون سنة. وبعد

سنة رَسَمَهُ كاهنًا، على الرَّغم من صغرِ سنِّه.

كان الأبُ نيكيفوروس قاسيًا على رهبانه. فطولَ النهارِ عملٌ يدويٌّ وأصوامٌ قاسية، وأمّا الصلاةُ والجهادُ فكانوا يتمّمونها في نصفِ الليل؛ والراهبُ بدونِ صلاةٍ لا يختلفُ عن العلمانيّين. ولكن عندما رأى الكلِّيُّ الصلاحِ عزمَ الشابِّ وعطشَهُ، دبَّرَ الأمرَ التالي:

قبْلَ شرطونيّةِ الأبِ أفرام كاهنًا، دعا الشيخُ يوسف الشيخَ نيكيفوروس لكي يقيمَ لنا القداس الإلهيّ. وبالتدبيرِ الإلهيّ، كان الأبُ نيكيفوروس يصطحبُ معه تلميذَه الشابّ. ولمَّا وقعَ نظرُ الشيخِ على الشابّ، فكَّرَ في نفسِهِ قائلاً: «هذا غزالٌ عطشانُ، وما مَنْ يعطيهِ ماءً ليشرب. هذا الراهبُ يحتاجُ إلى المساعدة، ولكن كيف سيشربُ في حظيرةٍ غريبة؟». لكنّه تركَ الأمرَ لعنايةِ الله. وبالفعلِ، دبَّرَ اللهُ الأمرَ على الشكلِ التّالي: ففي السنةِ عينِها، أرسلَ الأبُ نيكيفوروس الأبَ أفرام ليُشرطَنَ كاهنًا. إذذاك، استغلَّ الشيخُ الفرصة، وطلب من الأبِ نيكيفوروس أن يرسلَ له الراهبَ بانتظامٍ ليقيمَ لنا القدّاس الإلهيّ.

وقد تمَّتِ العجيبة. فإذ به يأتي ليلًا، ولأوَّلِ مرّة، إلى منسكِ القدّيسِ باسيليوس من أجلِ الخدمة، والفانوسُ على خصره. وبما أنَّ الطريدةَ صارت في القفص، استدعى الشيخُ الخادمَ الشابَّ إلى قلاّيتهِ بعد الخدمةِ الإلهيّة وسأله:

- كيف تجري أمورك، يا بنيّ؟

- بخير، أيّها الشيخ.

- ولكنْ يا بنيّ، أنا لا أراكَ بحالةٍ جيّدة. هيا لا تخجل، قلْ لي ما الذي يجري لك.

وشيئًا فشيئًا تشجَّعَ الكاهنُ الشابُّ وقال:

- أيُّها الشيخ، هل تُسمَّى رهبنةً هذه التّي نعيشُها نحن؟ عملٌ من الصباحِ حتّى المساءِ، وفوقَ كلِّ هذا إهانات! أفلا تسمعُ ولو كلمةً واحدةً جميلة! أين الفضيلة؟ أين المحبّة؟ أين الصلاة؟

- يا بنيّ، انتبه، هذا معلّمُك، والله قد أظهرَهُ لك. فلا يمكنكَ أن ترحلَ ولا حتّى أن تنتقدَه.

- أَوَهكذا يتصرّفُ الشيخ؟

- إسمع يا بنيّ، لقد تعهَّدتَ أن تنكرَ العالم، أَوَتطلبُ

بالمقابلِ تكريماتٍ وتمليقات؟ هه، إنّكَ لم تُصِب. إذا أردتَ أن تكونَ عبدَ المسيح، عليك إذًا أن تقبلَ أنتَ أيضًا كلَّ ما احتملَهُ لأجلنا، أيِ الإهاناتِ، والشتائمَ، والتحقيراتِ، وكذلك البصاقَ والعِصيّ. فإنْ صبرتَ على كلِّ هذا، عندئذٍ تحملُ صليبًا صغيرًا وتتبعُ المسيح. فلا خلاصَ ولا رُقِيَّ بكثرةِ المدائحِ والتشريفاتِ الكاذبة والملاطفة.

كلُّ هذه وأشياءُ أخرى، امتصَّتها تلكَ النفسُ الظمأى على الفورِ كإسفنجة، فأجابَ أفرام:

- شكرًا أيّها الشيخُ على النصائحِ القيِّمةِ التي أسْدَيْتَها إليَّ. لكنّ تساؤلًا واحدًا فقط يَشغلني؛ ألا يجبُ علينا نحن الرهبانَ أن نتعلَّمَ الصلاة؟

عندما سمعَ الشيخُ كلامَهُ حَضَنَهُ وقال له:

- حَسَنٌ جِدًّا، يا بُنَيَّ. أَطِعْ معلّمَكَ في كلِّ شيءٍ وكلِّ ما يتعلّقُ بالصلاة. ومن اليوم، ستقولُ باستمرار «يا ربّي يسوع المسيح ارحمني»، وفي المساءِ ستتبعُ النظامَ الذي سأعطيك.

منذ ذلك النهار استقامت نفْسُ الشابّ. فراح يتلو الصلاةَ

بلا انقطاع، ويسهرُ كلَّ مساء. وهكذا التهبَ بالغيرةِ الإلهيّةِ بفضلِ متابعةَ الشيخ له.

مذّاك صارَ الأبُ أفرام معلّقًا بعنقنا. وكان الشيخُ يساعدُ الأبَ أفرام فيما يتعلّقُ بصحّته، لأنّه كان في صددِ التعرّضِ لخطرِ داءِ السّل. فطلبَ من الخارجِ جبنة، وزبدة، وبيضًا، وحليبًا معلّبًا، لكاهنهِ المناوب. اعترضَ الشابُّ في بدايةِ الأمر، لكنّه أطاعَ وأكلَ من كلِّ شيءٍ إلى أن عاودتهُ صحّتهُ واعترفَ بالجميلِ للشيخِ الذي، فيما كان هو يعيشُ بقسوةٍ بالغة، كان يعملُ كلَّ التدابيرِ المناسبةِ للآخرين. وكان لا يساومُ أبدًا في موضوع الطاعة».

وكختمٍ لكلِّ ما أوردناهُ عن الأبِ أفرام، لا بُدَّ من ذِكرِ أنَّ الأبَ أرسانيوس كان يعتبرُهُ مُحلّقًا في الفضيلة، فيقول عنه:

«يا بنيَّ نحن كُنّا نجاهدُ بقسوة. وهذا لمجرّدِ أن أطاعَ الشيخَ من المرّةِ الأولى، تفوّقَ على جميعنا. ولكنَّ طاعتَهُ كانت استشهاديّة، إذ إن معلّمَهُ كان قاسيًا جِدًّا، ولكنّه صبرَ عليه إلى النهاية؛ وهذا له استحقاقٌ. فلتكن صلواته معنا».

❊ ❊ ❊

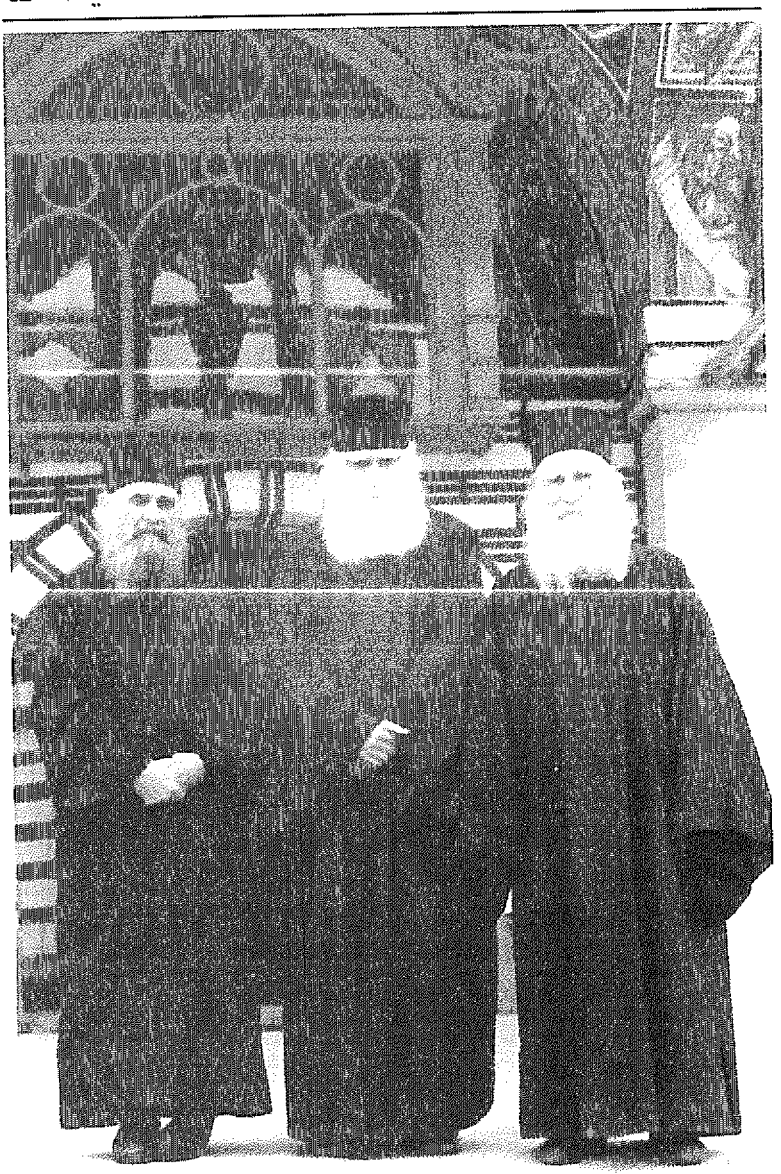

الشيخ أفرام كاتوناكيا في الوسط مع إخوته الروحيّين الشيخ أفرام الرئيس الأسبق لدير الفيلوثيو عن يمينه، والشيخ يوسف الڤاتوبيذيّ عن يساره، أمام بوّابة دير الڤاتوبيذي.

مجدَّدًا في القلّايات

فلنعُدْ إلى قلّايات القدّيسة حنة الصغيرة.

لم تتأخَّرْ منطقةُ قلّايات القدّيسة حنّة الصغيرة المنعزلةُ لتتحوَّلَ إلى مكانٍ جديدٍ للمصارعة الروحيّة.

انضمَّ الراهبُ يوسفُ إلى الأبِ أثناسيوسَ شقيقِ الشيخ. وباكرًا جدًّا صارتْ موهبةُ هذا الراهبِ التأليفيّةُ معروفةً جدًّا، وخاصّةً خلالَ السنواتِ الأخيرة، عندما نظَّمَ ديرَ الثاتوبيذي الشريفَ الكبيرَ الذي، كان ما يزالَ وقتئذٍ إيذيوريتميًا، وحوّلهُ إلى مشتلٍ روحيّ.

أخٌ آخر، هو الأبُ أفرام، حوَّلَ لاحقًا دير الفيلوثيو الشريف، الذي كان هو أيضًا ما يزالُ وقتئذٍ إيذيوريتميًا إلى ديرِ شركة. وانبعثتْ من هذا الديرِ ثلاثةُ أديارٍ أخرى من أديارِ الجبل المقدس.

وقد وضعَ ترتيبَ الأديارِ الرهبانيّةِ الأربعة بالشكلِ الذي استلمهُ من معلّمه. لكنّه انتقل، فيما بعد، وبوحيٍ إلهيٍّ، إلى أميركا، حيث أسَّسَ إلى اليومِ ستةَ عشر ديرًا[٢٣] رجّاليًّا ونسائيًّا، ناقلًا روحَ

(٢٣) صار الأب أفرام رئيسًا على دير الفيلوثيو عام ١٩٧٣، ثمَّ انتقل إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة حيث بدأ بتأسيس أديرةٍ رهبانية منذ سنة ١٩٩٢. وهو ما زال حيًّا يعيش في أوّل دير رجاليّ أسَّسه هناك دير القديس أنطونيوس- أريزونا. عدد الأديار اليوم صار سبعّة عشر ديرًا بينها سبعة للرهبان وعشرة للراهبات.

الجبلِ المقدّسِ الأصيل الذي قد عاشهُ بقربِ معلّمهِ القدّيس.

ابنُ أخِ الأبِ أرسانيوس

لقد ذكرْنا أنَّ الأبَ أثناسيوس انتقلَ ليكونَ بقربِ أخيهِ الشيخ يوسف. ويبدو أنّ الأبَ أرسانيوسَ نالَ «حصّة الأسد».

تذكرونَ أنّهُ قبلَ أن يتركَ العالم، «ولكي لا يضعَ له المسيحُ صخرةً في حضنِه، كان يجبُ عليه أن يكون عرّابًا لأحدٍ ما»؛ فعمّدَ ابنَ أخيه خارالمبوس.

عندما كان الشابُّ خارالمبوسُ ما يزال في العالم، كان مُعيلَ العائلةِ حتّى عمرِ الأربعين. آنئذٍ كانت حياتهُ جهاديّةً بما يكفي، إذ يمكنُ أن يغارَ منها أحدُ أكثرِ النسّاكِ المعاصرين قساوة. ولكن لكي نفهمَ بِكَمْ من الحميَّةِ انطلقَ للرهبنة، أَعرضُ ما قاله لي هو نفسُه.

«بما أنَّ عرّابي فرحَ عندما رآني، أحضرني إلى الشيخِ يوسف، كراهبٍ مرشَّح. وأراد الشيخُ أن يمتحنَ حميَّتي، فقال:

– نحنُ هنا نعيشُ بقسوةٍ كبيرة، وأنا أتصوَّرُ أنّكَ لا تستطيع.

- سأجرّبُ أيّها الشيخ.

- كلَّ مساء، يعملُ عمُّكَ ثلاثةَ آلافِ مطانيّة. هل تستطيعُ أنت؟

- فلأُجرّب أيّها الشيخ.

حينئذٍ نادى الأبَ أرسانيوسَ وقال له:

- أيّها الأبُ أرسانيوس، أريدُ أن تعملَ مع ابنِ أخيكَ في هذه اللحظةِ ثلاثةَ آلافِ مطانيّة.

- فليكن مباركًا».

ولكنَّ أبي الروحيّ خارالمبوس كانَ يقول:

«لقد سخرَ منّي الأبُ أرسانيوس قليلاً، فالأرض حيثُ عملَ مطانيّاته كانت صاعدةً قليلًا، أما بالنسبةِ لي فكانت مستوية. وها هو الأبُ أرسانيوسُ ينهي مطّانيّاته أوّلًا. أما أنا فتبقّى لي أيضًا خمسونَ مطانيّة. انتهيتُ وناداني الشيخُ مجددًا:

- كيف ترى الأمورَ يا خارالمبوس، هل تحتمل؟

- للساعةِ لم أستصعبْ أيّها الشيخ، فيما بعدُ لا أعرف».

* * *

الآنَ! أترُكُ الأبَ خارالمبوسَ دونَ أيّ تعليق، لأنّه ما يزالُ على قيدِ الحياة[٢٤]. لكن احسبوا أنَ الأبَ أرسانيوس قد عمَّدَهُ قبلَ أربعينَ سنةً من صيرورتِه راهبًا، هذا يعني أنّ الأبَ أرسانيوس كان ما بينَ الثالثةِ والسِّتينَ والخامسةِ والسِّتينَ من العمر، ورغمَ هذا عمل، وبكلِّ رغبته، ثلاثةَ آلافِ مطانيّة وكأنَّ شيئًا لمْ يكن.

بما أنَّ الشابَّ خارالمبوس لمعَ في امتحاناتِه الأولى، صُيِّرَ بعدَ فترةٍ قصيرةٍ راهبًا بهذا الاسم. وفي السنةِ اللاحقة، رُقّيَ إلى الكهنوتِ من أجلِ حاجاتِ الأخويّةِ الليتورجيّة.

***

هناك، فوقَ الأرضِ الصَّخريّةِ والكهوفِ الوعرة، يوجدُ مكانٌ ملائمٌ للسكنِ بامتياز، على اسمِ السابقِ المجيد. وقد حصلتِ الأخويّةُ على الكنيسةِ الخشوعيّةِ للسابقِ المجيد. وكانَ يُقدّسُ فيها الأبُ خارالمبوس كلَّ يومٍ منذ أن شُرطن. أما ترتيبُ البرنامجِ اليوميّ مع السهرانيّة فكان كالتالي:

من الصباحِ حتّى نصفِ النهارِ كانَ الآباءُ يعملونَ أعمالاً يدويّة، أو متخصّصة... بعدَ الظهر كان كلُّ أخٍ ينسحبُ إلى قلاّيته

(٢٤) رقد الشيخ خارالمبوس عام ٢٠٠١ (المعرّب)

حيثُ كانوا يصلّون صلاةَ الغروبِ بالمسبحةِ لمدّةِ ساعةٍ أو ساعتين، وإن بقيَ وقتٌ، فكانوا يطالعون.

من اليسار إلى اليمين: الأب خارالمبوس. الشيخ أرسانيوس. الشيخ يوسف (بالسّا). الشيخ يوسف الفاتوبيذيّ. الشيخ ثيوفيلاكتوس. الأب أفرام فيلوثيو.

أحيانًا تصيرُ مائدةٌ مشتركة، سَمَحَ فيها الشيخُ بتناولِ أطعمةٍ بزيتٍ منذ أن اقتنى رهبانًا أحْداثًا، لكنّه حافظَ على الترتيبِ القانونيِّ للأصوامِ النظاميّة. انتهى الشيخُ إلى هذا القرار، لأنّه أدركَ بالخبرةِ أنَّ الجيلَ الجديدَ ليست لديه القوّةُ لأصوامٍ مستمرّة. وهكذا رمى كلَّ الثقلِ على الطاعةِ الخلاصيّةِ والسهرانيّاتِ المتواترة التي «تنفتحُ بها أعينُ نفوسنا»، كما كان يقولُ الشيخُ يوسفُ، بحسبِ الأبِ أرسانيوس. أمّا الصومُ فكانَ بتمييزٍ واعتدال.

بعد المائدةِ المشتركة، كانَ الإخوةُ ينصرفون لأجلِ الراحةِ الجسديّةِ لمدّةِ ساعتين أو ثلاثِ ساعات، ثم ينهضونَ عند غروبِ الشمس. وبعدما يمرُّون على الشيخِ لأخذِ البركة، يشربونَ القهوةَ كمنشِّطٍ من أجلِ السهرانيّة. وأمّا بالنسبةِ للمرضى، فكانَ يُقدّمُ لهم قليلٌ من الضيافة.

كانَ الآباءُ يسهرون كلٌّ بمفردِه من الساعةِ الثانيةَ عشْرة، بحسب التوقيتِ البيزنطي[٢٥]، حتّى الساعةِ السادسة. ومن الساعةِ السادسة إلى الثامنةِ والنصف يقيمونَ القدّاسَ الإلهيَّ اليوميّ. ثمَّ بعدَ القدّاسِ يرتاحونَ حوالي الساعتين، لكي يتمّموا خدمتهم بنشاط،

(٢٥) يسير الوقت في الجبل المقدّس بحسب الساعة البيزنطيّة. يتأخّر التوقيت عندنا ستّ ساعاتٍ عن التوقيت البيزنطيّ.

بشكلٍ ينسجمُ معَ عملِ الطاعةِ والصمتِ المطبق، متمتمين في نفسِ الوقتِ بالشفاهِ وبدون انقطاعٍ صلاة «يا ربي يسوع المسيح ارحمني» أو «أيّتها الفائق قدسها والدة الإله، خلّصيني».

تقريرُ النهار – امتحانُ الذات

يحدّثُنا الأبُ أرسانيوس من خبرتهِ الذّاتيّة:

«في النهار، عندما تكونُ مستعدًّا بشكلٍ جيّدٍ لتأديةِ عملِ طاعتك، وفي الوقتِ عينهِ تُتَمْتِمُ شفتاكَ الصلاةَ باستمرار، تشعرُ في داخلكَ براحةٍ وفرح، حتّى إنّك لا تحسبُ لتعبِ النّهارِ أيَّ حساب. وهكذا بشكلٍ خاصٍ في الليل، وبكلِّ حُسنِ استعدادِ النهارِ هذا، تُتمُّ السهرانيّةَ بِقَدْرٍ كبيرٍ من الراحة، لدرجةِ أنّها لا تُتعبك، بل تظنُّ أنّها عيدٌ.

ويحدثُ مرّاتٍ كثيرةً في أثناءِ النهار، عندما نطلقُ العِنانَ لعصيانٍ ما، أو لكلامٍ دون جدوى، أو لمجادلة، أو لفكرِ تكبّرٍ، أو لغضبٍ ولانتقاد...

أن تتعبَ الشفاهُ من الصلاةِ غيرِ المنقطعة. وعندئذٍ تسبِّبُ لنا سهرانيّةُ الليلِ تعبًا وألمًا. وأحيانًا بدون أيٍّ من هذه

المؤثِّراتِ نتعبُ في السهرانيّة.

إمتحانٌ للذّاتِ بهذه القسوة، من شأنِهِ أن يجعلَنا نعثرُ على زلاّتنا. فإذا اعترفْنا بها بتوبةٍ وتواضعٍ، استعدْنا للتوّ مسيرتَنا الطبيعيّة. وإن لم نُعطِ تبريرات، ندركُ عندئذٍ أنَّ هذه السهرانيّة المتعبةَ ليست مُلْكَنا، إنَّما هي عطيّةٌ من الله، وبالتالي هو يَسْنُدُنا عندما يريدُ ذلك. بهذا الدرسِ نضطرُّ أن نعيشَ بخوفِ الله الدائم».

الفصل الخامس

رحيلُ الشيخ الكبير
الأبُ أرسانيوس شيخًا للأخويّة

الشيخُ ثيوفيلاكتوس – الانتقالُ إلى الإسقيط الجديد (١٩٥٣-١٩٦٧)

في الإسقيطِ الجديدِ قلاّيةٌ مكرّسةٌ على اسمِ القدّيسين العشرين العادمي الفضة. عاشتْ في هذه القلاّية، لسنينَ عديدة، شخصيّةٌ كبيرةٌ من كنيستنا، هي الراهبُ يواكيم سبيتسياريس، الكاتبُ المعروفُ بشكلٍ خاصٍّ من كتابه «المتوحّدة فوتيني». وقد عاشَ بقربِ هذا الشيخِ الكبيرِ راهبٌ تقيٌّ يدعى ثيوفيلاكتوس.

حالما سمعَ الراهبُ ثيوفيلاكتوس، بعد رقادِ معلّمِهِ البارّ،

بشهرةِ الشيخَين القدّيسَين يوسف وأرسانيوس مع أخويّتهما التقيّة، توجَّهَ على الفور ليتعرّفَ إليهما عن قربٍ وينتفع، إذ سحرَتْهُ تعاليمُ الشيخِ يوسفَ العذبة.

عندما لاحظَ الشيخُ شوقَ الأبِ ثيوفيلاكتوس وتقواه، قَبِلَهُ كعضوٍ في أخويَّتهِ ووشَّحهُ بالاسكيمِ الملائكيّ. مذّاك تبعَ الأبُ ثيوفيلاكتوس هو أيضًا ترتيبَ السهرانيّة ذاتَه في قلاّيتهِ في الإسقيطِ الجديد.

وبذكرنا هذا الشيخَ القدّيس، لسنا نخرجُ عن الموضوعِ إن تطرّقنا إلى بضعِ كلماتٍ عنه.

منذ بدايةِ خضوعي، كانت علاقتي به وطيدة، إذ هو معتبرٌ عضوًا في أخويّتنا، وباستمرار، كُنّا نتوجَّهُ مع معلّمي في نصفِ الليلِ إلى الكنيسةِ الخشوعيّةِ التي على اسمِ القدّيسين العشرين الماقتي الفضّة، للمشاركةِ في القدّاس الإلهيّ اليوميّ. فكانَ يسهرُ في الغرفةِ التي على يمينِ الكنيسة. ويستريحُ فيها حالما يتعب، لبعضِ الوقت، على مقعدٍ خشبيّ.

ملكَ هذا الشيخُ فضائلَ كثيرة؛ وبخاصّةٍ عدمُ القنية والوداعة. لم يكن يقتني مالاً البتّة. وإن أعوزتهُ حاجةٌ اقتصاديّة، كان يطلبُ

بإيمانٍ من شفعائه وهم يرسلونَ له كلَّ ما يحتاجه.

كان يُشعِلُ قناديلَ كنيسةِ القدّيسين العادمي الفضّة بشكلٍ دائم، صيفًا شتاءً، وكذلك كلَّ قناديلِ التقبيلات التي في الإسقيط. ورغمَ ارتفاعِ الثلوجِ نصفَ متر، كان ينزلُ ليُشعلَ القناديل. يأكلُ طعامًا مطبوخًا عندما كُنّا نعطيه، ولكنّه في بيتهِ لم يَطْهُ ولا مرّة.

وقد مَنَّ اللّٰه على هذا الشيخِ بموهبةِ معاينةِ الأشياءِ الفائقةِ الطبيعة، بعينَيْ نفسِهِ الداخليّة. وكعلامةٍ على هذا أَعرضُ حادثتَين:

ذاتَ مرّةٍ، كان يرى في إحدى الأخويّات الشيطانَ يحاولُ أن ينصبَ فخًّا. فقالَ لشيخِ القلاّية: «انتبه، فالشيطانُ يخطّطُ لشيءٍ ما في أخويّتك». وبعدَ بضعةِ أيّامٍ قام أحدُ الرهبانِ وغادرَ القلاّية.

قالَ لأبٍ روحيّ: «انتبه، ففي الأمسِ كان الشيطانُ يحومُ في قلاّيتك». وبالفعل في اليومِ السابقِ، سخرَ منه أحدُ الرهبانُ باعترافٍ كاذب، واستطاعَ أن يحصلَ منه على شهادةٍ بأن يُشَرْطَنَ كاهنًا. وعندما تحرّى الأبُ الروحيُّ عن الموضوع، اكتشفَ الخِداعَ وسحبَ الشهادة.

بعد رقادِ الشيخِ يوسفَ البارّ، لا أعرفُ كيف شعرَ بالحاجة.

فكلَّ عام، في أثناءِ الصيفِ، كان ينتقلُ إلى البيلوبونيز، ويساعدُ بهدوءٍ الأديارَ في ضواحي كورنثس، وأناسًا كثيرين. فمجرّدُ حضورِهِ المتواضعِ يشكّلُ عظةً حيّة. عندما غادَرْنا الإسقيطَ الجديد، ترجّاهُ الأبُ أرسانيوس أن يتبعنا.

وعلى الرغمِ من تقدّمهِ في السنّ، فقد فضّلَ أن يبقى في قلاّيتهِ إلى أن فقدَ نورَ عينيه، حينئذٍ أحاطهُ جيرانُه، أخويةُ الإبراهميّين التقيّة، بالعنايةِ إلى حينِ رقاده سنة ١٩٨٦. فلتكن صلاتُه معنا.

الشيخ بوسف مع أخويّته ورهبان آخرين. عن يمينه أرسانيوس وعن يساره ثيوفيلاكتوس. الواقفون خلفه من يمينه إلى يساره الأب خارالمبوس، الأب يوحنا الصيّاد، الأب إفستراتيوس، الراهب يوسف القاتوبيذيّ، الراهب أثناسيوس شقيق الشيخ، الأب نيقوذيموس والأب أفرام فيلوثيو.

كنيسةُ السابقِ الكرمِ في مغاورِ منسكِ القدّيسةِ حنّةَ الصغير

الكنيسة من الداخل

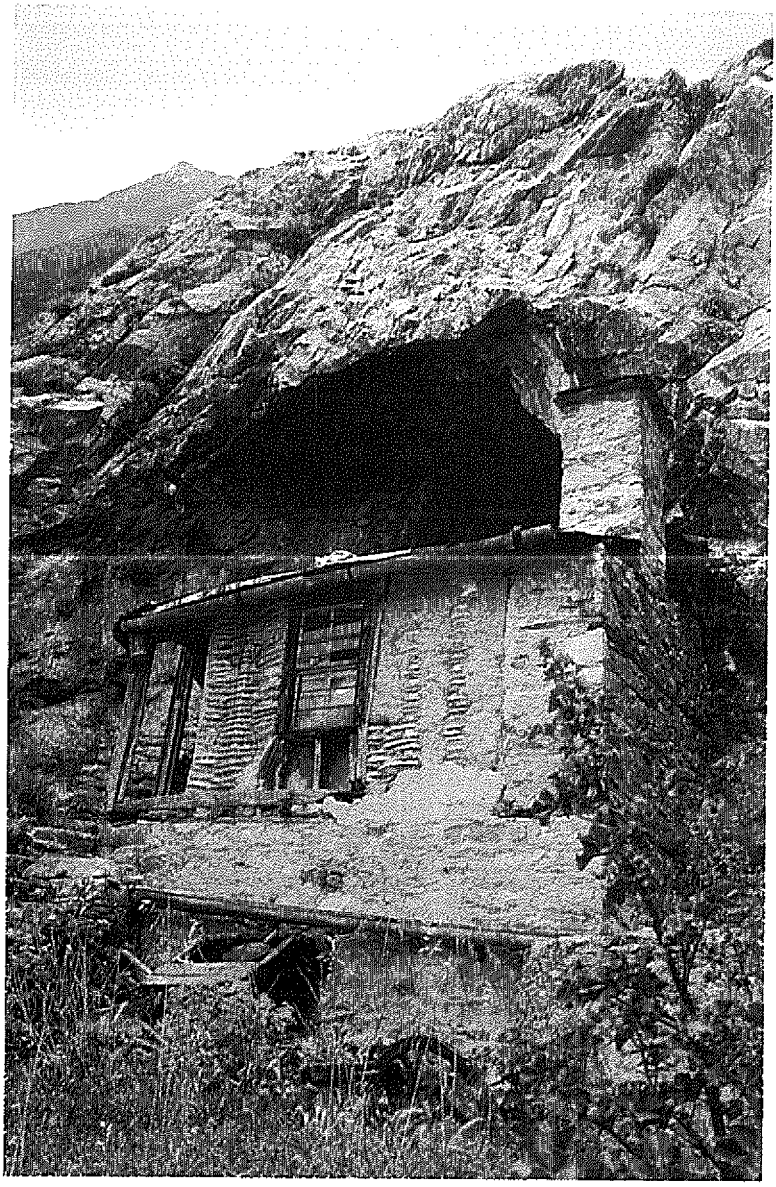

كوخُ بشارةِ والدةِ الإلهِ في كاتوناكيا حيث بدأ الشيخان جهاداتهما

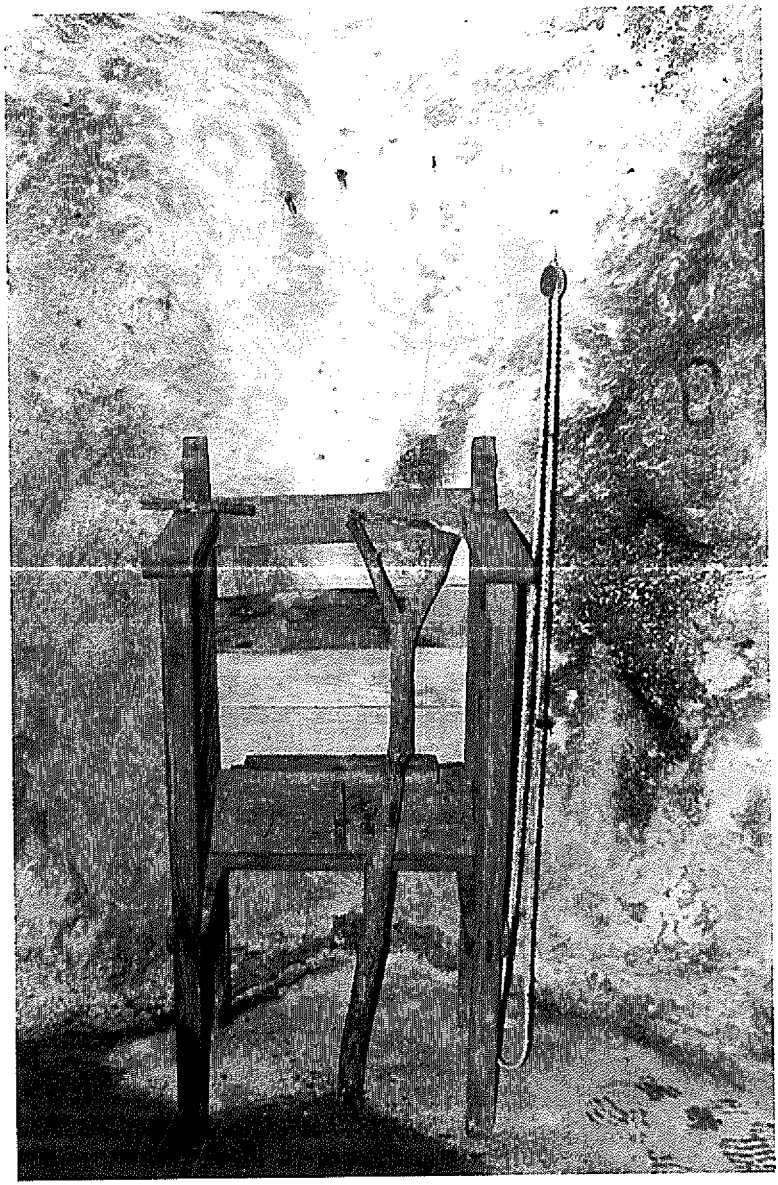

كرسيّ الشيخ ، ومسبحته، والعكّاز في الإسقيط الجديد.

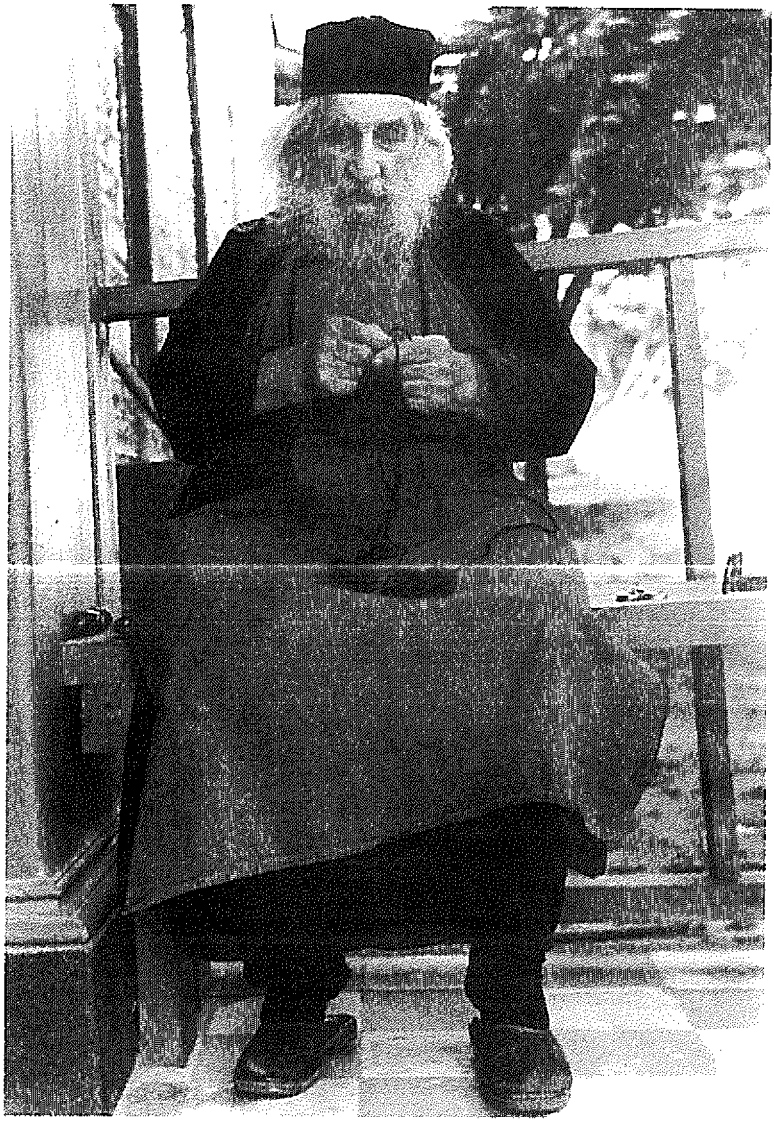

عندما لم يَعُدِ الشيخُ قادرًا أن يأكلَ خبزَه بعرقِ جبينِه، ولم يكنْ يرتاحُ أن يأكلَ الخبزَ مجّانًا، راحَ يجلسُ على كرسيِّه مردِّدًا صلاةً يسوعَ أو متحدِّثًا مع زوّار أتقياء، وفي الوقتِ نفسِه يَحبُكُ المسابحَ التي كان يوزّعُها مجّانًا على أبنائِه الروحيّين، طالما أنّه كان يعلّمُهم كيف يجبُ أن يستخدموها مُردِّدين على كلِّ حبّةٍ:

«يا ربّـــــي يسوع المسيح ارحمني»

الشيخ أرسانيوس، حاملاً عصاه، والأب خارالمبوس في البورازيري

أخويّةُ الشيخ أرسانيوس في البورازيري

الشيخ أرسانيوس الكهفيّ

بقايا الشيخ يوسف الهدوئيّ

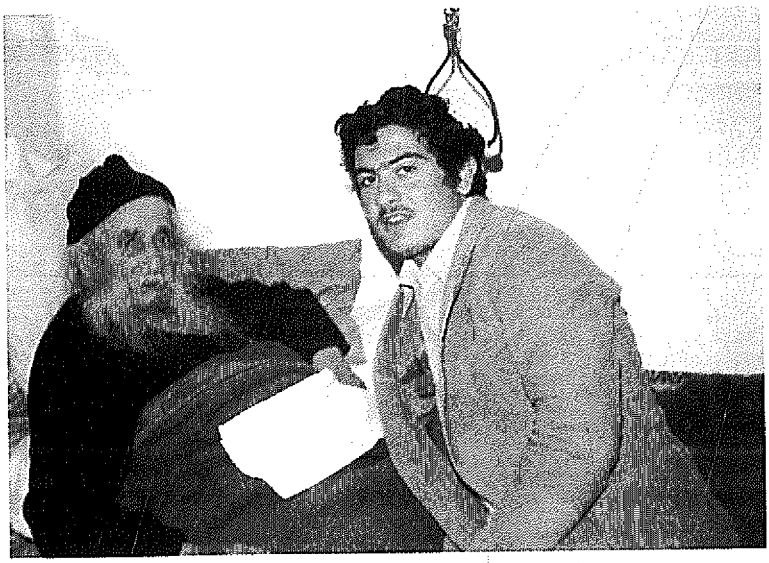

في مستشفى دير الذيونيسيو الشريف

«هلمّ نعطي القبلة الأخيرة...»
رئيسُ دير الذيونيسيو الشريفِ الأبُ خارالمبوس يُقبّل الشيخَ أرسانيوس القبلةَ الأخيرةَ في نهاية الخدمة الجنائزيّة . ويظهرُ وراءَه في الوسطِ الدائمُ الذكرِ الأبُ أفرام الكاتوناكيّ.

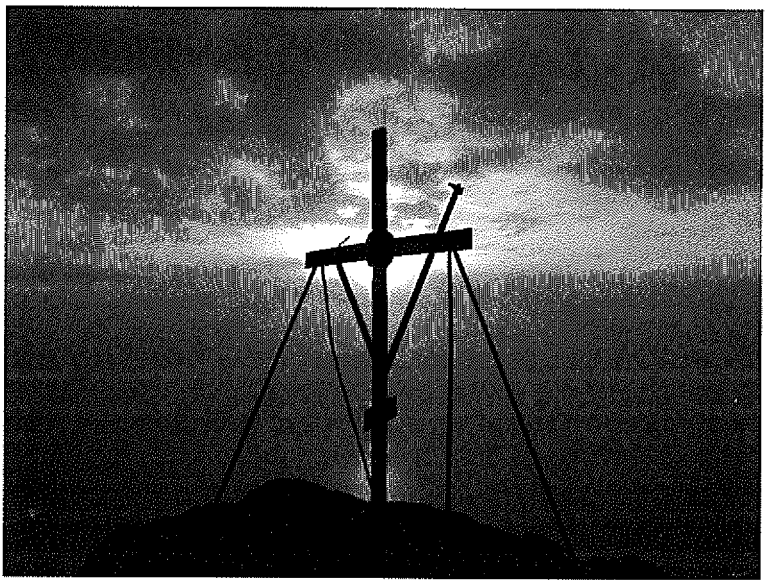

قمّة الجبل المقدّس آثوس

إذًا، منذ أن اعتُبِرَ الأبُ ثيوفيلاكتوس عضوًا في الأخويّة سنة ١٩٥٣، كان يذهبُ ويجيءُ من الإسقيطِ الجديدِ إلى مناسك القدّيسة حنّة الصغيرة. لذلك فكّرَ لأسبابٍ رئيسيّةٍ عمليّة، أن يقترحَ على الشيخِ انتقالَ كلِّ الأخويّةِ إلى القلّايةِ الفسيحةِ التي على اسم القدّيسين العادمي الفضةِ في الإسقيطِ الجديد. فوافقَ الشيخُ يوسفُ القدّيسُ الأبَ ثيوفيلاكتوس أن ينزلوا إلى الإسقيطِ الجديدِ لأيّامٍ قليلةٍ قَيدَ الإختبار. فالشيخُ كان يردّدُ على الدوامِ المبدأَ القائل: «لا ترذلْ ولا ترفضْ كلّيًا».

وبقدرِ ما فرحَ آباءُ الإسقيطِ ورئيسُ ديرِ القدّيس بولسَ بنزولهم، بقدرِ ما انزعجَ الآباءُ السبعةُ المنتقلون. لأنّهم من ناحية، إنضغطوا في قلّايةٍ صغيرة، ومن ناحيةٍ أخرى، كانت منازلُ الإسقيطِ المجاورةُ ملتصقةً بقلّايتهم. وهذا الوضعُ لم يرُقْ للشيخَين الكبيرَين، إذ لم يعُدْ بمقدورهما أن يشعرا بالراحة أبدًا. فقال الشيخُ يوسفُ للأبِ أرسانيوس:

– أيّها الأبُ أرسانيوس، هنا، إلى حيثُ جئنا، إن أنتَ سعلتَ فسيسمعكَ الجيران؛ إن أردتَ أن تصلّي بصوتٍ مرتفع، أن تبكي...، وبهذه الطريقةِ سنصيرُ مسرحًا.

- **نعم، معك حقّ، أنا أيضًا أشعرُ بذلك.**

- إذًا، أخْبِرِ الديرَ بأنّنا غدًا نغادر.

* * *

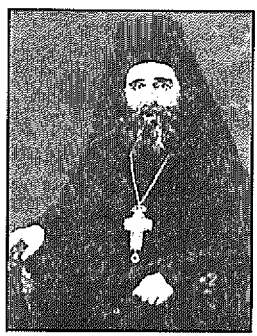

الأرشمندريت سيرافيم
رئيس دير القدّيس بولس

إعلموا أنّ ديرَ القدّيسِ بولسَ الشريف كان آنئذٍ من أفضلِ أديارِ الشركةِ في الجبلِ المقدّس، وقد زيّنتهُ شخصيّاتٌ روحيّةٌ من بينها الرئيسُ سيرافيم والراهبُ أندراوس الذي صار فيما بعدُ رئيسًا للدير، والراهبُ النقيّ ثيودوسيوس العالِم، وآخرون كثر. فما إن علِمَ الديرُ قرارَ الشيخِ يوسف، حتّى دعا الرئيسُ إلى مجمعٍ وقرروا أن يعطوا كلَّ المنطقةِ الهدوئيّة لأخويّةِ الشيخِ يوسف، من برجِ الإسقيطِ وأسفلُ حتّى البحر، إضافةً إلى أربعِ قلّايات. كان القرارُ متسرّعًا ورجَوا الشيخَ بحرارةٍ أن يقبلَ الاقتراح.

* * *

نزلَ الشيخان الكبيران لكي يتفحّصا المكان، وبالشعور ذاته، علم كلاهما أنّ هذا ما كانت تتوقُ إليه نفساهما.

في اليومِ التالي، انتقلتِ الأخويّةُ إلى القلّايات الجهاديّة. أمّا الأبُ أثناسيوسُ فقد عاشَ في قلّايةِ رقادِ والدةِ الإله، في مكانٍ مفعمٍ بالهدوء.

الأب أثناسيوس

نتحدَّثُ هذه المرّةَ عن الأبِ أثناسيوس شقيقِ الشيخِ يوسف بحسبِ الجسد، وأعتقدُ أنّنا نستفيدُ إن نحن تحدَّثنا عنه قليلًا.

بقيَ الأبُ أثناسيوس في القلّايةِ المذكورةِ قبلًا، تقريبًا حتّى نهايةِ حياته. لكنَّ صحَّتَهُ تدهورت فجأةً، فحضرَ إليهِ في الحلمِ أخوه بالجسدِ ومعلِّمُه بالروح، كما صرّحَ لي هو بنفسه، وحضّهُ على الإنتقالِ إلى دير الفيلوثيو الشريف.

وهذا الشيخُ تمتَّعَ هو أيضًا بمواهبَ جمّة. فمنذُ أن أنكرَ العالم، وضعَ لنفسهِ قانونًا قاسيًا ألاّ يخرجَ أبدًا من الجبلِ المقدّس، وكذلك ألاّ يقبلَ البتّةَ عنايةً طبّيةً علميّة، وهذه الأشياءُ حافظَ عليها بكلِّ دقّةٍ حتّى النهاية.

ومنذُ أن توحَّدَ في منسكِ القدّيس باسيليوس استلمَ الخدماتِ الخارجيّة، مُريحًا بذلك الأبَ أرسانيوس، الذي مذّاك تخصّصَ أكثر

في العملِ اليدويّ. غالبًا ما كان يجولُ على الأديارِ بغيةَ تصريفِ أعمالِهم اليدويّة، لكي يستبدلها بمؤنٍ للقلّاية، حاملًا حقيبتَهُ لساعاتٍ طويلةٍ على ظهرِه.

وفيما بعد، عندما عاشَ في الإسقيطِ الجديد، استلم الواجباتِ بدون مقابل. وكان يقولُ على سبيلِ المزاح، «واجبات الحمار»، أي خدمةُ ساعي البريد، صاعدًا نازلًا كلَّ يوم، خادمًا كلَّ الآباءِ بعامّةٍ.

أمّا في ما يختصُّ بشخصيّتِه فكان دائمًا مبتسمًا، ذا كلامٍ عذب، مفيدًا ومتقشّفًا، وكثيرَ الورع. في الإسقيطِ الجديد كان دائمًا أوّلَ من يحضرُ إلى خدمةِ الأحدِ المشتركة، متمّمًا بالطبعِ خدمةَ التيبيكاريس[٢٦].

على الرغمِ من أنّه لم يكنْ يعرفُ الموسيقى، كان يرتّلُ حسب قواعدها بشكلٍ صحيح، حتّى إنّه كان يؤثّرُ على المرتّلين الأوائل، وخاصةً عندما كان يسبّحُ سيّدتَنا والدةَ الإلهِ بتسبيحِ رئيسِ الملائكة «بواجب الإستهال».

وكذلك الصلاةُ والتسبيحُ ما كانا يغيبان البتّةَ من فمه، كما

(٢٦) الذي يتابع تنظيم الخدم الكنسية.

كان يذكرُ كلَّ الذين التقَوه. أيًّا يكن، ولو غريبًا، ما إن يحيِّيه، حتّى يبادلَهُ التحيّةَ عاملًا له انحناءةً وهامًّا أن يقبّلَ يده، حتّى ولو كان علمانيًّا.

* * *

عاشَ السّنواتِ الثلاثَةَ الأخيرةَ مِن حياتهِ في ديرِ الفيلوثيو، صائرًا مثالًا ونموذجًا لكلِّ الإخوةِ اليافعين. وعلى قدرِ استطاعته، كانَ أوّلَ الحاضرين إلى الخدمِ المقدّسةِ المشتركة.

ومنذ أن تدهورتْ صحّتُهُ اضطرَّ أن يغلقَ على نفسهِ في قلّايته؛ إذ تورّمتْ رجلاه كثيرًا، وأخذت عروقهُ تتمزّقُ مُحدثةً له جروحًا كبيرة، وبدتْ عظامُ رجليهِ عارية. ولكنَّ الأمرَ المخيف، هو أنّه علاوةً على الجراحِ كانت الديدانُ ترعى فيه، وهذا أمرٌ شهدتُهُ أنا بأمِّ العين. كان الراهبُ سابا، طبيبُ الدير التَقيّ، المختبِر، يترجّى الشيخَ بقوّةٍ أن يخدشَ جروحهُ من أجل المعالجة.

ولكنّ الأب، طالما أنّه التمسَ الخلاص، ما كان يريدُ أن يَنْقُضَ العهدَ الذي قطعهُ في بدايةِ خضوعه. لذلك أجابهُ دون تأوّه: «يا أولادي، صلّوا بشكلٍ أفضل لكي يستلمَ الربُّ روحي أنا أيضًا».

بمثلِ هذه النهايةِ الاستشهاديّة، رحلَ هذا الشيخُ إلى السيّد، ممتلئًا بالأيّام، منضمًّا إلى آباءِ الأخويّةِ الباقين، في فترةِ الصيامِ الأربعينيّ المقدّس، خلال العام ١٩٨٤.

رقاد الشيخ الكبير البارّ

فلنعاودِ الحديثَ عن قلاّياتِ البُرج.

لم يتأخّرِ الآباءُ أن يشيّدوا في القلاّيتين الكبيرتَين كنيستَين مقدّستَين صغيرتَين؛ واحدةً على اسمِ بشارة والدة الإله، والأخرى على اسمِ ميلادِ «الأعظمِ في مواليد النساء» زعيمِ الطغمةِ الرهبانية، السابقِ الكريم.

وخلال وقتٍ قصير، اختارَ الشيخُ الراهبَ أفرام ليصيرَ كاهنًا. وقد بقيَ هذا الأخيرُ بعد انتقالِ الشيخِ الكبيرِ يخدمُ في كنيسةِ البشارة، وأمّا الأبُ خارالمبوس، ففي كنيسةِ السابقِ الخشوعيّة الصغيرة. بقيَ الأبُ يوسف، في هذه الفترةِ، مع الأبِ ثيوفيلاكتوس في منسكِ القدّيسين العادمي الفضة. أما الأبُ أرسانيوس ففضّلَ القلاّيةَ الصغيرةَ المُقابلة للسابقِ الكريم، التي هي على بُعدِ مرمَى حجر عن أولئك. في تلك القلاّيةِ إذًا تابعَ الأبُ جهاداتهِ الكبيرة.

وهناك حصلت ليَ البركةُ أن أتعرَّفَ إليه لأوّلِ مرّة.

في هذه الأثناء، كانت صحّةُ الشيخِ الكبيرِ قد تدهْوَرت كثيرًا. ففي العام ١٩٥٩ الخلاصيّ، وقد سبقَ فعاينَ رؤيا وعَلِمَ بنهايتِه، تسلَّمتْ سيّدتُنا والدةُ الإله نفْسَه المغبوطة، في عيدِ انتقالها الشريف، في الخامسَ عشرَ من شهرِ آب، بعدَ القدّاسِ الإلهيّ. وكان شوقُ هذا الشيخِ القدّيسِ إلى والدةِ الإلهِ كبيرًا جدًّا، لدرجةِ أنّهُ كان، كلَّ حياته، يمسكُ في أحضانهِ إيقونتَها المقدّسة، ذارفًا دموعًا حارّةً، متوسّلًا: «متى تأتينَ إليَّ؟ متى ستستلمين نفسي؟».

غادرَ الشيخ، فاليُتمُ كبير، والألمُ عميق!

تعزيتُنا الوحيدةُ الآنَ هي الشيخُ أرسانيوس، إضافةً إلى الإرثِ الثمينِ الذي ورثناه بشأنِ ترتيبِ السهرانيّةِ والنصائحِ الأبويّةِ الأخيرة. وقد أعطى البركة، أن يبقى كلٌّ من أبنائه، بعدَ موته، في القلاّيةِ نفسِها، حتّى يستطيعَ كلُّ واحدٍ فيما بعدُ أن يؤسّسَ أخويّتَهُ الخاصّة.

في تلك القلاّياتِ الصغيرةِ التابعةِ للإسقيطِ الجديد، صارت العجنةُ الأولى التي ما تزالُ حتّى يومِنا الحاضر. وهكذا انتشرت العجنة، وامتدَّتْ إلى القلاّياتِ الروسيّةِ الكبيرة: البورازيري والقدّيس

أرتيميوس الراعي. وفيما بعدُ أَخذَت هذه القلّايةُ الصغيرة تنتشرُ فاستقبلَتْها أديرةُ الجبلِ المقدّسِ الكبيرةُ الشريفةُ، فاتحةً لها أحضانها. وعلى هذا النحوِ ملأَ أبناءُ الصحراء أديرةَ الفيلوثيو، والذيونيسيو والقاتوبيذي. في هذهِ الأديرةِ غُرسَت الفضيلةُ مع صلاةِ الشيخِ يوسف القدّيس، وزُرِعَ النَفَسُ الهدوئيُّ دومًا على أساسِ الأمانة: «في الطاعة، والصلاةِ غيرِ المنقطعة، والسهرانيّة، ومحاربةِ الأفكار...».

هنا أفترضُ من الضروريّ أن أُذكّرَ جميعَنا، نحنُ الأحفادَ الروحيّين لهذَين المجاهدَين الكبيرَين، بما كان يقوله لنا الأب أرسانيوس باستمرار: «**انتبهوا إلى القانونِ الذي تسلَّمتموه. نحن مع الشيخِ بذلنا دمًا لكي نقدّمهُ لكم جاهزًا، أنتم عليكم فقط أن تحافظوا عليه**».

وإذا أردنا أن نفتخرَ كأحفادٍ لهذَين الجدَّين، فَعَلَيْنا أن نطيعَ ونطبّقَ كلَّ ما علّمانا إيّاه.

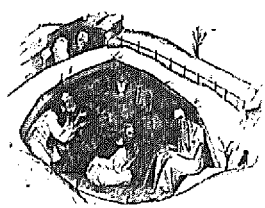

الفصل السادس

في قلاّيةِ البورازيري

الانتقالُ من الإسقيطِ الجديدِ إلى القلاّياتِ الروسيّةِ الكبيرة: البورازيري[٢٧] والقدّيس أرتيميوس الراعي ١٩٦٧

كما ذكرتُ سابقًا، بعدَ رقادِ الشيخِ الكبيرِ البارّ، توجَّهَ كلُّ واحدٍ من أبنائهِ إلى قلاّيتهِ الخاصّة، مُزاولًا النظامَ الهدوئيَّ بحسبِ تقليدِ الشيخ.

ولكن لم تتأخّرْ أن تنتشرَ شُهرةُ هؤلاء الآباءِ الهدوئيّين في

(٢٧) البورازيري: مبنى ديريّ يوناني قديم شُيِّد على اسم القدّيس نيقولاوس. في أواسط القرن الثامن عشر ابتاعه الروس. هؤلاء أطلقوا عليه إسم «بيلاييا تسركوف» أي الكنيسة البيضاء وقد حوَّلت الكلمة في الزمن مع اليونانيين لتصير إلى التسمية المتعارف عليها اليوم «البورازيري».

هذه المنطقة. فعلى الفور، دَعَتْهم الأديرةُ المجاورة، دير القدّيس بولس والذيونيسيو، كآباءٍ روحيّين، أوّلًا الأبُ أفرام، وثانيًا الأبُ خارالمبوس، من أجلِ «التقييم الروحيّ». وكما كان يقولُ الأرشمندريتُ غفرئيلُ الحكيمُ الدائمُ الذكر، رئيسُ دير الذيونيسيو الشريف، ويعترفُ بتواضع: «نحن كنّا نهدرُ وقتنا ونتلفُه في شؤونِ الديرِ الإداريّة».

وكان هناك إخوةٌ كثيرونَ يتهافتون إلى الإسقيطِ الجديدِ للاعتراف. هؤلاءِ قرّروا أن يتوحَّدوا إلى جانبِ مرشديهم الروحيّين. ونتيجةً لذلك لم يتأخروا في أن يملأوا هذه القلّاياتِ الصغيرة. وهكذا اضطرّوا أن يوسّعوها لكيَ تَتَّسِعَ للشبّان الوافدين، ويتيحوا الفرصةَ لآخرين أن يأتوا فيما بعد. إبّانَ ذلك، فكَّرَ الراهبان الكاهنان فيما يكونُ العمل، فقررا الانتقالَ إلى أماكنَ أوسع.

وكان من المعروفِ أنّهُ توجدُ قلّاياتٌ روسيّة كبيرة منتشرةٌ في جوارِ دير الفيلوثيو وقلّاية القديس أرتيميوس الراعي وقلّاية البورازيري في كارياس.

حينذاك دعا الأبُ خارالمبوس أحدَ الإخوة، (الذي انتقل إلى الأخدارِ السماويّة)، وأنا الوضيعَ، وأرسلنا إلى ديرِ الفيلوثيو

الشريف للبحثِ عن القلاّياتِ المجاورةِ له. وعند مرورنا بقلاّيةِ الأبِ أرسانيوس لأخذِ البركة، وقبل أن نتفوّهَ بكلمةٍ قال لنا:

- لا تذهبوا إلى ديرِ الفيلوثيو، فنحن سنذهب إلى البورازيري.

- وكيف تعرفُ هذا يا أبانا؟

- لقد أظهرَتْهُ لي الفائقةُ القداسة في الصلاة.

وراحَ يصفُ بالتفصيلِ المباني والمتوحّدَ الروسيَّ الذي هناك. إذذاك سألتُه:

- أهيَ مشيئةُ سيّدتنا الفائقة القداسة أن نغادرَ من هنا؟

- عرفتُ من بضعةِ أيّامٍ أنّنا سنغادر. قبلَ بضعةِ ليالٍ، رأيتُ أثناءَ النومِ الشيخَ، وكان يشرفُ كمتعهّدٍ على المباني الكبيرة، فسألته: «لمن تكون هذه، أيّها الشيخ؟». قال لي: «هي لنا». هيا اذهبوا إلى القلاّياتِ في ديرِ الفيلوثيو لكي ترَوا، لكن اعلموا أنّنا سنذهبُ إلى قلاّيةِ البورازيري.

صعدنا إلى كارياس، وذهبنا أوّلًا إلى البورازيري. وبالفعلِ وجدناه على نحوِ ما وصفهُ لنا الأبُ أرسانيوس، ولكنّ الروسيَّ الذي هناك لم يكنْ يقبلُ أيَّ نقاشٍ في موضوعِ الشركةِ مع اليونانيّين.

بعد ذلك ذهبنا إلى ديرِ الفيلوثيو ووجدنا قلاّياتٍ كبيرة، لكنّها خربة. آباءُ الديرِ آنذاك ذوي النظامِ الفرديّ، وبكثيرٍ من اللطف، أبدوا رغبةً جامحةً بالتخلّي لنا عنها، لكنّنا وجدناها غيرَ مناسبة.

وفي طريقِ العودة، كنّا نقول: «إنّ البورازيري جيّد، ولكن كيف عسانا نُقنِعُ الروسيَّ ليَقبلَنا؟». لقد وجدنا الحلّ. فبما أنّ الأبَ خارالمبوس الشيخ، قد وُلدَ في روسيا ويعرفُ اللغةَ الروسيّة، فقد كان هو المفاوضَ المناسب، ولكنّه بعد الاتّصالِ الأوّلِ رجعَ دون أن يحصلَ على النتيجة المرجوّة.

وفي اليومِ التالي، ناداهُ الأبُ أرسانيوس وقال له:

«غدًا، تذهبُ إلى البورازيري؛ فأمسِ عاينْتُ سيّدتنا الفائقة القداسة والروسيَّ يتذمّر. فالفائقةُ القداسة تهتمُّ بأمرهِ وتجعلهُ لك مثلَ نعجة».

اطمأنَّ الشيخُ خارالمبوس لِما قاله الشيخُ أرسانيوس، وذهبَ من ثَمّ إلى البورازيري. هناك بحثَ عن الروسيّ فلم يعثرْ عليه في أيّ مكان. فرأى بابًا مفتوحًا، وبداعي الفضولِ تطلّعَ إلى الداخل؛ فإذا هي كنيسةُ الحمايةِ القدّوسة، وكان الشيخُ الروسيُّ في الداخلِ.

عندما لاحَظَه هذا الأخير، استحوذَ عليه غضبٌ وحشيٌّ وركض حاملًا بيده عصًا ليضربَه.

ولكنّه ما إن اقتربَ منه حتّى غيّرَ نيّتهُ فجأةً؛ فرمى العصا، وحضنَ الشيخ، وبدأ يقول: «أنت إنسانٌ صالح، غدًا تجلبُ كلَّ الرهبانِ إلى هنا». أصعدَهُ إلى فوق ليريَهُ المبنى قائلًا: «هذا يكفيني، كلُّ المباني الأخرى هي ملكٌ لكم».

وبما أنّ كلَّ شيءٍ قد تمَّ على ما يرام، ففي غضونِ أيّامٍ قليلة، انتقلتْ أخويّتنا الصغيرةُ إلى القلاّيةِ الكبيرةِ التابعةِ لديرِ الخيلندار. وفي نفسِ الفترةِ تقريبًا انتقلتْ أخويَّةُ الأبِ أفرام إلى قلاّيةِ القدّيس أرتيميوس الراعي الكبيرة.

***

وفي هذه الفترة، غابَ الأبُ يوسف، الموجودُ الآن في دير القاتوبيذي، وذهبَ إلى العالمِ لإتمامِ رسالةٍ رسميّة. وعند عودتهِ بقيَ في الإسقيطِ الجديد، ولكنَّهُ ما لبثَ أن غادرَ قلاّيتهُ الصغيرة، التي لم تكنْ فيها كنيسة، إلى قلاّيةِ البشارة. ثمَّ تركَها منتقلاً إلى أخويّة الأبِ أفرامَ التي في منسكِ القدّيس أرتيميوس الراعي.

من قلاّيةِ البشارةِ الصغيرة هذه، دبَّرتْ سيدتنا والدةُ الإله

أن يؤسِّسَ الاثنان، في عيد البشارة، الديرَين الشريفَين المقدَّسَين، الفيلوثيو والفاتوبيذي. وأمّا من قلاّيةِ ميلادِ السابقِ الصغيرة، فقد دبَّرتْ أن يتأسَّسَ ديرُ الذيونيسيو، الذي هو على اسمِ ميلادِ السابقِ الكريم.

يجب أن أذكرَ هنا، أنّ الأبَ أرسانيوس كان شيخًا بسيطًا وحسنَ النية، وأشدِّدُ على حُسْنِ النيّة، لأني، صدِّقوني، عشتُ بقربه ثمانيةَ عشرَ عامًا، ولم أرَهُ يومًا غاضبًا أو ثائرًا. أَذكُر مرّة أنّ نبرةَ صوتِهِ قد عَلَتْ اضطراريًّا، مُعترِضًا على راهبٍ أصرَّ على إتمامِ عملٍ ما بشكلٍ مخالف. ولكنَّ الأبَ أرسانيوس سبقَ فرأى في الصلاةِ أنّه إنْ هو تساهلَ مع هذا الراهبِ فسيحصلُ سوءٌ، لذلك وبلهجةٍ حادّةٍ شدَّد: «ستُطيع؛ وهكذا سيصير...» وبالفعلِ ظهرَ أنّه كان على حقّ.

أحلامُ الشيخ

أعتقدُ أنّه من الضروريّ أن نقولَ بضعَ كلماتٍ لتبيانِ أحلامِ الشيخ.

الحلمُ العاديُّ شيءٌ، والرّؤيا التي يراها المجاهدُون شيءٌ

آخر. عادةً في الصلاةِ في ساعةِ تعبٍ فائقٍ؛ يستحوذُ عليهم شيءٌ حيّ، لدرجةٍ لا يعرفُ فيها المجاهدُ إنْ كان نائمًا أم لا.

شيءٌ مماثلٌ نصادفُهُ في أعمالِ الرسلِ حيثُ أنَّ قائدَ المائةِ كورنيليوس، «كان يطلبُ إلى اللّه دائمًا، رأى في رؤيا بوضوح... ملاكًا» (أع ١٠: ٢-٣).

كذلك بنفسِ الطريقة، كان الأبُ بتضرُّعِهِ المستمرِّ إلى اللّه يرى بكثرةٍ «في رؤيا» أشياءَ فوقَ الطبيعة؛ ولكنّه بشكلٍ خاص، وباستمرار، كان يرى الشيخَ رفيقَهُ في الجهاد، الذي بعدَ موته، كان يفتقدُهُ ويحفظُهُ من السقطاتِ والفخاخ. وبرهانًا على ذلك أَعرضُ مثلًا:

مع أنّه كانَ سهلاً للغاية، من جرّاء لطفِهِ الكثيرِ وبساطته، يعطي البركةَ لمن يطلبُ منه الإذنَ بشأنِ أمرٍ ما، ويصلّي من أجله. ولكن يا للغرابة، أذكرُ أنّه بقيَ ذاتَ مرّة، مُصرًّا على أن يُحزنَ أحدَ الإخوة. وعندما سُئِل لماذا ظهرَ قاسيًا لهذه الدرجة، أجاب: **«أمسِ جاءَ الشيخُ وقال لي: انتبه يا أرسانيوس، لا تحملْ أعباءً غريبة...، غدًا سيأتي (فلان)، لا تعطِهِ بركة».**

أمّا فيما يختصُّ بالأحلامِ الاعتياديّة، فكان الأبُ يرى الشيخَ

باستمرارٍ وكان يفسّرُ ذلك كشيءٍ طبيعيّ: «عشنا حياةً بدون انفصال. الأحلامُ هي مستودع؛ فكلُّ ما تضعهُ تأخذهُ. إذا كنت لصًّا، ففي النومِ ستسرق. وإذا كنت زانيًا، أو بخيلًا .... هذه كلُّها ستراها. وإذا كنت مجاهدًا، فستصلّي في نومكَ أيضًا. بالطبع هذه الصلاةُ تعطي قوّةً كبيرةً وحلاوةً في النهار».

كان يقولُ أيضًا: «انتبهوا من أن تعطوا استحقاقاتٍ للشيطانِ (بسببِ الخطايا يصبحُ للشيطانِ حقٌّ علينا). فإنَّ التجربةَ تستغلُّكم في النومِ قبلَ كلِّ شيء».

هكذا إذًا، على الرّغمِ من بساطةِ الشيخِ الكلّيّة، فإنَّهُ بالنعمةِ الإلهيّةِ وبخبرتهِ الطويلةِ السنين، كان يميّزُ بين ما هو من اللّه وما هو طبيعيّ، وكذلك أيضًا ما هو من الشياطين.

الأبُ ينزلُ إلى قلّايةِ البورازيري
المحطةُ الأولى «القديس أرتيميوس الراعي»

غادرَ الأبُ أرسانيوس الإسقيطَ الجديدَ مع أخويّةِ الأبِ أفرامَ المجاورة. وللتنقُّل، كان لا بدَّ من استخدامِ «كاستاني»، أحدِ بغلَيِ الأخويّةِ الجميلَين. وقد روى لنا هذهِ الحادثةَ سائسُ البغال،

الراهبُ أرسانيوس، العاملُ الذي لا يعرف الكَلَلَ، والمُحَبَّبُ إلى قلبِ الجميع، قال:

«تعِبَ الشيخُ كثيرًا لأنَّهُ لم يكنْ معتادًا أن يركبَ على البغل، وعلى الأكثر تعبَ من كثرةِ التأرجحات، حتى إنَّهُ ترجَّاني كثيرًا لأُنزِلَه. لكنّي لم أكنْ قادرًا أن أُصعِدَهُ ثانيةً لوحدي، لذلك رحتُ أُشجِّعُه: «هيَّا يا أبانا وصلْنا، هيَّا لقد وصلْنا». ولكن استغرقَ الطريقُ أربعَ ساعات.

أخيرًا قالَ الأبُ بتوجُّع:

آخ، أيّها المبارك، ماذا فعلتَ بي! لقد قطَّعتَني وأتلفتَني. لقد انحلَّتْ كلُّ أعضائي. ربَّما لنْ أستطيعَ الوقوفَ على قدميَّ من جديد.

وعندما وصلْنا أخيرًا، أنزلْنا الأبَ عن البغلِ وأخذناه ووضعناه على السرير. والواقع، أنّنا خِفْنا على الأب أن يبقى مشلولاً طريحَ الفِراش. والأمرُ المستغرب، أنّه في صباحِ اليومِ التالي، أخذَ يتجوّلُ على قلّاياتنا الجديدةِ وعكّازُه في يدِه، تيك-تاك، وكأنَّ شيئًا لم يحصلْ في الأمس.

هذه الحادثةُ كانت بالنسبةِ لنا عجيبةً أخرى. فبُنْيَةُ الأبِ

الجسديّةُ كانت قد شاخت، لأنّهُ تخطّى الثمانينَ من العمر».

وخلالَ أيّامٍ قليلةٍ رحلتِ الأخويّةُ من الإسقيطِ الجديد. وبعدَ أن باركَ الأبُ قلّايةَ الراعي الجديدةَ والشيخَ مع أخويّتِه، غادرَ، لنلتقيَ مجدّدًا في قلّايةِ البورازيري الكبيرةِ والهادئة، التابعةِ لديرِ الخيلاندار الشريف.

موتُ الروسيّ - كلبُ باسيليوس الكذّاب

لقد ذكرتُ سابقًا، أنّ الروسيَّ، الشّماسَ يوانيكيوس، حجزَ لنفسهِ المبنى حيثُ توجدُ المائدةُ الكبيرة.

ولكن بالإضافةِ إلى الشمّاسِ الروسيّ، وُجد أيضًا ثمانيةُ أشخاصٍ علمانيّين آخرين، المدعوّين كافيوتس «Kaviotes»[٢٨]، ساكنين بأجرةٍ رمزيّة، دراهما واحدةً في الشهرِ، الذين، بالطبع، كانوا يعيقونَ برنامجَ أخويّتنا الهدوئيّ.

لسوءِ الحظّ أنّ الأبَ يوانيكيوس كان يحبُّهم ويريدهم. وهذا

---

(٢٨) كافيوتس Καβιῶτες: مجموعةٌ من العلمانيين يسكنون جبل آثوس يتطلعون إلى الحياة الرهبانية. ويمتازون بعدم القنية وينذرون الفقر المدقع ويُدعَون "الفقراء". هم أشخاص هدوئيون وأتقياء يسكنون في البيوت التابعة لأحد الأديار أو في البساتين ويدفعون أجرًا. ويرفضون تقبّل التقدمات. ومنهم من يعملون لسدّ حاجاتهم الضرورية.

الأمرُ خلقَ لنا بعضَ المشاكل، لأنَّ هؤلاءِ الأشخاصَ كانوا يعيقونَ برنامجنا الهدوئيّ. ولم تكنْ في اليدِ حيلة، إذ هو كرئيسٍ للقلاّية، كان مقتنعًا بضرورةِ وجودهم.

نحن، كمبتدئين، اضطربْنا وانزعجْنا من أفكارٍ مُشكِّكة. فالشيخُ الروسيّ كان متقدِّمًا في السنّ، إلا أنّه كان قويًّا ويعملُ كشابّ.

الوحيدُ الذي كان مسالمًا وهادئًا هو الأبُ أرسانيوس. ذاتَ يومٍ تجرَّأتُ وقلتُ له: «أيّها الشيخُ ماذا سيحدثُ مع هذا الشيخِ الروسيّ؟». فأجابَ الأبُ ببساطةٍ وهدوء: «**يا بنيّ، هذا الشيخُ لن تطولَ سِنُوه أكثر، صدِّقني**».

أخذتُ بركتهُ وغادرتُ إلى خدمتي، متفكِّرًا، أنّ الأبَ المسكينَ يعزّينا. ولكنّ ما عاينهُ مسبقًا كُتِبَ بالحروف.

وفي يومٍ غيرِ متوقَّع، غادرَنا هذا الشيخُ الطيّبُ إلى السماوات، آخذًا معهُ أجرتَه بكلِّ تأكيد، إذ إنّه أعطانا من دونِ مقابل، هذه القلاّيةَ الكبيرةَ كَوَرَثَةٍ شرعيّين.

فالأبُ أرسانيوس، عندما جعلَ أوّلَ أخٍ راهبًا في البورازيري، سمّاهُ يوانيكيوس اعترافًا بالجميلِ للشيخِ الروسيّ الطيّب. وقد شغلَ

هذا الراهبُ فيما بعد، كعضوٍ مهمٍّ في ديرِ الذيونيسيّو، منصبَ رئيسِ الجبلِ المقدَّسِ لعدّة مرّات.

وها هي المياهُ تأخذُ مجراها. فبعدَ فترةٍ قصيرةٍ استدعى الشيخُ جماعةَ الـ«كاڤيوتس» وأعطاهُم مبلغًا لا بأس به، وطلب إليهم أن يتدبَّروا أمرهم في مكانٍ آخر. وهذا ما حصلَ بالفعل. فيما بعدُ مكثَ الأغلبيّةُ في «ليوندارِيا» كما اعتادوا أن يدعوا قلاّيةَ القدّيسِ إغناطيوسَ الكبيرةَ التابعةَ لديرِ الخيلندار.

كان الـ«كاڤيوتس» في البورازيري يقيمونَ في المبنى العلويّ. حالما أفرغوه، انتقلَ إليهِ حالًا بعضُ الآباءِ من محبّي الهدوء، ومن بينهم الشيخ، لأنّه كان أكثرَ هدوءًا. وكان يوجدُ نحوَ الشرقِ مكانٌ واسعٌ ومناسبٌ للسهرانيّات الصيفيّة، إلاّ أنَّ نباحَ كلبٍ كان يُفسدُ علينا بهجتَها. هذا كان ينبحُ كلَّ الليلِ دونَ توقّف. سألْنا الجيرانَ لمن يكونُ هذا الكلبُ المتوحّشُ، فقالوا لنا إنّه لباسيليوسَ الكذّاب. فتّشِ الآن لتعرفَ من هو باسيليوس الكذّاب!

أخيرًا علمنا أنّه كان راهبًا، وبالطبعِ إنّه شيخُ القلاّيةِ المجاورة، قلاّيةِ القدّيس كيريكُس. كان اسمُهُ الراهبَ باسيليوس. وفيما بعد، لا أعرفُ كيف ألصقوا به هذا اللقب.

الآن، ما الذي سيحدثُ مع كلبِ باسيليوسَ الكذّابِ وكثرة التشكّيات للشيخ؟ وكانَ الشيخُ أيضًا منزعجًا بما يكفي: «**آمان، أيّها الآباء، أفسدَ علينا هدوءَنا الليلَ بطوله، ولكن لا تضطربوا، سيحدثُ في الليلة المقبلة شيءٌ ما**».

يا لَلعجب! مضتِ الليلتان الثانية والثالثة دونَ أيِّ صوتٍ للكلب. ماذا حدَثَ مع الكلب؟ نادانا الأبُ وقال لنا: «**لحسن الحظ هدَأنا؛ ترجَّيتُ سيّدتنا الفائقة القداسة فأغلقتْ له فمَهُ!**».

منذُ ذلكَ الحين، استرَحْنا من الكلبِ بتدخّلِ الأبِ العجائبيّ. وذاتَ يومٍ، سُمع في أحدِ المحلات في كارياس أنّ الشيخَ باسيليوسَ (باسيليوس الكذاب) يتشكّى: «حدثَ شيءٌ ما لِكَلْبِي الهادئ، فصارَ أبكمًا».

وهذه إشارةٌ أخرى إلى جُرأةِ الشيخِ ودالّتِه لدى والدةِ الإله.

الأبُ والبراغيث

أخيرًا، استرَحْنا من الكلب. ولكن ماذا لدينا الآن؟ البراغيث. فكلُّ القلّاياتِ ممتلئةٌ بالبراغيث! ما العمل؟ ليسَ أمامَنا سوى

الرَّشّ.

مرَرْنا بقلاّيةِ الأب، فرأى بيَدِنا آلةَ الرَّشّ.

- **ماذا تفعلونَ بهذه هنا؟** (مشيرًا إلى الآلة).

- جئنا لنُبيدَ البراغيثَ أيّها الشيخ.

- **أبيدوها في مكانٍ آخرَ، فأنا لستُ بحاجة.**

- ولكنّها ستأكلُك أيّها الشيخ.

- **من قالَ لكم إنَّ البراغيثَ ستأكلُني، فإذا قرصَتني ستموت.**

نحنُ بالطبعِ صرَفْنا النظرَ عن الموضوعِ واعتبرْناه مُزاحًا، ولكن يبدو أنَّ الشيخَ كان يتكلَّمُ بكلِّ جدّية. الجميعُ انزعجوا من البراغيثِ ما عدا الأب.

السجودُ للعذراءِ البوّابة، الأبُ الروحيُّ مكسيموس وابنُه الروحيُّ الراهبُ نكتاريوس

بعدما استقرَّيْنا في مسكننا الجديد، قرَّرَ الأبُ، لكثرةِ شوقِهِ المتواصلِ إلى والدةِ الإله، أن ينزلَ إلى ديرِ إيفيرون الشَّريف، حيثُ تُحفظُ إيقونةُ السيّدة المعروفة بـ«البوّابة». رافقْناه للسجود،

حقارَتِي والمبتدئُ ألكسندروس آنذاك الذي صارَ اسمُهُ الراهبَ يوانيكيوس فيما بعد. سجدَ الأبُ لإيقونةِ الفائقةِ القداسةِ الإلهيّة أوّلاً، والدمعُ ينهمرُ من عينَيهِ لكثرةِ شوقِهِ الحارِّ لوالدة الإله. ثمّ سجدْنا نحنُ الإثنين.

وشاءت الصُّدفُ أنَّهُ كان يخدمُ هناكَ الأبُ الروحيُّ مكسيموس الكلّيُّ الورع، لمدّةِ أكثرِ من عشْرِ سنوات. وحالما التقى الشيخان سُرعانَ ما عَرَفا أنّهما مواطنان، إذ كلاهُما يتحدَّرُ من البنطس الممجَّدة.

استقبَلَنا الأبُ الروحيُّ الدائمُ الذّكر في مضافةِ الديرِ بمحبَّةٍ كبيرة. وهناك راحَ يخدمُنا راهبٌ طاعنٌ في السنِّ لا يعرفُ التّعب، برغبةٍ ولطافةٍ لا مثيلَ لهما. ولم يُخْفِ عنّا الأبُ الروحيُّ فضيلةَ تلميذِهِ، فقال:

«هذا راهبي، فأنا من جعلَهُ راهبًا. وله مُضيفٌ زمانًا ليس بقليل. ترَون كم من الزوّار يأتي إلى ديرنا كلَّ يوم. لمْ يَسْتَأ البتّةَ ولم يطردْ أحدًا يومًا، حتّى ولو بلغَ عددُ الزوّارِ المئتين في اليوم.

هو يفرشُ لهم بمفردِه تقريبًا ثمّ يجمعُ الأغطية، ويطعمُهم ويسقيهم. وهذا كلُّهُ ليس فقط من مالِ الدَّيرِ بل من المالِ القليلِ

الذي كانَ يستحقُّهُ كأجرٍ كي يضمنَ حقَّهُ. قبلَ قليل، طلبَ بعضُ الزوّارِ الألمانِ أن يأكلوا بطّيخًا، فركضَ إلى البابِ وابتاعَ لهم البطيخَ بماله الخاص، ليأكلوا».

تعجّبتُ كثيرًا عند سماعي مقدارَ رغبةِ هذا الراهب. ولكنْ خطرَ ببالي سؤالٌ، فقلتُ للأبِ الروحيّ:

- أيّها الشيخ، أتعجّبُ لحماسِ الراهبِ نكتاريوس. ولكنّنا رهبان. متى يمكنُهُ أن يتمّمَ واجباته الروحيّة؟

- جيّدٌ أنّكَ سألتَني هذا السؤال. أؤكّدُ لكَ أنّهُ لا يُهمِلُ شيئًا من واجباتِه الروحيّةِ، وهو أوّلُ من يحضرُ إلى الخدمِ الكنسيّة. وبما أنّ الآباءَ الآخرين كانوا يرَون مقدارَ التعبِ الذي يبذله، مرّاتٍ كثيرةً يقولون له: «أيّها الأبُ نكتاريوس، استرحْ قليلاً، ليس من الضروريّ أن تكونَ أوّلَ من يحضرُ إلى الخدم». ولكنّهُ لم يسمعْ لهم البتّة. وهو على الدوام يقسو على نفسِه ولا يتساهل معها. كان يرى، كما كانَ يقولُ لي، العذراءَ البوّابة تمدُّه بالقوّةِ وتريحُه نفسيًّا وجسديًّا. وقليلٌ من النومِ على مقعدِهِ الخشبيّ كانَ كافيًا بالنسبةِ له.

ولكنّ لطفَ الأبِ مكسيموس وابنِهِ الروحيّ ورحمتَهما، لم

يتوقفا عندَ هذا الحدّ. فممَّا كانَ يخبرُني بهِ الشيوخُ الفقراءُ الذين يعيشون في منطقةِ كابسالا، أنّ كلا الإثنين كانا يجولان على قلّاياتهم باستمرارٍ ويزوّدونهم بكلِّ ما يحتاجون إليه.

غادرْنا ديرَ الإيڤيرون آخذين نعمةً وافرةً من سيّدتنا والدةِ الإله، العذراءِ البوّابة، ومستفيدين كثيرًا من اللآلئ الثمينةِ التي اكتشفناها.

منذ ذلك الحين، خدمتُ أنا الحقيرَ وكذلك الراهبُ المبتدئُ لسنواتٍ طويلةٍ خدمةَ المضيفِ في قلّاية البورازيري وفي دير الذيونيسيّو الشريف. وكان مثالُ هذا الراهبِ البسيطِ والفاضلِ ذي النمطِ الفرديِّ نُصْبَ أعْيُننا دائمًا مقوّيًا لنا. وعلى الرّغمِ من ضيقِ المكانِ في ديرِنا، لم نمتنعْ عن استضافةِ أيِّ زائرٍ لمدَّةِ أربعٍ وعشرين ساعة.

جهادات الشيخ الأخيرة

حدَّدَ الشيخُ برنامجَ السهرانيّةِ اليوميّةِ على الشكلِ التالي: أوّلًا يصلّي كلُّ واحدٍ بمفردهِ من خمسٍ إلى ستّ ساعات؛ وإلى هذه الساعة يكونُ كلُّ راهبٍ قد أنجزَ قانونَهُ الرهبانيَّ الخاصّ، الذي

يتضمّنُ من ١٥٠ إلى ٣٠٠ مطانيّة، وأربعَ مسابح ذات الثلاثمائة حبّة مع الصليب[٢٩]. كانت السهرانيّةُ تنتهي بالخدمةِ المشتركةِ التي تستغرقُ ساعتَين ونصف من الوقت، وتُختمُ بالذبيحةِ الإلهيّةِ اليوميّة.

عندما انتقلنا إلى البورازيري، كان عمرُ الأبِ أرسانيوس يناهزُ الخامسة والثمانين. وكان يقول، إنّهُ على الرغم من هذا الجهادِ القاسي لم يمرضْ أبدًا ولم يتناولْ ولا حبّةَ دواءٍ واحدة، لكنّ جسمَهُ قد ثقلَ لدرجةِ أنّهُ عندما يركع، لا يعودُ قادرًا على النهوضِ لوحده. ولكنْ، كيف سيتدبرُ أمرَ عادتهِ الحسنةِ في السجود؟ وكان يقولُ لنا باستمرار، إنّ الأنبا اسحقَ يقول في كتابِ النسكيّات، «من يريدُ أن يخلصَ فليتحرّك»[٣٠].

فماذا ابتكرَ الأبُ كآليّةٍ للحركة؟ كان يعملُ المطانيّات منحنيًا إلى سريرِهِ. من هناك بمقدورِهِ أن ينهض؛ ولكنّهُ كان يقول: «**إلى هنا نصفُ مطانيّة، لذلك سأضاعفُ عددها وهكذا نتعادل**».

وبالنسبةِ للصلاة، كان دائمًا يصلّي واقفًا أو راكعًا على قدرِ استطاعته. لكنّه عندما شاخَ وصارتْ قدماهُ تُزْعِجانِهِ، بدأَ يُغيّرُ

(٢٩) على كل حبة من المسبحة المؤلّفة من ثلاثمائة حبة، يرسم الراهب إشارة الصليب ويصلي "يا ربي يسوع المسيح ارحمني"

(٣٠) يقصد بذلك المطانيّات

الوضعيّة، مُصلّيًا أحيانًا واقفًا وأخرى جالسًا.

وكان يقولُ لنا: «**قفوا في الصلاةِ ما دامت أرجلُكم بحالةٍ جيّدة، إن أردتمْ أن تحصلوا على الثمر**». وكان الأبُ على حقّ، لأنّه تذوّقَ من جراء الخبرةِ حلاوةَ ثمارِ الروحِ القدسِ في أتعابِ السهرانيّات الكبيرة.

كان يقولُ لنا : «**إنّي في عمرِ الخمسين، كنت أشرعُ في الصلاة واقفًا، لوقتٍ قليل، فتشملُني النعمةُ الإلهيّة. وكنتُ أنسَى أنّي واقفٌ وعندما أشعرُ بالتعب، أنظرُ؛ فإذا بها قد انقضتْ ثلاثُ ساعات**».

كانت العذوبةُ والفرحُ وسلامُ النفْسِ تقوّي جسدَ الأبِ الضعيف.

مع الشيخِ بايسيوسَ الناسك

خلال العام ١٩٦٨، إن لم تخنّي ذاكرتي، تحوَّلَ ديرُ ستافرونيكيتا الشريف إلى ديرٍ للشركة، وكان وقتئذٍ من بينِ الأديارِ ذاتِ الطابعِ الفرديِّ في الجبلِ المقدّس، على يدَي الأبِ باسيليوس، الرئيسِ الأوّلِ لهذا الدير. ثم انتقلَ فيما بعدُ ليصيرَ أيضًا أوّلَ رئيسٍ

لديرِ إيفيرون الشريف.

كان الأبُ باسيليوس يُعتبرُ عضوًا في أخويّةِ الشيخِ باييسيوس، المؤلّفة من عدّةِ رهبانٍ جاهدوا كلٌّ بمفرده، تحتَ إشرافِ هذا الناسكِ الكبيرِ المبارك.

عندما تأسّست شركةُ دير ستافرونيكيتا الشريف، تمنّى الأبُ الرئيسُ باسيليوس على الأبِ باييسيوس أن يبقى في الديرِ بهدفِ تشديدِ الأخويّةِ المشتركة المنشأةِ حديثًا.

وبتدبيرِ النعمةِ الإلهيّةِ مرِضَ في تلكَ الفترةِ الناسكُ الروسيُّ الكبيرُ والأبُ الروحيُّ تيخن، المتنسّكُ في قلّاية الصليبِ الكريم التابعةِ لديرِ ستافرونيكيتا. وكانَ على الأبِ باييسيوسَ أن يحافظَ على الامتيازِ بأن يعتنيَ هو شخصيًّا بالأبِ تيخن في آخرِ أيّامِ حياتهِ ويغلقَ له عينيه.

بعدَ رقادِ الناسكِ البارِّ العظيمِ المذكورِ أعلاه، عقبَهُ على القلّايةِ وريثُهُ الشّرعيّ ابنُهُ الروحيُّ الناسكُ باييسيوس. ومنذ ذلك الحينِ صارَ لنا مع هذا الشيخِ القدّيسِ الدائمِ الذكرِ جيرةٌ طيّبةٌ جدًّا. وغالبًا ما كان يشتركُ معنا في الخدمِ الليليّةِ وسرِّ الشكرِ الإلهيّ. أحيانًا، كان بداعي المحبّةِ يجلسُ معنا إلى المائدة، وبتحريضٍ من

أبينا الروحيِّ خارالمبوس، كان يقولُ لنا، بوجلٍ، بعضَ النصائح، معتادًا أن يتفوَّهَ نحونا بتواضعٍ كلّيّ: «أنتم لستم بحاجة، فلديكم شيخان قدّيسان».

كان معتادًا أن يتكلّمَ مع كلا الشيخَين، كلَّ واحدٍ على حدة. وكان يقولُ إنّهُ استفادَ منهما كثيرًا. وبالمقابلِ كان الشيخُ خارالمبوس، مرّاتٍ كثيرة، يلجأُ إلى الشيخِ بايبسيوس في مواضيعَ صعبة، كما وإلى الأبِ أفرامَ الذي في كاتوناكيا وأفرامَ الذي في دير الفيلوثيو، بتحريضٍ من الشيخِ أرسانيوس، الذي كان يستشيرُ الآخرين دائمًا.

كان أبي الروحيُّ خارالمبوس يعترف: «ما من مرّةٍ استشرتُ الشيخَ أرسانيوس وعُدتُ خائبًا». وهنا أيضًا يظهرُ تواضعُ الشيخِ الكبير. فقد كان يرسلُ الشيخَ خارالمبوس إلى الشيوخِ المذكورين آنفًا للاستشارةِ على أنَّهم أخبرُ منه.

* * *

يوردُ كتابُ «آباء الجبلِ المقدّس» حوارًا صغيرًا للأبِ بايبسيوس مع الأبِ أرسانيوس. يتساءلُ الأبُ أرسانيوسُ ببساطةٍ عن الموضوع التالي:

« عندما أصلّي المسبحةَ واقفًا، أشعرُ بطيبٍ إلهيٍّ قويّ، وعندما أتلوها جالسًا، أشعرُ بالطيبِ أقلّ.

على الرّغم من أنّ الشيخَ كانَ آنئذٍ في الخامسةِ والتّسعين من العمر، فقد كان يجاهدُ باستمرارٍ بتفانٍ ويغتَني روحيًّا باستمرار، رغم كلِّ مدَّخراتهِ الروحيّة». (آباء الجبل المقدس، ص ١٣٠)

انذهلَ الشيخُ باييسيوسَ كثيرًا، لأنّ طيبَ الصلاةِ يفترضُ قلبًا نقيًّا، يتعطّرُ بحضورِ الروحِ القدس الساكنِ فيه. مذّاك فضّلَ هذا المجاهدُ الكبيرُ أن يبقى متعجّبًا وتركَ الشيخَ يحلُّ تساؤله لوحدِهِ. ومنذ ذلكَ الحينِ صارَ يقدّرُ الأبَ كثيرًا.

وثمّةَ تساؤلٌ آخرُ شخصيّ. نقرأُ أنّ كثيرًا من القدّيسينَ الكبارِ كالقدّيس أنطونيوس، وبفنوتيوس، وزوسيما إلخ. كلُّهم تحيّروا إن كان يوجدُ أعظمُ منهم. فهل من الممكنِ أن يكونَ قد وقعَ هذا الناسك المعاصر العظيم (أي باييسيوس) في هذا الفكر، فاستنار بما اعترفَ به أعلاه الشيخُ البسيط، ليحلَّ له تساؤله؟

***

ذاتَ يوم، كان الأبُ جالسًا مع الشيخِ باييسيوسَ على مقعدِ الحديقة، فسأله الشيخُ باييسيوس:

- أيّها الشيخُ أرسانيوس، أترى الشيخَ يوسفَ في نومِك؟

أجابه الشيخ ببساطة:

- **نعم أيّها الشيخ، أراه. فقبْلَ بضعةِ ليالٍ، رأيتُهُ بشكلٍ حيٍّ؛ جاءَ وعانقني وقال لي: «حتّى متى سنعيشُ منفصلَين؟ هيّا، تعالَ إليّ، إنّي أنتظرُك»؛ فأجبتُه: «وهل الأمرُ بِيَدي؟».**

كانت لي مع الشيخِ باييسيوس عدَّةُ أحاديثَ شخصيّة، تأكَّدتُ خلالها من التقديرِ الذي يكنُّهُ لأبينا الروحيِّ يوسف. كان يقولُ لي شخصيًّا: «آه، ماذا خسرتُ! فعندما جئتُ إلى الجبلِ المقدّسِ كان الشيخُ ما يزالُ على قيدِ الحياة؛ سمعتُ بشهرتِهِ وسألْتُ أحدَ معارفِه. فقال لي: «لا تسمعْ ما يقولون؛ كلُّها أكاذيب». صدَّقتهُ ولم أذهبْ لأتعرَّفَ إليه. ولكن عندما صدرتْ رسائلُهُ وقرأتُها، إذذاك أدركتُ كم كان شخصيّةً نادرةً وما قيمةُ الكنزِ الكبيرِ الذي أضعتُهُ».

بعضُ تعاليمِ الأب

لم يكنِ الأبُ يستلمُ الحديثَ أبدًا في الاجتماعاتِ المشتركة، ومع هذا كانت قلّايتهُ بمثابةِ قاعةٍ صغيرةٍ للتعليم، حيثُ يلجأُ العديدُ

من الإخوةِ ليتشدَّدوا ويطرحوا عليه أسئلةً مختلفة.

سأله أحدُ الإخوة:

- يا أبانا، أيجبُ أن نصلّيَ عندما نزاولُ أعمالَنا؟

- **بكلِّ تأكيد، فالصلاةُ يجبُ ألاَّ تتوقّف.**

- نحاولُ أن نقولَ الصلاةَ باستمرار، ولكنّ ذهننا يتشتَّت.

- **عندما نردِّدُ الصلاةَ باستمرارٍ وبقدرِ ما نستطيع، نُجهِدُ العقلَ لنفهمَ ما نقول. ولكي ينجحَ هذا يحتاجُ غَصْبًا كثيرًا. لكن عندما تعمل، قلْ بالفمِ باستمرار «أيّها الربُّ يسوع المسيح، ارحمني». وبكلِّ تأكيد، سيتشتّتُ الذهن؛ يتلهَّى بالعمل، يسافرُ هنا وهناك؛ ولكنّ الأذنَ تسمع، فلا بدَّ من أن يعلقَ شيءٌ ما؛ وشيئًا فشيئًا ستنزلُ إلى القلب. حتّى لو لم تفهمِ الصلاة، فالشيطانُ يفهمُ جيّدًا ويرتجفُ لمجرّدِ سماعِ اسمِ المسيح.**

البارحة، جاءني الطبّاخُ يقولُ لي: «باركْ، لقد احترقت طبختي». فأجبتُه: «أنا متأكّدٌ من أنّكَ فكّرتَ في داخلكَ بفكرٍ سيءٍ». «لا أذكرُ أيّها الشيخ». إذذاك قلت: «لا بدَّ أنّ ذهنكَ قد سَرَحَ في مكانٍ ما، والصلاة يوك».

- ولكن هل لهذه الأفكار السيّئة علاقةٌ بالطبخ؟

- **بالطبعِ لها ارتباطٌ كبير؛ انتبهْ لترى. ردِّدِ الصلاةَ بضعَ مرّاتٍ باستمرار، ولن تحترقَ الطبخةُ أبدًا، وسترى مدى جُودةِ الطعامِ الذي ستُعدُّه! لقد اعتادَ الشيخُ يوسف أن يطهوَ لنا. كنتُ أراقبُهُ طيلةَ وقتِ الطهي، فالدموعُ لم تكنْ تجفُّ من عينَيه. في تلكَ الساعة، أينَ كانَ ذهنهُ يا ترى؟ يا ليتكَ عرفتَ كمْ هي شهيّةٌ المآكلُ التي كان يُعِدُّها! وفي الأعيادِ الكبيرة كانت القلاّياتُ تستدعيهِ ليطهوَ لها.**

وعندما أنهى الشيخُ حديثهُ، التفتَ نحو الطبّاخ وقال له منبِّهًا: «**نعم، ولكنّ الشيخَ لم يكن يصلّي حتّى لا يحترقَ الطعام**». نحنُ ضحكنا بشكلٍ طبيعيّ؛ وكذلك الأبُ كان مبتهجًا.

غادرْنا مبتهجِين؛ وقد انطبعتْ أقوالُ الشيخِ في فكرِ الطبّاخ: «طوالَ الساعةِ التي كان يطبخُ فيها الشيخُ لم تكنْ عيناهُ تجفّان. أين يمكنُ أن يكونَ ذهنُه؟».

* * *

سأله أخٌ آخر:

- أيّها الأب، لقد اعتادَ كثيرٌ من الرهبانِ أن يقولوا المديحَ

بدلَ الصلاةِ القلبيّةِ عندما يعملون. فأيُّهما الأفضل؟

- آ! إنَّ سيّدتَنا الفائقةَ القداسةِ تحبُّ المديحَ كثيرًا. كنّا نقولهُ مع الشيخِ مرَّتين أو ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم. وههنا أملكُ كتيّبَ مديحٍ يذكرُ في مقدّمتهِ أنَّ سيّدتَنا الفائقةَ القداسةِ ظهرتْ لكثيرٍ من القدّيسين، ووعدتْهمْ أنَّ كلَّ من يقولُ لها المديحَ كلَّ يوم، ستحميه في هذه الحياة، وكذلك بعدَ الموتِ ستحامي عنه أمامَ ابنها. فبكلِّ تأكيدٍ القاعدةُ هي الصلاة. إذا كانت لديك رغبةٌ في الصلاة، فلا تقطعْها؛ أُتْلُها كلَّها. أما إذا ضعُفَتِ الصّلاة، فحينذاك قُلِ المديح، وكذلك ترنيمةَ «افرحي يا والدةَ الإله العذراء...» فإنَّ الفائقةَ القداسةِ تحبّها كثيرًا. وعندما تقولها مرّاتٍ كثيرة، تمنحُكَ العذراءُ حلاوةً لا توصف.

* * *

- أيّها الشيخ، عندما ينحلُّ الجسدُ من كثرةِ التعب، هل يمكننا أن نتلوَ الصلاةَ ونحن مُسْتَلْقُون؟

- يتعاملُ المسيحُ معنا بما يتناسبُ ومقدرتَنا. في الواقع، إن كنّا لا نستطيعُ أن نصليَ لا واقفينَ ولا راكعين ولا حتّى

جالسين، حينذاك يُمكننا أن نستلقي. ولكن إذا كانت لدينا المقدرة، ففي هذه الحالِ يحضرُ الشيطانُ سريعًا، ويحارِبُنا على الفورِ بالتواني والنوم. وعنده أيضًا ما هو أسوأُ من ذلك.

* * *

- أيّها الشيخ، هل يُسمحُ أن نشربَ نبيذًا؟

- تعاملوا جيّدًا مع أبيكم الروحيّ. ولكن احذروا، لأنَّ النبيذَ هو كالدّمِ بالنسبةِ للشابّ؛ أمّا بالنسبةِ للشيخِ فيصيرُ كالماء. وبالنسبة للطعامِ أيضًا، خلالَ الأصوام، إن أنتم أكلتم قليلًا في الصباحِ فلا يضرّ. الأفضلُ أن نأكلَ مرّتين ونتغلَّبَ على قرنِ التكبّر، كما يقولُ «السلَّمي»، بدلَ أن نأكلَ مرةً واحدةً ونعتقدَ أنّنا عملنا شيئًا عظيمًا.

فالأبُ بعدَ جهادِهِ في السنينَ الأولى القاسية، إذْ كبحَ الأهواءَ الجموحة، تكيّفَ في النهايةِ مع نظامِ الحياةِ المشتركة، آكلًا ولكن دائمًا بزهد. أمّا فيما يختصُّ بالجهاداتِ الأولى، فكانَ ينزعجُ من الفكر؛ لذلك اعتادَ أن يقولَ لنا:

«لقد أعطاني الله نعمتَين؛ الأولى أن آكلَ مرّتين في اليوم، والثانية، أن لا أمرضَ البتّة وألاّ أضعَ حبّةَ دواءٍ في

فمي».

ولكن هل يجوزُ ألاّ تكونَ هذه نعمةً خاصّة، أنّه على الرغم من كلّ الجهادات القاسية، لم يمرضِ البتّة؟ وكذلك لم يغسِلْ جسدَهُ بالماءِ لأكثرِ من سبعين سنة، ما عدا القدمَين والرأس. ومع ذلك فإنّ جسدَ الأبِ كان يفوحُ دائمًا برائحةِ الصحراء المُفرحة.

أغضُّ النظرَ عن البراغيثِ والبقِّ والقملِ الذين كانوا قاطنين المجاهدَين الوحيدَين، فارضِين الضرائبَ حتّى على كمّيةِ الدّمِ القليلةِ التي بقيت لهما، على الرغمِ من شدّةِ الصومِ وجهادِ الجسدِ الصعب. وعلى الرّغم من هذا، فإنّ الأبَ لم يمرضْ أبدًا ولم تضعفْ قواهُ حتّى الشيخوخة.

* * *

في لقاءٍ صغيرٍ آخر، وفي حضورِ آخرين، قال لنا:

اهتمّوا قدرَ استطاعتِكم بإراحةِ كلِّ الآباءِ. فإذا أرحتَ في ديرِ الشركةِ تسعةً وتسعين أخًا وأزعجت أخًا واحدًا عن عدمِ انتباه، فذاك الواحدُ يقفُ عائقًا في الصلاة.

ذاتَ يومٍ ضربَ لي أحدُ الإخوةِ مطانيّةً وقال لي:

«بارك، أيّها الشيخ؛ لقد أزعجتُ أحدَ الإخوة، والصلاةُ

ليست على ما يرام». فقلتُ له: «هه! ليسَ هذا الأمرُ على قَدْرٍ من الأهميّة. اضربْ له مطانيّة، فترجعَ المحبّةُ، وكذلك الصلاة». فقال: «طالما أنّي ضربتُ لكَ مطانيّة يا أبانا، أفلا يكفي هذا؟». «آ! كلا لا يكفي. ستضربُ مطانيّةً لذاك الذي أخطأتَ بحقّه». إذذاكَ لاحظتُ أنّه امتعضَ قليلًا في داخله. لكنّه ذهبَ أخيرًا وضربَ له مطانيّة. وفي اليومِ التالي عادَ وقالَ لي:

«أشكركَ أيّها الشيخُ على النصيحة. البارحة، كلَّ الليل، كنت أصلّي بفرحٍ وورع».

* * *

- أيّها الشيخ، حسنٌ أن نضربَ مطانيّة. ولكن يصادفُ أحيانًا أنّك تضربُ مطانيّةً للأخِ الذي أخطأتَ بحقّهِ ولكنّهُ لا يقبلُها، فماذا نعمل؟

- هل ضربتَ له مطانيّة؟ فأنتَ إذًا حُرّ؛ فقط انتبهْ أن تحبّ. وبالطبعِ في وقتٍ لاحق، صلِّ له ولو مسبحةً صغيرةً حتّى يقبلَ مطانيّتَك.

هذه النصائحُ الحكيمةُ على الرغمِ من بساطتها، تَظْهَرُ، في

مرّاتٍ كثيرة، وإلى اليوم، تشديدًا حقيقيًّا لنا في مسيرتِنا الرهبانيّة.

من حياةِ الشيخ

ذاتَ مرّة، في ديرِنا، حيثُ قضى الأبُ أرسانيوس آخرَ سني حياتِه، قالَ له أحدُ الإخوة:

- يا أبانا، إنّي أتممتُ كلَّ مطانيّاتي لكنّي تعبتُ كثيرًا.

- **كم مطانيّةً عملت؟**

- مائةً وخمسين مطانيّة.

رجعَ الأبُ قليلًا إلى الوراءِ وقال: «**يا بنيَّ، لم تعملْ سوى مائةٍ وخمسين مطانيّةً وأُصبتَ بهذا التعب كلِّه!**»، كان يقول هذا ببساطتِه الكاملةِ متعجّبًا.

وصادفَ هناكَ وجودُ بعضِ الشبّانِ الأحداث، فاستغنمتُ الفرصةَ وسألتُهُ من أجلِ المنفعة:

- أنتم، أيّها الأب، كم مطانيّةً كنتم تعملون؟

- **نحنُ في شبابِنا، كنّا نعملُ ثلاثةَ آلافِ مطانيّةٍ ونتمِّمُ المسابحَ طوالَ الليلِ مع الصلبان. ولكن، ذاتَ مرّة، تعبَ كتفيَّ وقلتُ للشيخ. مذّاك وضعَ لي أن أصلّيَ بالمسبحة**

بدونِ صلبان، بالطبعِ ما عدا تلكَ التي من ضمنِ قانونِنا اليوميّ.

- إذا سمحتم، أخبرونا قليلًا عن جهاداتكم مع الشيخ.

- خلالَ أعوامِنا الأولى في منسكِ القدّيسِ باسيليوس، كلانا كان يجاهد، كلٌّ واحدٍ منفردًا في قلاّيته. اختبرنا بإرشادِ الشيخِ كلَّ أشكالِ السهرانيّةِ التي يكتبُ عنها الآباءُ القدّيسون. وكنّا لفترةٍ كبيرة، لا نستلقي على السريرِ أبدًا. إذ كانت سهرانيّاتنا تبدأُ من بعدِ الظهرِ وتنتهي في الصباحِ مع بزوغِ نورِ الشمس. عندما تطلعُ الشمسُ بالكامل، ونحن منهكون، كنّا نجلسُ على مقعدٍ خشبيٍّ ذي سواعد أو على مقعدٍ عاديّ، لكي نَرُدَّ الدَّينَ للجسد، قبل أن ننطلقَ إلى العملِ اليدويّ. أمّا بالنسبةِ للطعام، فكُنّا نأكلُ، دائمًا، على مدارِ السنة، مرّةً واحدةً في اليوم، وبخاصة بقسماطًا أو خبزًا إذا صادف، أو أيَّ شيءٍ آخرَ مجهَّزٍ بدونِ زيت، ما عدا نهارَيِ السبت والأحد. في النهارِ كنّا نعملُ أعمالًا يدويّة، أمّا أنا فكنتُ على الأكثر أهتمُّ بحاجاتِ قلاّيتنا الخارجيّة، وبنفسِ الوقتِ كنّا نقولُ صلاة يسوعَ دونَ توقّف. الثرثرةُ

بالنسبةِ للشيخِ كانت خطيئةً مميتة.

- آمان أيّها الشيخ، إذًا، نحنُ سنخزى.

- كلا، ليسَ الأمرُ هكذا. لا تنظروا إلينا. أنتم إذا أتممتم أمرَين، الطاعةَ وواجباتِكم الروحيّة، فالمسيحُ سيخلّصنا كلَّنا. أمَّا المطانيّات، فَلْتَكن على قدْرِ ما يميِّزُ الشيخُ لكلِّ واحدٍ حسبَ مقدرته. كذلك، احذروا أن تطلقوا العنانَ للسانكم حتّى لا يثرثِرَ ويتذمَّر. بل فيما تخدمون، صلّوا بلا انقطاع. هل هذه الأشياءُ صعبة؟

- كلا، أيّها الشيخ.

- سأذكركم في صلاتي. وإذا طبّقتم هذه الأمور، فالمسيحُ سيخلّصنا جميعًا، وسيسيرُ الملاكُ الحارسُ أمامكم.

من الآن فصاعدًا سيقولون «الراهب خارالمبوس»

بقينا في البورازيري حوالي الإثني عشر عامًا (١٩٦٧-١٩٧٩) وكانت القلاّيةُ كبيرةً ومريحةً بما يكفي، وكان باستطاعتنا أن نبقى فيها إلى الآن.

ولكنّ فراغَ الأديارِ آنذاك، جعلَ آباءً كثيرين يضطرّوننا بازعاجٍ لإعادةِ إحياءِ أحدِ الأديار. فعلى سبيل المثال، انتقلتْ أخويّةُ القدّيس أرتيميوس الراعي إلى دير الفيلوثيو ذي النظامِ الفرديّ آنذاك، الذي كان يعاني وقتئذٍ نقصًا في الرهبان.

على الرغم من أنَّ شيخَنا عارضَ بادئَ الأمر، لكنّه عادَ ورضخَ أخيرًا لتوسّلاتِ أبنائه الروحيّين الحارّة، الموجودين في دير الذيونيسيو الشريف. فرغمَ كونِهم رهبانًا صغارَ السنّ وقتئذٍ، إلاّ أنّهم تطلّعوا إلى البعيد، فقرّروا تعزيزَ ديرِهم بحضورِ أبيهم الروحيّ، الشيخِ خارالمبوس مع أخويّته.

ومن الملاحظِ أنّه، ما إن رقدَ الشيخُ القدّيسُ يوسف، حتّى صارتْ كلُّ أخويّاتِ أبنائهِ تذكرُ الأبَ أرسانيوس كحلقةِ وصل.

قبْلَ أن نتحدَّثَ عن انتقالِنا إلى ديرِ الذيونيسيو الشريف، لا بدَّ لنا من أن نذكرَ أنّ الأبَ أرسانيوس كان يرى الشيخَ يوسفَ في النومِ قائلاً له: «حتّى الآنَ يقولونَ أرسانيوسَ الراهبَ وأخويّته. من الآنَ فصاعدًا سيقولونَ خارالمبوس الراهب».

تمسّكَ الأبُ أرسانيوس بهذا، لكنّه أعطاهُ تفسيرًا آخر؛ واستمرَّ يُحلّلُ لقاءَ رفيقهِ في الجهادِ المحبوب، فكان يقول: «يبدو

أنَّ أيّامي قد قصرتْ، وقد سبقَ الشيخُ ورأى أن أتهيّأ». ولكنَّ انتقالَنا إلى ديرِ الذيونيسيو، بعد فترة، كانَ الجواب. وهناكَ اختارَ الشيخُ أرسانيوس الأبَ خارالمبوس رئيسًا قانونيًّا. حينذاك فهمَ الأبُ أرسانيوس التفسيرَ وكان يقولُ متبسِّمًا: «**يا للأسف، لم تأتِ ساعتي بعد!**».

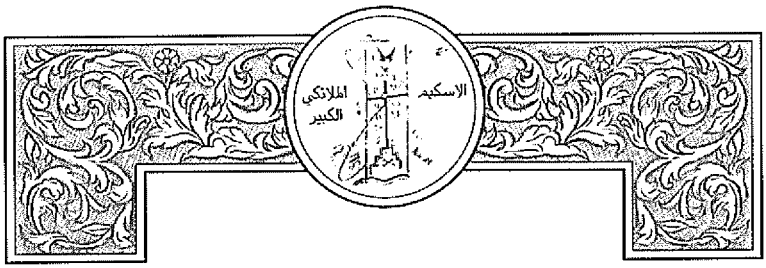

الفصل السابع

السنوات الأخيرة في دير القديس ذيونيسيوس ورقاد الشيخ

نحو دير الذيونيسيو

بعد توسّلاتٍ وتحريضاتٍ ومفاوضات، صدرَ القرارُ الحاسم. وانتقلتِ الأخويّةُ بشكلٍ نهائيٍّ من البورازيري التابعِ لديرِ خيلاندار، إلى ديرِ القدّيس ذيونيسيوس، في أوائلِ شهرِ أيلول ١٩٧٩.

ضمَّ هذا الديرُ الشريفُ شخصيّاتٍ معاصرةً كثيرة، ومن بينها الرئيسُ الأوّل، الشيخُ غفرئيل، الذي خدمَ مدّةَ أربعينَ سنةً كاملة. وقد شارفَ علىٰ نهايةِ حياته. كما اغتنى الديرُ أيضًا بالأبِ أرسانيوس ابنِ الصحراءِ الطيّبِ نظيرِ هذا الراعي الكبير.

كلاهما سلَّما نفسيهما للّٰه منذُ حداثتِهما، فهُما في ذاتِ العمرِ في

الرّهبنة، وفي ذاتِ العمرِ بالضبطِ من حيثُ الولادة، ورقدا معًا بعد معاناتِهما الجهاداتِ الرهبانيّةَ التي نقلتهما إلى الأخدارِ السماويّة.

استحققنا لمدّةِ أربعِ سنوات أن نتمتَّعَ بأقوالهما المعسولة، وإشعاعِ خبرتهما الروحيّةِ الكثيرةِ السنين. الغريبُ هو أنّهُ، تقريبًا إلى وقتِ انتقالهما ما عدا حالاتٍ استثنائيّة، حافظا على صفاءِ الرّوح، بدونِ حزن، ودونَ توُّهمات، عكسَ ما يحصلُ عادةً مع المسنّين.

البيروندا خارالمبوس مع الرئيس الأسبق غفرئيل المغبوط

في خلالِ السّنواتِ الثلاثةِ الأُولى، كان هذانِ الشيخان القدّيسان يحملان عكازَ الرّعاية، ويجولان على الخدمات، مُشدّدَين الإخوةَ في خدماتهم. كلُّ الذين كانوا يتمّمون أعمالًا صعبة، مثلَ الطبّاخِ والمسؤولِ عن الضيافة، يعرفونَ كم يعزّيهم مجرّدُ حضورِ أحدِ الشيخَين الكبيرَين. فإذا سمعتَ من ذلكَ الفمِ المقدّس كلمتَين حُلوتَين، حينذاك تستكينُ نفسُك، وتتجدَّدُ برغبةٍ مضاعفةٍ وتُتابع واجبَك. يُخبرُ أحدُ الطبّاخينَ

قائلاً: «يطنُّ في أذنيَّ كلَّ لحظة، قولُ الأبِ المعزّي: «كلُّ ما تفعلونهُ بأحدِ إخوتي هؤلاءِ الصغار، فبي تفعلون. هذا يا بنيَّ ستسمعهُ من السيد»». أمّا الآن، فمن أيِّ فمٍ مقدَّسٍ خرجتْ هذهِ الحلاوة، هذا لغزٌ آخر.

من المؤكّدِ أنَّ الذين يخدمون في المرفأ، كانوا يَحظَون دائمًا بعطفٍ خاصٍ من الشيخِ الكبيرِ غفرئيل. فكان يُعطي لهؤلاءِ بركةً مضاعفة، والسببُ في ذلكَ هو أنَّ هذا الشيخَ القدّيس انطلقتْ تجربةُ حياتهِ الرهبانيّةِ من هناك، كما أنّهُ خلالَ كلِّ أعوامهِ الرئاسيّة، كان هذا الأمطشُ يغذّي الدير. فالرهبانُ الذين هناك معزولون عن بقيّةِ إخوةِ الدير بسببِ واجبِ الطاعة، كأنّهم في منفًى.

في مستشفى الدير

العدّاءُ الأوّلُ هو الأبُ غفرئيل. قبلَ سنتين من رقادهِ الشريف، كان يقيمُ في مستشفى الديرِ الصغيرِ للمعالجة. ثمَّ لحقَ به في السنةِ التالية مجاهدُ الصحراءِ الآخر، الأبُ أرسانيوس، إلى الحُجرة ذاتها.

إنّ صفاءَ الروحِ الذي تميَّزَ به كلا الشيخَين، جعلَ من

مستشفى الديرِ مركزًا روحيًّا حقيقيًّا، حيثُ اعتادَ أن يتردَّدَ إليهِ الجميع، من الرئيسِ حتّى الراهبِ الأخير، وكذلك زوّارٌ كثيرون.

ممرِّضَا ديرنا، الأبُ يعقوبُ والأبُ كالّينيكوس، لم يتعبا من دورِهما في الخدمة، طالما كانَ لديهما البركةَ ليخدما في المأوى شيوخًا آخرينَ كُثُرًا. ولكنْ في هذه الحالة، كانت سيّدتُنا والدةُ الإلهِ تحفظهما، مع السابقِ الكريمِ، كي يغتنيا بالصلواتِ الأخيرة، صلواتِ قدّيسَين معاصرَين من الولاية الآثوسية. وبكلِّ تأكيدٍ، إنّه

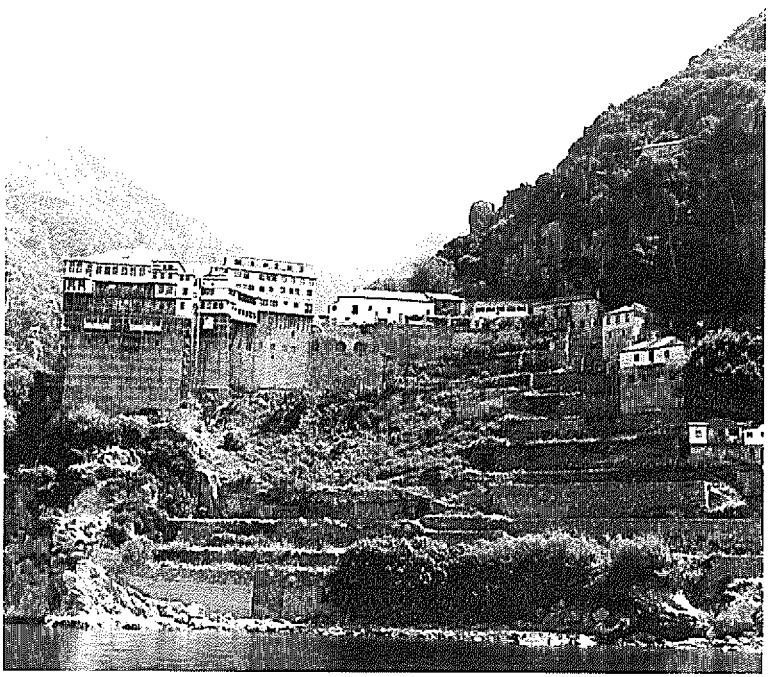

دير الذيونيسيو الشريف

من غيرِ العدلِ الإحجامُ عن ذكرِ الخدمةِ الطوعيّةِ التي كان يقومُ بها بعضُ الإخوة، مثل الرهبانِ أغابيوس، ونيفن، وسيرافيم...، من أجل تلطيفٍ صغيرٍ للرهبانِ الثابتينَ في الخدمة.

ثمار الآلام الكثيرة السنين

في الرسالةِ إلى أهل غلاطية (٥ : ٢٢) يلخّصُ القدّيسُ بولسُ كلَّ الجهاداتِ الروحيّةِ بنهايةٍ مماثلة، أي الثمرَ الروحيّ، قائلًا: «أما ثمرُ الروحِ فهو المحبّة، والفرح، والسلام، وطولُ الأناة، واللطف، والصلاح، والإيمان، والوداعةُ والعفّة».

هذه الثمارُ الروحيّةُ المشعّةُ كانت ظاهرةً في كلا الشيخَين، لكنّك تستطيعُ بكلِّ سهولةٍ أن تميّزَ أنَّ الأوّلَ وجّهَ قاربَ مسيرتِهِ الروحيّةِ كرئيس، أمّا الآخرُ فكمبتدِىء.

كلُّ واحدٍ حيثُ استحبس، هناك استراح. فمنِ الصعبِ أن يتغيَّرَ النَهج، وكذلك عاداتُ الحياةِ كاملةً. فالأوّلُ حافظَ على نظامِه، أما الثاني فبقيَ مبتهلاً صامتًا.

كان أَحَدُ المُمرِّضَين يقولُ عن الأبِ أرسانيوس: «استحققتُ أن أعتنيَ بكثيرٍ من الشيوخِ القدّيسين. ولكنّي لم أعرفْ مثلَ هذا

الحملِ الوديع».

وكان الأبُ غفرئيلُ الدائمُ الذكرِ يقول: «صدّقوني، إن الأمورَ الإداريّةَ لم تتركْ لي وقتًا لأهتمَّ بنفسي. أما الآنَ فإني أشعرُ بحلاوةِ الصلاةِ غيرِ المنقطعةِ والهدوء».

حلاوةُ الصلاةِ هذه التي زارتهُ على فراشِ الألمِ، ليست إلاّ حضورَ الروحِ القدسِ وختمَهُ، بما يتناسبُ وكم أرضى هذا الشيخُ القدّيسُ اللّه، كرئيس.

ولكنَّ امتيازَ التلميذِ الحقيقيِّ هو أن يحصلَ على ثمارِ الروحِ القدسِ هذه في كلِّ مسيرتهِ الروحيّة؛ بقدرِ ما يسلّمُ الواحدُ نفسَهُ بكاملها للطاعة، بدونِ عوائق. فنفسُهُ المأسورةُ بالعشقِ الإلهيِّ تتحرّرُ إلى كثرةِ الدّموع، ليس عن خوف، بل شوقًا إلى الموت.

إذا كانَ الشهداءُ وكلُّ الذين استحقُّوا نعمةَ الاستشهادِ يركضون بفرحٍ لا يوصفُ ليقطعوا لهم أرجلَهم وأيديَهم وكلَّ أعضائهم وصولًا إلى الرأس، فليتأمّلْ كلُّ واحدٍ كم كان الشوقُ الإلهيُّ فيهما أقوى من كلِّ العذاباتِ الكثيرةِ الآلام.

لقد صعدا إلى درجةِ هذه النعمةِ الاستشهاديّةِ الموهوبة في الجهادِ الكثيرِ السّنين بالطاعة. فقد عشنا مع الشيخ أرسانيوس

المبارك وشعرنا به حتّى رمقه الأخير.

بالطبع لم يستشهد، لأنّه بكلّ بساطة لم يعطَ فرصة؛ ولكنّه بدونِ شكّ كان يُعتبر شهيدًا، بنوعٍ آخر من الشهادة، مذلّلًا الجسدَ ومُستعبِدًا إياه، بمسيرةٍ نسكيّةٍ قاسية. أصوامًا لسنينَ كثيرة، وقوفًا طوالَ الليل، أعدادًا هائلةً من السّجدات، مرتديًا ثيابًا رثّةً وحافيَ القدمَين، متقبّلاً المشاحناتِ كطفلٍ وصابرًا على تعبِ الضميرِ المخيفِ ذاك، لكي لا يستسلمَ لأيّ أدنى فكر.

فالأبُ أرسانيوسُ كان طفلًا بالنسبةِ لحكماءِ العالم، لكنّهُ حكيمٌ في عيني اللّه، بما أنّه قد باعَ كلَّ شيءٍ لكي يشتريَ المسيحَ اللؤلؤةَ الجزيلةَ الثّمن. فكان يتمتمُ مع الرسولِ بولس: «لقد جاهدتُ الجهادَ الحسن، وأكملتُ الطريق...»[٣١].

الذهابة المغبوطة

في الأوّلِ من أيلولَ سنة ١٩٨٣، أفلَ الصيفُ وكذلك اثنانِ من المجاهدِين المسنّين على طريقِ السماء. الواحدُ بعد الآخرِ سلّما مسكنهما.

(٣١) ٢ تيمو ٤:٧

عندما كنتُ أذهبُ وأعودُ من عاصمةِ الجبلِ المقدّس، حيثُ صدفَ أنّي كنت أخدم آنئذ، كنتُ أنزلُ بعد التدريسِ إلى مستشفى الدير. عندما سمعتُ من فمِ الممرِّضِ الأبِ كالّينيكوس ذي الخبرة، أنَّ أيّامَ الأبوَين اقتربت، ما كنتُ أريدُ أن أصدّقه. على الرّغمِ من أنَّ الموتَ هو انتقالٌ إلى الحياة، ولكنْ مرّاتٍ كثيرةً يسيطرُ شعورٌ بشريٌّ على الإنسانِ فَيُقلقه. فإذا كنتَ عائشًا مع أحدِهم حياةً بكاملها، وصادفَ أنَّ الراحلَ هو مرشدُكَ الروحيّ وقد أنعمَ عليكَ بالكثير، فبكلِّ تأكيدٍ سيكونُ غيابُهُ قاسيًا. بالنسبةِ لنا، نحن أبناءَ الأبِ الروحيّين، فقد سيطرتْ علينا هذه المشاعر. وأمّا الأبُ فكان يشعرُ مسبقًا بنهايتِهِ بصفاء، وكشفَ ذاتَهُ أكثرَ وأفرغَها كلَّها لأحفادِهِ الروحيّين.

كثيرونَ من الإخوةِ لم يتمكّنوا أن يسألوه؛ فحالما اقتربوا منه، تمكَّنَ أن يعرفَ أفكارَهم ومشاكلَهم، وفي الوقتِ نفسِهِ أعطاهم الحلَّ المناسب.

استدعى بشكلٍ خاصٍّ أخًا، جاءَهُ فكرٌ أن يتركَ الدير. وما إن كشَفَ له أفكارَه، حتّى قدّمَ لهُ الدواءَ المناسب، وعلى الفورِ تخلّصَ من الحرب.

وكشفَ بشكلٍ خاصٍ لرئيسِ الديرِ ابنِ أخيهِ بالجسدِ وفليونِه بالمعموديّة، أشياءَ كثيرةً كان يجهلُها ونظّمَها له. وأعطاهُ في النهاية، أدْعِيَتَهُ الأخيرةَ ونصائحَه.

أدركَ الأبُ أرسانيوس بدايةَ شهرِ أيلول مُنهكًا، ولكن بصفاءٍ روحيٍّ حتّى النهاية، مُتَهيّئًا بالكلّيّة، مترقّبًا الرحلةَ الكبيرة. ودّعَ الإخوةَ ونصحَهم واحدًا تلوَ الآخرِ بهدوءٍ وسكينة، كَمَنْ ينتقلُ إلى مكانٍ آخر، وفي الوقتِ عينِه كانَ يُحصي الدقائق؛ استلمَ الرسالةَ التي تَأخّرَ تنفيذُها. ولكن ها قد حانتِ الساعةُ المبارَكة، في ساعةٍ متأخّرةٍ بعدَ نصفِ الليل، في الثاني من الشهر. وفي لحظةٍ استبانَ وجهُ الأبِ المباركِ لامعًا، وطارتْ نفْسُهُ مثلَ عصفورٍ صغيرٍ إلى السماء.

ولكن على ما يبدو أنّه لم ينسَ أختَهُ المحبوبةَ الراهبةَ إفبراكسيا. ففي تلكَ العشيّة، كما قالتْ لي هي نفسُها، شعرَتْ بحضورِهِ الحيِّ معَ نسيمٍ عليلٍ في النفس، استمرَّ طوالَ تلكَ الليلةِ مع ظاهرةٍ غريبةٍ تَظهرُ للمرّة الأولى؛ وهي أنَّ عصفورًا صغيرًا فائقَ الجمالِ جلسَ طولَ الليلِ على النافذةِ يغرّدُ بعذوبةٍ لا مثيلَ لها، كما لو أنّها كانت تسمعُ ترتيلةً ملائكيّةً سماويّة، مهيِّئًا إياها لتتقبّلَ الرسالةَ بهدوء.

وعندَ بزوغِ فجرِ النهارِ الثاني من شهرِ أيلول، وصلتِ الرسالةُ المفرّحةُ المحزنةُ بهاتفٍ صباحيٍّ تلقّتهُ من ديرِ الذيونيسيو الشريف: «أيّتها الأمّ، لقد رحلَ أخوكم الأبُ أرسانيوس للتوِّ إلى السيّد».

أمّا الأبُ غفرئيل، فحدثَ أنّهُ، في خلالِ الساعاتِ الأخيرةِ لرفيقهِ في الجهاد، غرقَ في غيبوبةٍ ما قبلَ الموت. هذا حصلَ له مرّتين، ولكنّه استعادَ أحاسيسَهُ بالكلّية. هذه المرّة حالما عادَ، أوّلُ ما سألَ عنهُ كان، ماذا حصلَ للشيخِ الآخر؟

قالَ لهُ الممرّض:

- رقدَ، أيّها الشيخ.

بقيَ الأبُ لبرهةٍ صامتًا وبعدَ ذلك قالَ بتعجّب:

- شيخٌ جيّد.

- كيفَ عرفتَ هذا أيّها الشيخ؟

- رأيتهُ داخلَ نورٍ ساطعٍ، وكانَ يلبسُ على خصرهِ حزامًا أحمر.

وعندما سألت، ماذا يمكنُ أن يعنيَ اللونُ الأحمر، علمتُ أنّه بحسبِ الآباءِ هو رمزُ البتوليّة واللاهوى.

وما لبثَ هذا الشيخُ المجاهدُ أنْ تَبِعَ رفيقَه، بعدَ أربعينَ

يومًا، مُحَقِّقًا نبوءَتَهُ: ففي عام ١٩٦٦، زارَنا في الإسقيطِ الجديد رئيسُ ديرِ الذيونيسيو غفرئيل. ومن حديثِهِ مع الأبِ أرسانيوس تأكّدا أنّهما كانا في نفْسِ العمر، إن كانَ من حيثُ الولادةِ أو في الرهبنة، وأكملَ الرئيسُ: «إذًا نحنُ الإثنيَن أيّها الشيخ، سنموتُ معًا».

هذا القولُ صارَ نبوءةً حقيقيّة.

جنازة الأب

انتقلَ خبرُ موتِ الأبِ مباشرةً مثلَ برقٍ داخلَ الجبلِ المقدّسِ وخارجَه. وهكذا توافدَ جمعٌ غفيرٌ من الرهبانِ من كلِّ الأديارِ والقلاّياتِ الشريفة، وكثيرٌ من العلمانيّين الذين يعيشونَ في العالم، وقبلَ الكلِّ المقرّبون إليه جدًّا أي محيطُ الأديارِ الشريفة: فيلوثيو، كسيروبوتامو، كاراكالو، كونستامونيتو وكذلك من كاتوناكيا، والإسقيطِ الجديد[٣٢].

تمّتِ الخدمةُ الجنائزيّةُ بتوقيرٍ كبيرٍ في كنيسةِ الديرِ بحضورِ الكثيرِ من الرؤساء. ومن هناكَ وُضعَ جسدُهُ المقدّس بكلِّ توقيرٍ في مثواهُ الأخير. أمّا نفسُهُ المغبوطةُ فقد استقبلها بأحضانٍ مفتوحةٍ

(٣٢) شارك في الخدمة الجنائزيّة الأرشمندريت المتوحّد اسحق عطاالله مع تلميذه الأب المتوحّد أفتيميوس ومرافق علمانيٍّ (الأب المتوحّد بندلايمون حاليًّا).

المغبوطُ رفيقهُ في الجهاد، الأبُ يوسف. من المؤكّدِ أنّكم تذكرونَ عندما كان يزورُه أحيانًا بشوقٍ كبيرٍ ويقولُ له: «إلى متى سنعيشُ منفصلَين؟»، فحينذاك كانَ الأبُ الدائمُ الذكرِ يجيبُهُ ببساطةٍ عفويّة: «**وهل الأمر بِيَدي؟**».

ولكن ها قد حانتِ الساعةُ المباركة، ساعةُ اتّحادِ المجاهدَين النهائيّة.

قبْلَ رقادِ الأبِ بقليل، جاءهُ أيضًا الشيخُ الكبير، ولكن هذه المرّة ليس ليقولَ له «متى ستأتي؟»، بل: «أرسانيوس، حانتْ ساعتُكَ المباركة. إنّي أنتظركَ بأحضانٍ مفتوحةٍ».

عندما التَقى المجاهدان في ريعانِ الشباب، لأوّلِ مرّة، على قمّةِ جبلِ آثوس، قَطَعَا وعدًا أنّ الموتَ وحدَهُ يفرّقهما. فموتُ الأوّلِ فصلَ المجاهدَين غيرَ المنفصلَين لمدّةِ أربعةٍ وعشرين عامًا، لكي يوحّدَهما نهائيًّا تقريبًا بموتِ الآخر. حتّى إنّهما بأتعابِهما المشتركةِ سيتلذّذان بثمارِ آلامِهما. وفي نفْسِ الوقتِ سيشتركان في الصلاةِ بلا انقطاع، كما وعدا من أجلِ أولادهما المتيتّمين وكلِّ العالم، وبشكلٍ خاصٍّ من أجلِ جميعِ الذين بإيمانٍ يطلبونَ صلواتِهما.

فليكن ذكرُهما مؤبّدًا.

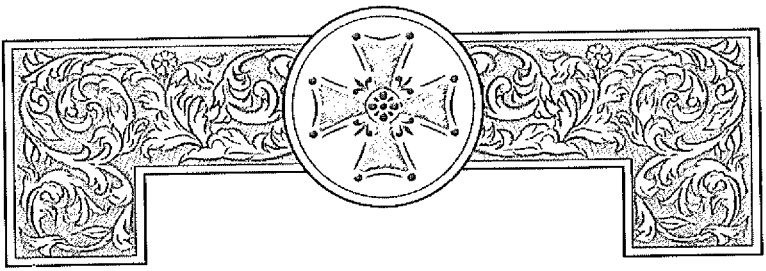

الخاتمة

إذ أنهينا سيرةَ حياةِ الشيخِ أرسانيوس الدائمِ الذكر، أشعرُ أنّي أتممتُ على قدرِ طاقتي واجبًا كبيرًا، واجبَ اعترافٍ بالجميلِ تجاهَ أبٍ روحيٍّ، فاعلِ خيرٍ، ومعلّمنا جميعًا، نحن أحفادَهُ الروحيّين، الذين كان يشجّعنا، أوّلًا بحياتِه الفاضلةِ وتاليًا بأقوالِه البسيطةِ والمملوءةِ بالنعمة، والتي كانت مُشعّةً بالخبرةِ الطويلةِ السنين من الجهاد، تحتَ الإرشادِ الروحيّ لمعلّمِ الصحراءِ المعاصرِ الكبيرِ الشيخِ يوسفَ الهدوئيّ. فقد تصارعَ كلاهما مع رئاساتِ الظلامِ وسلطانِه، وتخلّصا منها مُظفّرَين، آخذَين معهما جائزةَ الدعوةِ العلويّة.

وإذا صادفَ وجودُ أيِّ إهمالٍ أو نقص، فإنّي ألتمسُ الرأفة، أوّلًا من الأبِ وتاليًا من كلِّ أحفادِه الروحيّين، متمنّيًا أن تكونَ هذه الطبعةُ بدايةً جيّدةً لطبعةٍ أخرى أفضلَ منها.

أمّا فيما يختصُّ بعنوانِ الكتاب، أظنُّ أنّ قبولَ العنوانِ

«الكهفيّ» هو على الأرجحِ مشتركٌ بسببِ أنَّ الدائمَ الذّكرِ قضى غالبيّةَ حياتهِ مع رفيقهِ في الجهاد «في الجبالِ والكهوفِ وكلِّ الأرض».

وبكلِّ تأكيدٍ يُقبل أيضًا عنوان «أرسانيوس الهدوئيّ»، كما ويمكن أن يُسمّى بكلِّ سهولةٍ «الابنُ الحقيقيُّ للعذراءِ والمعلّم».

لقد عاشت سيّدتُنا والدةُ الإلهِ في قدسِ الأقداسِ في البداية، وكانت في كلِّ حياتِها على الأرض، تُشكّلُ نموذجًا للهدوئيّة. والأمرُ المتعارفُ عليه أنّها، وبدونِ شكّ، تساعدُ الطغمةَ الرهبانيّة؛ إذ هي، بشكلٍ أكيد، شفيعةٌ، ومغذّيةٌ، وقائدةٌ، ونبعُ النعمةِ، والرجاءُ لكلِّ الذين أنكروا العالمَ واللذّةَ العمياء وأنفسَهم ذاتَها بحسبِ قولِ السيّد.

فالأبُ أرسانيوس، بِنُكرانِ ذاتِهِ وجهاداتِهِ الفائقةِ الطبيعة، صارَ الابنَ الحقيقيَّ لسيّدتِنا والدةِ الإلهِ والمعلّم. وهو يتوسّلُ إليها بجرأةٍ من أجلِنا. فلذلك إذ أُنهي، أطلبُ أدعيتَهِ المقدّسة لسيّدتِنا والدة الإله ولابنها، آمين.

فليكنْ ذكرُهُ مؤبدًا.

ملحق صغير

خارالمبوسُ الراهبُ الهدوئيُّ
ورئيسُ الدير (١٩١٠-٢٠٠١)

دُعيَ الشيخُ خارالمبوسُ المغبوطُ إلى الأخدارِ السماويّة، ليكونَ مع من سبقهُ من الآباءِ القدّيسين. إذ هو قامةٌ أخرى كبيرةٌ من أخويّةِ أبينا القدّيس يوسف الهدوئيّ الدائمِ الذكر.

في ما يلي، نبذةٌ قصيرةٌ عن حياتِه، للذكرى كواجب، وعلامةِ احترام، واعترافٍ بالجميل، ومن خلالِ تقديري وواجبي الشخصيَّين. أمّا بالنسبةِ لسيرتِهِ الواسعة، فإنّي متيّقنٌ أنّه في وقتٍ قصيرٍ سيكتبُ كثيرونَ أشياءَ كثيرةً عنه، إمّا من ديرنا الذي عاشَ فيه حوالي عشر سنوات، أو آخرون تعرّفوا إليه وبكلِّ تأكيدٍ استفادوا منه بأشكالٍ كثيرة.

أُعرضُ عن الحقبةِ الأولى من حياته، المرتبطةِ بجهاداتٍ نسكيّةٍ كبيرة وأحداثٍ عجائبيّة، بالإضافة إلى نجاتِهِ من الموتِ المحتَّم من الأحزابِ البلغاريّة، وكذلك التدخُّلُ العجائبيُّ للعظيمِ في الشهداءِ جاورجيوس.

وللحين أَعرُضُ فقط أشياءَ قليلةً، من أجلِ ذكراه، ممّا رأيتُ وسمعت، إذ عشتُ بالقربِ منه كابنٍ روحيٍّ لمدّةِ خمسةٍ وثلاثين عامًا (١٩٦٥-٢٠٠٠).

وبالحماسِ الذي يميّزُ عادةً الشبابَ المتراوحةَ أعمارُهم بين الثامنةَ عشرة والثانيةِ والعشرين، عرفت، عندما كنتُ في أثينا، كلَّ الآباءِ الروحيّين القممِ تقريبًا. ومن بينهم الدائمُ الذكرِ الأبُ إبيفانيوسُ ثيوذوروبولوس، الأب بورفيريوس، الأب يارونيموس الذي من آيينا، والواعظُ الموهوبُ ديمتريوس باناغوبولوس وآخرون كُثُر، الذين، وبكلِّ تأكيد، أَدينُ لهم بكثيرٍ من الاعترافِ بالجميل.

ولكن بفعلِ العنايةِ الإلهيّة، ذاك الذي حرَّكت كلماتُهُ قلبي، كان الدائمَ الذكر معلّمي خارالمبوس، الذي ما إن صادفتُهُ للمرّةِ الأُولى حتّى صرختُ نحوهُ كفيليبّسَ آخر، كما نحو صديقٍ لي حميم

دونَ أن أنطقَ ولو بكلمة: «لقد وجدنا المسيّا»، هذا هو المعلّم.

مذّاك، تقريبًا، لم أعدْ قادرًا أن أفارقَه. ففي وجهِ هذا الراهبِ البسيط، شعرتُ بشيءٍ غريب، ليس لأنّي كنتُ مستحقًّا، بل بفعلِ صلواته، كموتوڤيلوفَ[٣٣] آخرَ، عشتُ بعضَ الحزنِ بسبب غناهُ الروحيّ.

إنّي واثقٌ أنَّ هذه الشهادةَ سيؤكّدها عددٌ كبيرٌ من أبنائهِ الروحيّين داخلَ الجبلِ المقدّسِ وخارجَه.

لستُ أُبالغُ إنْ أنا لقّبتُهُ بـ «معلّم الصلاةِ القلبيّة». بالطبعِ اليومَ، كما في القديم، يوجدُ معلّمون وكذلكَ كتبٌ لا تفسدُ حولَ الصلاةِ القلبيّة.

ولكن ما يميّزُ المعلّمين الحقيقيّين، وبينهم معلّمي الدائم الذكر، إضافةً إلى التعليم، هو نقلُ النعمةِ لكلِّ الذين كانوا يسمعونَهُ بإيمانٍ وقابليّةٍ مناسبة.

وكذلك بالنسبةِ لأشخاصٍ كانوا، عن جهلٍ منهم، فوضويّين. أعرفُ حالاتٍ، إذ من أوّلِ لقاءٍ لهم معه، تكيّفوا بسهرانيّةٍ ليليّةٍ لمدّةِ ثماني ساعاتٍ، عقِبَ أوّلِ اتّصالٍ واعترافٍ وإرشادٍ نسبيّ. وعلى

(٣٣) راجع سيرة القدّيس سيرافيم ساروفسكي.

الأثر، بدّلوا مسيرتَهم وصاروا نموذجًا للمدنيّين ورجالَ الروح. والبعضُ انتهوا إلى الرهبنة.

ولكنَّ هذا الشائعَ الذكر، كان غنيًّا بالكثيرِ وحاويًا فضائلَ جمّة: المحبّة، والشفقة، وطولَ الأناة، والتواضعَ والمسؤوليّةَ مع البساطةِ المغبوطةِ والرحمة.

منذ أوّلِ يومٍ مِن خضوعِه، كان يتمرَّنُ على السهرانيّةِ الدائمة، مترافقةً بعددٍ كبيرٍ من السّجداتِ ودموعِ المحبّة. ولكن ليس فقط للّه، بل من أجلِ كلِّ العالم. سهرانيّتُهُ كانت تستمرُّ طوالَ الليلِ، والختامُ كان بالقدّاسِ الإلهيِّ اليوميّ، وفي نصفِ الليلِ يذكرُ آلافَ الأسماء، أحياءً وراقدين.

للتوّ، رقّاهُ معلّمُهُ القدّيسُ المستنير إلى رتبةِ الكهنوت، منذ العامِ الثاني لخضوعِهِ له. منذ ذلك الحينِ وحتّى شيخوختِه، حيثُ عانى من انقباضٍ حادٍّ في عضلةِ القلب، لم يتخلّف، ولو لمرّةٍ واحدة، عن القدّاسِ الإلهيِّ اليوميّ.

كانت خِدَمُهُ الإلهيّةُ تنقلُ نعمةً غنيّةً للحاضرين. وبالطبع، نحنُ لا نشكّك بأيِّ خادم، ولكنَّ الخادمَ الغنيَّ بالنعمةِ الفاعلة، ينقلُها حسّيًّا للمشتركين معه.

تبقى خِدَمُهُ الإلهيّةُ ذكرياتٍ غيرَ منطفئةٍ في قلاّياتِ القدّيسةِ حنّةَ النسكيّة، وفي قلاّياتِ الإسقيطِ الجديد، حيثُ إنّهُ في مرّاتٍ كثيرة، ما كان قادرًا على مسكِ فيضِ الدموع التي كانت تستمرُّ لفترةٍ طويلةٍ معيقةً صوتَه.

ولكنَّ الشيءَ الذي لا يغيبُ هو خِدَمُ القيامة، إذ كان معلّمهُ يرسلُ كلَّ أبنائه الروحيّين إلى كنيسةِ الإسقيط، وهؤلاءِ بدورهم ينتظرونَ الكاهنَ الأبَ خارالمبوس، والمرتلَين الشيخَين يوسفَ وأرسانيوس.

ومن «مباركةٌ هي مملكة الآب...» حتّى لحظةِ الحلّ، كان الثلاثةُ يشتركون بدموعٍ متواصلة، وتنهدّاتٍ محبّة، وتمجيدٍ مع إنقطاعاتٍ كثيرة. «هناك يا بنيَّ ما كنّا نعيِّدُ القيامة؛ إنّما كنّا نعيشُها. هل تعرفُ ماذا يعني أن يُظهِرَ لكَ المسيحُ قليلًا من الفرحِ الذي كانت تشعرُ بهِ الفائقةُ القداسة في تلك الساعة؟».

عجائبُ من صلواتِ الشيخ

بالصلاةِ الحارّةِ التي كان يرفعُها أبونا الروحيُّ الدائمُ الذكر، رأينا، مرّاتٍ عدّة، وسمِعنا عن عجائبَ كثيرةٍ عشناها تاليًا.

فقد شفى مرضى كثيرين، وساعدَ العديدَ من الناسِ في مشاكلَ صعبةٍ، وأخرجَ شياطين.

عندما كانوا يطلبونَ إليه أن يصلّيَ لهم، ما كان يستجيبُ دائمًا. والغريبُ أنّهُ يحصلُ في الصلاةِ على المعلومةِ المناسبة. لذلك، تارةً كان يؤكّدُ المهمَّ وهو أنَّ السيّدَ سيُعين، وطورًا يقول: «اللّه يريدُ أن يُعين، لكنّه يطلبُ منكَ شيئًا ما أوّلاً». والواقعُ أنَّ كثيرين قد ارتكبوا خطايا لم يعترفوا بها، أو كانَ عندهم خلافاتٌ معَ شخصٍ آخر، أو إجحاف، أو غضب... فكانَ يضطرُّهم أن يتصالحوا حتّى تُسمعَ طلبتُهم.

وأحيانًا كانَ يقولُ بكلِّ حكمةٍ وخبرةٍ لا تفسَّرُ: «ليست مشيئةُ اللّه أن يحصلَ ما تطلب».

ولكنَّ العجيبةَ الكبرى أنّهُ كان نبعًا للنعمةِ التي تنتقلُ بطريقةٍ غريبة، لدرجةِ أنّهُ عندما تفرغُ بطاريّات أحدهم، يركضُ إلى الأبِ خارالمبوس كما إلى شاحنٍ لكي يشحَنَها.

أمّا بالنسبةِ للمواهبِ الروحيّةِ فكان بسيطًا ورحيمًا.

وكان يرى الجميعَ سواسيةً، لذلك بعضَ المرّات، وُجِدَت تجاههُ حالاتُ استغلالٍ من بعضِ الحاذقين.

وأما بالنسبةِ للرحمة، أتجرّأُ وأقولُ إنَّ التاريخَ يسجّلُ عنه الكثير، إذ كان يُحْسِنُ بدونِ تمييز. وبالطبع، كان كثيرٌ من الفقراءِ المجاورين المزوّدين برسالةٍ أسقفيّةٍ، يزورونَ البورازيري أوّلًا، قبلَ أن يجولوا على الأديارِ الشريفة. والسببُ واضح.

فمساهمةُ الشيخِ العظيمة، هي أنّهُ كان يكتبُ رسالةً يبعثها إلى الأديارِ الشريفة، متمنّيًا عليهم أن يشتركوا بالمساعدةِ قدرَ استطاعتهم.

أحيانًا، كمبتدىءٍ، كنتُ أتجرّأُ وأسألُه: «ولكن أيّها الشيخ، أين يوجدُ مالٌ بهذا المقدار؟». والشيخُ البسيطُ والحكيمُ يجيب: «اجلسْ يا بنيَّ وسترى لوحدك بركةَ سيّدتنا الفائقة القداسة». وبالفعلِ، كثيرًا ما رأيتُ وتعجّبت.

وكنموذجٍ للتواضع، تركَنا الأبُ الدائمُ الذكر بعدَ أوّلِ وَعْكَةٍ صحّيّة، واعتزلَ بكاملِ إرادتِهِ عن الرئاسة، مُسلّمًا عصا الرعايةِ مع خمسينَ أخًا ليدَيْ أحدِ أبنائه المختارين. وانسحبَ هو نفسُه إلى قلاّيته، إذ سبقَ له أن ميّزَ الهدوئيّةَ والحياةَ الخاليةَ من الإزعاجات.

منذُ أن أصيبَ القلب، العضوُ الذي بخفقاتِهِ كان يغذّي كلَّ القوى النفسيّةِ والجسديّة، وللضرورة، تقلّصتْ جهاداتُ السنين

الأولى الكبيرةُ تلك، وانحصرتْ في حدودٍ طبيعيّة. ولكن بقيتْ ثمارُ الروحِ القدسِ غيرَ منطفئة. يقولُ الآباءُ القدّيسون: «جاهِدْ في سني شبابِكَ لكي تكتسبَ أثمارَ عدمِ الهوى في الشيخوخة».

وكذلك يقولُ السيّد: «إن لم ترجعوا وتصيروا كالأطفال، لن تدخلوا ملكوتَ السماوات» (متى ١٨ :٣). والشيخُ المغبوطُ عادَ وصارَ كرضيعٍ بالنسبةِ للصلاحِ وحُسنِ النيّة.

الشيخُ كأبٍ روحيّ

لقد اختبرَ الشيخُ الدائمُ الذكرِ كلَّ مراحلِ الحياةِ الروحيّة، كتلميذ، وهدوئيّ، وكاهن، ورئيسِ ديرٍ وأبٍ روحيّ. لم يكن مجرّدَ أبٍ روحيٍّ عنده «سلطانُ الربطِ والحلّ»، بل على الأخصّ تميَّزَ بأبوّةٍ حقيقيّة. إذ كان يعتبرُ مشكلةَ المعترفِ مشكلتَه، ويشاركُ المتألِّمَ آلامَهُ ومعاناته.

وكبرهانٍ على هذا أَعرضُ مثَلَين فقط:

ذاتَ مرّة، كان أحدُ الإخوةِ يعاني من تجربةٍ شيطانيّة، فهرعَ مسرعًا إلى الشيخ. وكان الدائمُ الذكرِ مقتنعًا أنّ هذا الجنسَ لا يخرجُ إلا بالصلاةِ والصوم، فشجَّعَ المتألّم، وصاما معًا عن الزيتِ

في فترةٍ ليس فيها صوم، مدّةَ أربعين يومًا؛ وأقامَ له أربعينَ قدّاسًا، وسهرانيّةً لأكثرِ من ثماني ساعات، وكان يصلّي بلا توقّفٍ إلى حينِ شفاءِ الأخ.

وراهبٌ آخرُ ما كانَ قادرًا أن يتمّمَ قانونَهُ الخاص (مائةً وخمسين سجدة). فكما كانَ الأبُ غيرَ متساهلٍ مع نفسِه، لم يتردّدْ أن يأخذَ هو نفسُهُ عبءَ الأخِ قائلًا له: «تشجّعْ يا بنيّ، أنا سأتمّمُ قانونَكَ إلى أن تتقوّى». والنتيجةُ أنّ هذا الأخَ بعدَ أيّامٍ قليلة، تحرّكَ من عزّةِ النفس، وأكّدَ للشيخِ أنّهُ يتمّمُ واجباته بمفرده.

***

كما وعرفَتْ مدرسةُ الجبلِ الكنسيّة مساعدةَ الشيخِ المغبوطِ الحسنةَ أيضًا، من جراء اتّصاله، حينذاك، بالمديرِ القدّيس روذوستولوس، في فترةِ إدارته، عندما عاشت أخويّتُنا الصغيرةُ إثني عشرَ عامًا في قلاّيةِ البورازيري الكبيرةِ المجاورة، والتابعةِ لديرِ خيلاندار (١٩٦٧-١٩٧٩). وكان كلُّ التلاميذ والمعلّمين، تقريبًا، ينزلون باستمرارٍ للاعترافِ والاسترشادِ الروحيّ.

ومن مجموعِ كلّ هؤلاءِ التلاميذِ والمعلّمين، تتزيّنُ كنيستُنا اليومَ بأساقفةٍ وكهنةٍ ورهبانٍ كثيرين في الجبل المقدّس وخارجَه.

وباكليريكيّين متزوّجين ذوي كفاءةٍ وَوَقار، كذلك بعاملين مميّزين في البشارةِ وأرباب عائلات جيّدين.

وقد تتلمذَ الكثيرونَ على يدِ معلّمِ الصلاةِ القلبيّة. هؤلاءِ غرفوا أيضًا قوّةً واستنارةً من الصلاةِ غيرِ المنقطعةِ لنجاحِ عملهم، وحُفظوا سالمينَ من شراكِ رئيسِ السوءِ الكثيرة. وقد حصلوا هم بدورِهم معلّمينَ صغارًا للعملِ المقدَّسِ والمبارك، عملِ الصلاةِ القلبيّة، ومتابعينَ تعليمَ معلّمهم.

من البيِّنِ أنّ أبانا الروحيَّ قد انفصلَ عنّا، ولكنَّ عملَهُ بقيَ وما يزالُ مستمرًّا.

فليكنْ ذكرهُ مؤبّدًا.

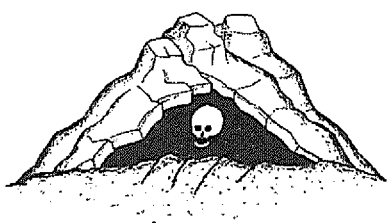

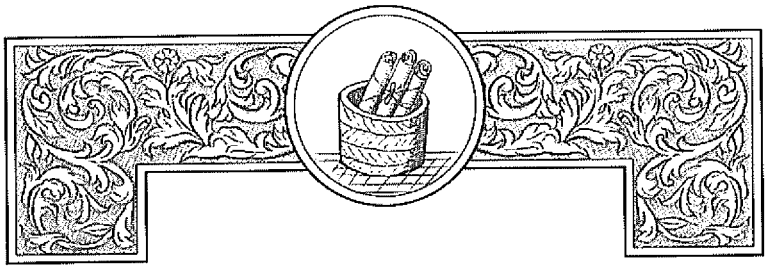

ملحقُ الرسائل

لنا بركةٌ خاصةٌ أن نغنيَ الكتابَ ببعضِ رسائلِ الشيخِ أرسانيوس التي خطَّها بيده، موجّهًا إياها أبويًّا إلى أحدِ أبنائهِ الكثيرين، خارجَ جبلِ آثوس.

نستفيدُ دونَ شكٍّ من هذه الرسائلِ البسيطةِ فائدةً كبيرة. والمهمُّ أنّه بواسطةِ هذه الشهادةِ الحياتيّة، يَظهرُ الغنى الروحيُّ لهذا الشيخِ البسيط وشبهِ الأُمّي.

من المعروفِ أنّهُ تعلَّمَ قدْرًا قليلًا من اللغةِ اليونانيّة، لوحده، وكذلك الأبجديّةَ في سنٍّ متقدّمة. وعليه، يجبُ علينا أن نكونَ رحماء، بالنسبةِ للإنشاءِ والإملاء.

ولكن فيما يتعلّقُ بالمضمون، فإنّنا نَعجبُ لسموِّ المعاني التي منها نأخذُ انطباعًا، بأنّها تؤلّفُ حصيلةَ حياتِهِ الشخصيّة؛ فمثلما نهَلَ

هذه المعاني من الكتابِ المقدّس، بنفسِ القدرِ استقاها من الآباءِ القدّيسين؛ وبالتأكيد، على الأكثر، من نصٍّ أصليّ، كان قد فهِمَهُ بالكامل.

كما وأنّ العباراتِ المتواترةَ مثل «يسوعُنا الحلو- المسيحُ الأجمل- أمّنا الفائقة القداسة...»، ليست إلا عُصارةَ قلبِهِ الصالحِ الملتحفِ بعشقٍ إلهيٍّ مُلتهب، شاعرًا باستمرارٍ بحاجتهِ لأن يبثَّ غناهُ الروحيَّ إلى الخارج.

ولكن من أجلِ فائدةٍ أكبر، دعُونا نتركُ القارئَ يستنتجُ وحدَهُ استنتاجاته الخاصة.

وبكلِّ تأكيدٍ نقدّمُ شكرنا الجزيلَ للأبِ المحبوبِ ب. الذي من كرَمِ نفسِهِ ومحبّتهِ الكبيرَين، زوّدَنا برسائلِ الشيخِ المكتوبةِ بخطِّ يده.

فلتقُدْهُ صلاةُ الشيخِ إلى الطريقِ المستقيمِ ولكلِّ عملٍ صالح، آمين.

الرسالة الأولى

سنة ١٩٥٩

ابني الحبيب ب. م. فلتكنْ صلاتي معك، أشتاقُ إليكَ وإلى روحِكَ المقدّسة. بارك. المسيحُ معنا. أبعثُ البركةَ لأختِكَ المجدليّة ولقاسيليكي. أفرحُ بعزيمتك الصالحة. وكذلك أرجو مسيحَنا الجميل أن يجعلَنا مستحقّين لأورشليمَ العلويّة إلى جانبِ معلّمنا. وأيضًا أفرحُ بعزيمتكَ بأنّك تكتبُ لي وتسألني ماذا أريد. ماذا يريدُ الراهب؟ الفردوس. فلنهربْ من طردِ آدم. أيوجدُ شيءٌ أفضلُ من المحبّة؟ أريدُ محبّتك. حيثُ تكونُ المحبّةُ هناك المسيح.

قال لي الأبُ أفرام، صحّتُكَ ليست على ما يرام. هذه رسالةُ يسوعنا، لكيّ يوقظَنا لنجتهد. غَصْبًا؛ فالغاصبونَ يخطفونَ ملكوتَ السماوات. أتمنّى أن يهبَكَ مسيحُنا الجميلُ صحّتَي النفسِ والجسد. وأنا ما زلتُ أنتظر. لم يمرَّ بعدُ المركبُ ليصفِرَ. ماذا أفعل؟ الصبر. فالذي يصبرُ إلى المنتهى فهذا يخلص.

أصيرُ جاهلًا من أجلِ أخي، فلْأقصَّ عليكَ من أخبارِ الآباء. يشبّهُ الآباءُ القدّيسون هذا العالمَ ببحيرةٍ فيها مركبٌ بخاريٌّ وداخلَهُ أناسٌ كثيرون. وعلى متنِ هذا المركبِ يوجدُ كلُّ الأنواع، أيِ

الذهبُ والألماسُ وأشياءُ أخرى كثيرةٌ مختلفة. والناسُ الذين في الداخلِ يجمعون كلَّ ما يستطيعُ الواحدُ منهم ويتعاركون مَنْ سيأخذُ أكثر، بينما المركبُ يرتفعُ ويهبط. فالبحرُ مضطربٌ جدًّا. ومن المستحيلِ أن ينجوَ المركب. سينقلبُ ويغرقُ كلُّ الذين في الداخل. ولسوءِ الحظِّ أنّهم لا يملكون حسًّا داخليًّا، فبدلَ أن يصلُّوا، ويرجوا اللّه لكي يخلصوا، يجمعونَ ويتعاركونَ كمجانينَ وسكارى، بجشعٍ كبير، من سيخطفُ أكثر. والرهبانُ هم خارجَ المركبِ على الشاطئ وعلى جوانبِ البحيرةِ يجلسونَ ويقولُ الواحدُ للآخر: «انظرِ اللصوص، أيَّ عدمِ إحساسٍ يملكون! طالما أنّ المركبَ يتعرّضُ لخطرِ الغرقِ، هؤلاءِ يتجمّعون فيه. هناك في الداخلِ يوجدُ كثيرون يتعاركون من سيأخذُ أكثر، بدلَ أن يصلّوا ويطلبوا إلى اللّه ألاّ يغرقوا». آمين.

شرح:

الآن سأشرحُ لك. البحيرةُ هي العالم. المركبُ هو حياةُ الإنسان. الاضطرابُ الذي تحرّكهُ البحيرة، أي العالم، هو ارتباكات العالم. هؤلاءِ الذين كانوا يجمعونَ الأشياءَ المختلفةَ الموجودةَ في الداخلِ هم باطلُ أباطيلِ العالم، أي الغنى. من سيكون الأكثر

غنًى، من سيتنعَّمُ بملذّاتِ العالم، من سيظلمُ الآخر. والنزاعاتُ الحاصلةُ في داخلِ المركبِ وعدمُ إحساسهم، هو الخطيئةُ، المسارح، فِرَقُ الغناء، الأغاني، ملذّات الجسد ....

آمين. آمين. آمين. أظنُّ أنّكَ فهمت.

الرهبانُ يجلسون على اليابسة حولَ البحيرة. لأنَّ الراهبَ يوجدُ في التوبة. أنكرَ العالم، يترقّبُ خلاصَه، يتبعُ يسوعَنا الأجمل، فالخلاصُ في يده. كحِرَفِيٍّ، عندما يريدُ يجدُ الطريقةَ وينتهي. بينما البشرُ هم في جهلٍ وينامون، كما قالَ المسيحُ لتلاميذه لأنّهم سألوه: لماذا تُكلِّمُ الناسَ بالأمثال؟ قال: فقط أنتم معنيّون وليسَ الناس. أولئكَ ينظرون ولا يرَوْن، يسمعون ولا يسمعون. وينامون.

أظنُّ أنّكَ فهمت. ولكن سنقولُ هذا: أولئكَ الذين يحبُّون أن يخلصوا وعندهم خوفُ اللّه، هم أيضًا يوجدون على اليابسة. الأنبا اسحق يسمّي الأهواء «العالم». حيثُ تكونُ الأهواء، فهناك يكونُ العالم. وحيثُ يكونُ السلام، فهناك يكونُ يسوعُنا الحلو.

اعذرني كثيرًا فإنّك ستتعبُ كثيرًا لتقرأَ وسيتعبُ أيضًا ملاكُكَ الحارس.

وأرجو من عزيمتِك أن تُظهرَ لي محبّتك. أشكرك. فلتكن

صلاتي معك، وكذلك مع المجدليّة وقاسيليكي. وليجعلنا اللّه مستحقّينَ لملكوتِهِ السماويّ بجانبِ معلّمنا، آمين، آمين، آمين.

الحقيرُ والوضيعُ أرسانيوس الراهب.

وأيضًا أرجو لأخيكَ إفستاثيوس وأصلّي إلى اللّه لكي ينيرَهُ فيتبعَكَ، وتصيرانِ زوجًا لمسيحِنا الجميلِ ولأمّنا الفائقةِ القداسة.

عندما غادرتُ العالمَ تبعَتْني أختي، والآنَ هي موجودةٌ في آيينا. قد تراها إن أنتَ ذهبتَ إلى هناك. جعلتُها راهبةً عندما كنت أنا في التاسعة والعشرين، هي الأمُّ إفبراكسيا.

لذلك أتمنّى عسى أن ينيرَه اللّه، وستكونان معًا زوجًا مثل القدّيسَين قُزما ودميانوس. (عنى إفستاثيوس).

لقد جاءَ في كتبِ الآباء، أنّهُ كان يوجدُ ثلاثةُ إخوة. قالَ الكبيران للأصغر: يا أخانا إنّنا تركْنا كلَّ ثروتِنا لكَ، ونحن سنترهَّب. فقالَ لهما على الفور: قد وزَّعتماها بالسوء، فأخذتُما أنتما كلَّ ما هو سماويٌّ، وأنا ما هو أرضيّ؟ فذهبَ هو أيضًا معهما، آمين.

وأتمنّى لجدّتك أن يأخذَها اللّه بتوبةٍ حسنةٍ إلى الفردوس، آمين. وأصلّي لأبيكَ جاورجيوس. علمتُ كيفَ أنّهُ رقدَ بتوبة. أشكرُ اللّه. لم يتركْهُ ليهلك.

كلُّ من يسألُ عني، أعطِهِ قبلاتي. وأنا أصلّي لكَ المسبحة، شكرًا.

وكذلكَ أُقَبِّلُ جميعَكم وأصلّي من أجلِ جميعِكم. ولكلِّ من يسألُ عنّي، آمين.

الحقيرُ الوضيعُ أرسانيوسُ الراهب، آمين.

أنا من «سامبسوندا»، من القرى. كنّا بنطيّين. فإنّي لا أعرفُ قرى جدَّتي. ثمَّ أنّي من عمرٍ مبكّرٍ ذهبَ أهلي إلى روسيا، إلى القفقاز. وهناك كبرت.

الرسالة الثانية

ابني الحبيب ب. ب. أطلبُ إلى اللّه أن تكونَ بحالةٍ جيّدة، نفْسًا وجسدًا.

لقد تركني البيروندا يتيمًا. بالأحرى أقولُ لك فقدتُ نصفي الآخر. أشكرُ اللّهَ وأمّنا الفائقةَ القداسة. ففي الخامسَ عشرَ من شهرِ آب أخذَتْ نفسَهُ من أحضاني. قال: أيّها الأبُ أرسانيوس، انزعْ عنّي الجواربَ لكي أحكَّ قدمي قليلًا فتهدأ. وحالما نزعتُها قال... إنّي أغادر؛ باركوا. فعانقتُهُ على الفور. وكعصفورٍ غادرَ من حضني.

في يومِ عيدِ أمّنا الفائقةِ القداسة قال: «يا أولادي، صلّوا لكي تأخذَني العذراء، لأني لست على ما يرام. فإنّي أعاني كثيرًا».

أشكرُ اللّه وأمّنا الفائقة القداسة. المجدُ لك يا اللّه، المجدُ لك يا اللّه، المجدُ لك يا اللّه. لقد نجا من طردِ آدم. ولكن إلى أينَ أذهبُ أنا. فالمكانُ لا يسعني.

أخذتُ سلّةَ البقسماطِ ونزلتُ إلى البحرِ بقربِ قلّاية الأبِ أفرام. فالشيخُ صعدَ إلى عندِ الفائقةِ القداسة وأنا الآنَ أنتظرُ متى يصفرُ المركبُ لكي أهربَ من طردِ آدم. فقد سوّدني العالم. وبالفعل هو هكذا بالنسبةِ للرهبان، ولكن بالنسبةِ لي أنا بشكلٍ مضاعف.

ماذا أفعل؟ المجدُ لك يا اللّه. كمثلِ سلحفاةٍ أضاعت زوجَها. على غصنٍ أخضرٍ لن أجلس. حتّى لو مِنْ دونِ خبزٍ كنتُ سأعيش. أردتُ أن أسكنَ في كهفٍ من دونِ أن أرى أحدًا. المجدُ لكَ يا اللّه، لا يتركني الأولادُ جائعًا، كلَّ يومٍ يحضرونَ لي الطعام.

أشكركَ لأنّكَ أرسلتَ لي عشرةَ دولارات. فلتُعطِكَ الأجرَ أمُنا الفائقةُ القداسة والقدّيسُ يوحنّا السابق، ولتكنْ معكَ صلاتي الخاصّة. وأقولُ لك هذا: كلُّ من يعرفُ ما هي المحبّة، ذاك يعرفُ أيَّ جهادٍ أجاهد. أربعينَ سنةً عشنا بمحبّةٍ كبيرة، وفي دقيقةٍ واحدةٍ غادرَ عنّا. كنتُ إذا ذهبتُ إلى الحقلِ ساعةً واحدةً يقولُ لي: «أيّها الأبُ أرسانيوس تأخّرت. لمجرّدِ أن تكون بقربي أرتاح». ما كنتُ أبتعدُ عنه لا ليلًا ولا نهارًا.

أتمنّى أن تكونَ بصحّةٍ جيّدة. لتكنْ معكَ صلاةُ أمّنا الفائقةِ القداسة.

أتمنّى أنا الراهب أرسانيوس الوضيع.

لك وللمجدليّة أيضًا.

الرسالة الثالثة

الجبلُ المقدس.

ابني الحبيب ب. أتمنّى أن تكونَ بخير. وصلَتْني رسالتُكَ وفرحتُ أنَّ صحّتكَ جيّدة.

أشكركَ كثيرًا على المالِ الذي أرسلتَهُ لأنّك صنعتَ إليَّ صنيعًا حسنًا. كوْني أعملُ في الحقل، أردتُ أن أجلبَ ماءً، وكنتُ أتعاركُ مع التنكة لأنّنا لم نكنْ نملكُ مالاً لنشتريَ الأنابيب. والآنَ هذا المالُ الذي أرسلتَه، أعطيتُه لكي يجلبوها لي، وهكذا سأجدُ راحةً كبيرة. وأنتم، فليكنْ لكم الأجرُ. وأرجو أن يهبَكم مسيحُنا الخيراتِ الأبديّةِ ولنكن معًا في الفردوس. آمين، آمين، آمين.

والآن سأقولُ لك قصّةً من الآباءِ القدّيسين.

مرّة، كان لأحدِهم ثلاثةُ أصدقاء. كان يُمضي مع صديقِهِ الأوّلِ اليومَ كلَّه بشكلٍ جيّد، ومع الثاني، كان يُمضي وقتَهُ بشكلٍ جيّد، ولكن ليس كما مع الأوّل، بل أقل، ولسوءِ الحظّ كان يرى الثالثَ أحيانًا، ولكن بقلبٍ بارد.

وذاتَ يوم، تلقّى هذا الشخصُ بلاغًا من الملكِ يدعوه فيه للمُثُولِ أمامَهُ لمحاكمتِهِ على زلّةٍ إرتكبَها.

ركضَ إلى صديقِهِ الأوّل: «يا صاحُ، لقد استدعاني الملكُ لكي يحاكمَني. فقد عملتُ شائنة».

فأجابَ ذاك: «لن أخرجَ من بيتي».

فذهبَ ذاك الحزينُ إلى صديقِهِ الثاني. وهذا أيضًا أجاب: «أنا أذهبُ حتّى ساحةِ قصرِ الملك، ولكنّي لن أدخل».

فأسرع إلى الثالثِ ولكن بخجل: كيف سأخبرُه، فأنا لم أشكرهُ مرّةً. ولكنّه ذهبَ وقالَ له: «يا صديقي، استدعاني الملكُ لكي يحاكمَني. هل تستطيعُ أن تساعدَني؟». هذا، على الفور، وبكلِّ رغبة، ذهبَ إلى الملكِ وساعدَه.

هذا مثلٌ. فالاصدقاءُ الثلاثةُ هم: الأوّلُ هو المال، وأثاثُ البيت. أما الثاني فهو الأهلُ، والإخوةُ والأقارب. فيما الثالثُ هو الرحمة.

عندما يأتي الموتُ، فالرفيقُ الأوّل، أي المال وأثاث البيت... لن يخرجَ من البيت. والرفيقُ الثاني، الأقاربُ، يذهبُ حتّى المقبرة. أمّا الرفيقُ الثالث، الرحمة، فيذهبُ إلى عندِ مسيحِنا ويساعدُه.

أرسانيوس الراهب. آمين.

الرسالة الرابعة

المسيحُ قام،

١٩٦٠

ابني الروحيّ الحبيبَ ب. الشماس. المسيحُ قام. نعمةُ ربّنا يسوعَ المسيح لتكنْ مع روحك، آمين. وصلاةُ أمّنا الفائقةِ القداسة تحفظكَ وتظلّلكَ في كلّ تجربةٍ من كلّ فخاخِ الشيطان، آمين. أنا الخاطئَ والوضيعَ أدعو لكَ من كلّ قلبي ونفسي، آمين. الآنَ أيّها الشّماسُ أخذتَ حِمْلًا كبيرًا. يا بنيَّ انتبهْ كثيرًا وصلِّ لكي يحميَكَ اللّه.

أوّلًا لتكنْ عندكَ طاعةٌ لرئيسِكَ المحترم، فاللّه يريدُ هذا. أتريحُ رئيسَك؟ فأنتَ تريحُ اللّه. الطاعةُ للرئيسِ هي وصيّةٌ من اللّه. فالطاعةُ حياةٌ، والعصيانُ موت. الطاعةُ تواضع، والعصيانُ كبرياء. أأحزنتَ رئيسَك؟ فأنتَ تحزنُ اللّه. بعصيانِ واحدٍ خرجَ آدمُ من الفردوس. حاولْ قدرَ استطاعتِكَ أن تذرفَ دموعًا واللّه سيحفظك، وتقواكَ لن تنطفئ. ملاكُكَ الحارسُ سيرشدُكَ دومًا.

أتسمعْ يا بنيَّ ماذا يقولُ مسيحُنا؟ «أتريدون أن تجدوني؟ فتّشوا الكتبَ، وهناكَ أكونُ أنا». يقول إشَعيا النبيّ: «أخذْتُ

خوفَكَ في جوفي»، يعني أخذنا الروحَ الكلّيَّ قدسُه. وأيضًا يقولُ المسيحُ على لسانِ النبيِّ إشَعيا: «لمنْ سأُعطي خيراتي؟... للمتواضعِ والمرتجفِ من أقوالي». بعد أن كان سيّدُنا يعظ، كانَ يغادرُ إلى الجبالِ أو إلى مكانٍ آخرَ ويرفعُ الصلاة. ماذا تقولُ يا بنيّ؟ أكانَ المسيحُ بحاجةٍ للصلاة. كلّا، لم يكنْ بحاجةٍ للصلاة، ولكن ليكونَ مثلًا لنا نتشبَّهُ به. فلنصلِّ على الدوام؛ فالصلاةُ غذاءٌ لنا. والرسولُ بولسُ يقول: «صلّوا بلا انقطاع».

يقولُ مسيحُنا: فلأكنْ أنا في ذهنِكم دائمًا وأنا في أوقاتِ التجاربِ سأقوّيكم. آمين.

أعطِ قبلاتي للمجدليّة. اللّه وأمّنا الفائقةُ القداسة يظلّلانها من كلِّ تجربة. وأنا أصلّي لها على الدوام. أُقبّلُ أيضًا أخاكَ إفستاثيوس. فليعطِكَ اللّه صحّتي النفسِ والجسد. آمين.

الحقيرُ أرسانيوس الراهب.

وبكلِّ تواضعٍ أدعو لكم جميعًا. لكلِّ مَن يسأل عني. آمين.

***

حولَ المحبّة:

أترى يا حبيبي المستوياتِ ودرجاتِ السُّلّم التي هندسَها

الرسولُ تلميذُ المحبّة؟

الدرجة الأولى: وضَعَها لنحبَّ الآخرين.

الثانية: إن المحبّةَ هي من اللّه.

الثالثة : إن المُحبَّ وُلِدَ من اللّه.

الرابعة : إن المُحبَّ يعرفُ اللّه.

الدرجة الخامسة والأخيرة والأسمى من الكلّ: «اللّه محبّة».

آمين.

يصيرُ المحبُّ من أجلِ المسيحِ غذاءً للجائع، وماءً عذبًا للعطشان، وللعريان كساءً، وللمُتعَبِ راحةً، وللمُصلّي كشفًا وللحزانى تعزية.

في نهايةِ كلِّ حزنٍ هناك فرح. وبعد كلِّ تعبٍ راحة. وبعد كلِّ ازدراءٍ مجد. صلاةُ الحَقودِ هي بذرةٌ على الصخر. آمين. الضميرُ الصالحُ يوجدُ بواسطةِ الصلاة، والصلاةُ النقيّةُ بواسطةِ الضمير. وبقدْرِ ما ننتبهُ للذهنِ نستنير، وبقدرِ ما نَشْرُدُ نُظلِمُ. في غفرانِ الخطايا يكمنُ التحرّرُ من الأهواء. آمين.

الإيمانُ والمحبّةُ لا يفترقان عن بعضِهما. فالواحدُ يرافقُ الآخر، والواحدُ يؤكّدُ الآخر، ويطيعُ الواحدُ الآخر، وحيثُ يغيبُ

الواحدُ يغيبُ الآخر، وحيثُ يوجَدُ الواحدُ يوجدُ الآخر. آمين.

لهذا عندما سُئِلَ القدّيسُ أفرام، أيّةُ خطيئةٍ هي الأثقل، عدا عن الهرطقة. فأشارَ إلى الحقد. وهكذا تقولُ شهادةُ يوحنّا الصّريحة: المحبّةُ أسمى من كلِّ الفضائلِ الأخرى، وبالمقابلِ أثقلُ الخطايا هي كراهيّةُ الأخ. فإنَّ الحقدَ تجاهَ الأخ ليس إلا عمليّةَ انتحارٍ، كما قال الرسول.

فالذي يكرهُ أخاه، يكرهُ اللّه. من يكرهُ أخاهُ قابعٌ في الظلمةِ لا محالة، ويسلكُ في الظلمةِ ولا يرى أينَ يذهب. وإنَّ الكراهيّةَ مسبّبةٌ للظلمةِ ولأسواءٍ أخرى كثيرة. آمين.

أخذتُ بركتَكَ وتضرَّعتُ إلى اللّه وأمّنا الفائقةِ القداسة لكي يحفظاك من كلِّ سوء.

الحقيرُ أرسانيوسُ الراهب. بكلِّ تواضعٍ أدعو لك، وأقبّلكَ بقبلةٍ أخويّةٍ في المسيح.

***

صلاة:

يا ربّي يسوع المسيح، ابنَ اللّه الحيّ، بشفاعات أمّنا الفائقةِ القداسة، والقدّيسِ المكرّمِ يوحنّا السابق، والقدّيسِ أرسانيوس الكبير، والقدّيسِ ألكسيوس- رجل اللّه — والقدّيسِ يوسف الخطيب

وجميع قدّيسيك، أرسلْ روحَكَ الكلّيَّ قدسُهُ إلى قلبِه... نعم، يا ربُّ. أنعمْ علينا بسلامٍ من اللّه الآبِ والربِّ يسوعَ المسيح.

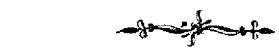

مباركٌ هو اللّهُ أبو ربّنا يسوعَ المسيح، أبو المراحم وإلهُ كلِّ تعزية. نعم، يا ربُّ أرسلْ روحَكَ الكلّيَّ قدسُهُ إلى روحِه...

ولتكنْ معكَ صلاتي الخاصّةُ وليحفظكَ اللّه من كلِّ تجربة، آمين.

الراهبُ أرسانيوسُ غالانوبولوس. آمين.

هذه صورٌ عن نسخٍ أصليّةٍ من إحدى رسائل الشيخ التي كتبها بخطّ يده.

الرسالة الخامسة

المسيح قام.

١٩٦١

ابني المحبوب جدًّا الذي أشتاقُ إليه، الراهب الشماس.

المسيح قام.

نعمةُ ربّنا وسيّدنا يسوعَ المسيحِ معكم ومعنا.

علِمْتُ بحزنِك، ولكن لا تحزنْ كثيرًا لأنَّ اللّٰه معنا ولا أحدَ علينا. الأشياءُ الجيّدةُ تصيرُ بتعب. فبدونِ تجربةٍ لا تصير. هذا فقط: فلنصبرْ. إذ بدونِ الصبرِ لا يصيرُ شيء. فليعطِكَ اللّٰه صبرًا وقوّة، وأمّنا الفائقةُ القداسة. وأنا أصلّي لكَ على الدوام، ولتكنْ مشيئةُ اللّٰه.

من الممكنِ ألاّ تكونَ هذه مشيئةُ اللّٰه. فالوقتُ سيُظهِرُ، لأنَّ اللّٰه يعرفُ أفضلَ منا. فاللّٰه، دائمًا، يريدُ خيرَنا. كما أنَّ الصالحاتِ دائمًا فيها تجارب. بدونِ تجاربَ لا يمكنُنا التحدّثُ عن الفضيلة. وأيضًا، حسنًا تقولُ لك المجدليّة: بهذا الشكلِ الذي تمكثُ فيه في قلّايتك، لن يجلبوا المالَ ويرموهُ لكَ من المدفأة.

حتّى ولو كانَ لديكَ الرجاءُ بأن يجلبوا لكَ المال، فحينئذٍ

ستقعُ في الكبرياء.

في إسقيطٍ في فلسطين، حين جاءَ العربُ ليسرقوا، هربَ الآباء. والقدّيس أرسانيوس أيضًا غادر. ما كان القدّيسُ يخاف، ولكن من أجلِ التواضع.

هكذا فلتفعل أنتَ أيضًا. طالما أنَّ المجدليّة تقولُ لك، مِنَ الممكنِ أن يكونَ اللّٰه قد أنارها فتكلَّمَتْ. أعطِ للمجدليّة بركتي. أَشكرُها على بركتِها.

فليعطِها اللّٰه أجرَها، ولتقوِّ أمُّنا الفائقةُ القداسة نفْسَها وجسدَها، ولتكنْ صلاتي الخاصّةُ معها.

قَبِّلْ رئيسَكَ الأسقفَ المحترمَ أثيناغوراس واضربْ له مطانيّةً عنّي. أنا أَذكرُهُ دائمًا في صلاتي. فليعطِهِ اللّٰه أَجْرَهُ على البَرَكةِ التي أرسلها في عيدِ الميلاد، ولتكنْ معه صلاةُ أمّنا الفائقةِ القداسة.

...وأيضًا أقولُ لك، لا تقلقِ البتّة. يمكنُ ألّا تكونَ إرادةَ اللّٰه... وأقولُ أيضًا، في أيِّ وقتٍ تريدُ أن تأتيَ فأحضانُ أخيكَ مفتوحة.

لأجلِ هذا جعلتُكَ راهبًا. عندما تستصعبُ، فإنَّ لك هُنا بيتًا.

آمين.

...يقبّلكم الأبُ خارالمبوس، يقبّلكم الأبُ أفرام مع أخويّته. الأبُ يوسف، أثناسيوسُ وثيوفيلاكتوس، كلُّهم يقبّلونكم. أقبّلكم مع كلِّ أخويّتِك... آمين.

الرسالة السادسة

ولدي الحبيبَ، الشماسَ ب. إفرح. نعمةُ ربّنا يسوعَ المسيحِ مع روحِكم وروحِنا، آمين.

وأيضًا أتمنّى أن تكونَ بصحّةٍ جيّدة، ولتكنْ معكَ صلاةُ سيّدتنا الفائقةِ القداسة، وكذلك صلاتي الخاصّة. يا بنيَّ، لماذا تأخَّرتَ عن أن تكتبَ لنا؟ ألا تعرفُ أنّكَ عندما تتأخَّرُ عن أن تكتب، تذهبُ المحبّة؟ عندما تكتبُ ونستلمُ رسالتَكَ ونقرأُها، إذذاك نشعرُ أنّنا رأيناكَ وتكلّمنا معكَ فنتعزّى، وحينئذٍ نعرفُ أنّكَ ما تزالُ على قيدِ الحياة. هل من المعقولِ أنّكَ نسيتَ شيخَك؟ واحسرتاه! إن أنتَ نَسيتَني فأنا لن أنساكَ أبدًا.

حسنًا يقولُ المثل: لقد وهبَ الأبُ لابنهِ حقلًا بكاملِه، والولدُ لم يهبْ أباه حتّى تفاحةً واحدة. لا تحزنْ لهذا الذي قلتُه لك. إنّما قلتُه لكي أوقظَك. أنا يا ولدي، أعرفُ قلبَك. وأيضًا

أدعو لك. أنت دائمًا في قلبي. حاولْ قدرَ استطاعتِكَ ألاّ تنسى الصلاة، لأنَّ الكتابَ المقدّسَ يقول: غصْبًا، غصْبًا الغاصبون خطفوا الملكوتَ السماويّ.

ولا تُهملْ أن تقرأَ كلَّ يوم، على الأقلِّ ساعةً واحدة، وكذلك الصلاة. وأينما كنتَ أغلقْ على نفسِكَ في غرفة، لتخلدَ إلى الهدوء.

فلنأخذْ لنا مثالًا المسيحَ الكلّيَّ جمالُهُ. عندما كان يعِظُ الشعبَ مع تلاميذه، بعدَ ذلك كان ينفصِلُ سرًّا عن التلاميذ إلى جبلِ الزيتون ويصلّي. كان المسيحُ يصلّي! أوّاه! أوّاه! وهل كان المسيحُ بحاجةٍ لأن يصلّي؟ ذاكَ كان كلُّه صلاة! ولكن لماذا كان يفعلُ ذلك؟ لكي يعطِيَنا مثلًا لنصلّيَ نحنُ أيضًا، ومن ناحيةٍ أخرى لكي يُظهِرَ إنسانيَّتَه. آمين. وعندما تكتبُ لأولادي، ضعْ أيضًا كلمتَين: عذوبتُنا، مسيحُنا. فليكنْ في داخلِكَ وَلْيُنِرْكَ ويقدّسْكَ، ولتكنْ معَكَ صلاةُ أمّنا الفائقةِ القداسة، وتاليًا لتكنْ معَكَ صلاتي الخاصّة، صلاةُ شيخِك.

الحقيرُ والوضيعُ الراهبُ أرسانيوسُ الذي ليوسف، آمين.

فهرس

• مقدّمة

..... ١

• الفصل الأوّل: أعوام أناستاسيوس الطفوليّة - دعوة إلهيّة

أعوام الطفولة ٧

الأمنية الإلهيّة والقرار الشجاع ١١

سيرًا على الأقدامِ إلى القسطنطينيّة ١٢

في الأماكن المقدّسة..... ١٤

كلماتٌ قليلةٌ عن بارثينا الصغيرة ١٥

لقاء مع يارونيموس الذي من آيينا..... ١٦

إلقاءُ الضوءِ على لغزِ الناسكةِ فوتيني..... ٢٠

• الفصل الثاني: السنون الأولى في الجبل المقدس - الطاعة للشيخ البسيط أفرام

الجبل المقدس - دير ستافرونيكيتا الشريف..... ٢٣

نحو الصحراء الداخليّة..... ٢٤

معرفة الراهب أرسانيوس بالشابّ فرانكيسكون ٢٥

البحثُ عن شيخٍ روحيّ..... ٢٨

خضوعُ المجاهدَين للشيخِ البسيط والقدّيس أفرام..... ٣١

في إسقيط القديس باسيليوس (١٩٢٣-١٩٣٨)..... ٣٢

الراهبُ أرسانيوس يرى الشيخَ أفرامَ في الحلمِ بعد رقادِهِ..... ٣٥

• الفصل الثالث: جهاداتٌ أقوى بعدَ رقادِ رئيسهما الشريف

الراهب يوسف مُتَقدِّمًا ٣٩

مع الهدوئيّ دانيال – الشيخ كيرللس ٤٠

«بقسماط» النظام الغذائيّ الاعتياديّ للمجاهدين ٤٧

التقليدُ حول المجاهدين العُراة والإثنَين الحافيَين..... ٥٠

«الطاعة فوق الذبيحة»..... ٥٣

صلاة الشيخ ورغبته الصالحة ٥٥

حوادث عجيبة من حياة المجاهدَين..... ٥٧

نصائح وأحداث عجيبة من حياة الشيخ أرسانيوس..... ٦٤

شذرات عن القدّيس سِلوان الآثوسي..... ٦٧

في السهرانيّة..... ٦٨

البرنامج..... ٧٣

المطالعة..... ٧٥
أقوالُ الشيخِ أرسانيوس هي ثمرُ الخبرة..... ٧٦
أحاديثُ الأبِ المشتركة مع زوّارٍ أتقياء ٧٧
فكاهةُ الأبِ، المتعةُ مع الإستفادة..... ٨٣
السنونوةُ البرّيّةُ على كتفِ الأب..... ٩٣
الراهبُ الذي يضايقُه الشيطان ٩٥
كانَ الجوُّ بائسًا..... ٩٧
الراهبُ يوسفُ يتناولُ من أيدي الملائكة ٩٩
جراسيموس مينا‌ياس..... ١٠٣
أفرام «السمين»..... ١٠٥
حادثتان للرجوع العجيب..... ١٠٧
حولَ مجاهدٍ عادمِ الفضّة..... ١١١
الأبُ الروحيُّ إفثيميوس ١١٢

• الفصل الرابع: مناسكُ القدّيسةِ حنةَ الصغيرة - أخويةُ الشيخِ يوسف الأخيرة

التوجّهُ إلى كهوفِ القدّيسةِ حنة الصغيرةِ (١٩٣٨- ١٩٥٣) ١١٧
الأبُ أفرامُ الذي من كاتوناكيا..... ١١٩

لقاءُ الأبِ أفرام بالشيخ يوسف ١٢٢

مجدّدًا في القلاّيات..... ١٢٨

ابنُ أخِ الأبِ أرسانيوس ١٢٩

تقريرُ النهار – امتحانُ الذات ١٣٤

• الفصل الخامس: رحيلُ الشيخِ الكبير - الأبُ أرسانيوس شيخًا للأخويّة

الانتقالُ إلى الإسقيط الجديد (١٩٥٣-١٩٦٧)..... ١٣٧

الأب أثناسيوس..... ١٤٣

رقاد الشيخ الكبير البارّ..... ١٤٦

• الفصل السادس: في قلاّيةِ البورازيري

الانتقالُ من الإسقيطِ الجديدِ إلى القلاّياتِ الروسيّةِ الكبيرة..... ١٤٩

أحلامُ الشيخ..... ١٥٤

الأبُ ينزلُ إلى قلاّيةِ البورازيري..... ١٥٦

موتُ الروسيّ - كلبُ باسيليوس الكذّاب ١٥٨

الأبُ والبراغيث ١٦١

السجودُ للعذراءِ البوّابة ١٦٢

جهادات الشيخ الأخيرة ١٦٥

مع الشيخِ باييسيوسَ الناسك ١٦٧

بعضُ تعاليمِ الأب ١٧١

من حياةِ الشيخ ١٧٨

من الآن فصاعدًا سيقولون «الراهب خارالمبوس» ١٨٠

• الفصل السابع: السنوات الأخيرة في دير القديس ذيونيسيوس ورقاد الشيخ

نحو دير الذيونيسيو ١٨٣

في مستشفى الدير ١٨٥

ثمار الآلام الكثيرة السنين ١٨٧

النهاية المغبوطة ١٨٩

جنازة الأب ١٩٣

• الخاتمة

..... ١٩٥

• ملحق صغير

خارالمبوسُ الراهبُ الهدوئيُّ ورئيسُ الدير (١٩١٠-٢٠٠١)..... ١٩٧

عجائبُ من صلواتِ الشيخِ ٢٠١

الشيخُ كأبٍ روحيّ..... ٢٠٤

• ملحقُ الرسائل

الرسالة الأولى ٢٠٩

الرسالة الثانية ٢١٤

الرسالة الثالثة..... ٢١٦

الرسالة الرابعة..... ٢١٨

الرسالة الخامسة..... ٢٢٣

الرسالة السادسة ٢٢٥

بَحر
إيجِيه
أورانوبوليس
إسفيغمينو
الخيلاندار
زوغرافو
الفاتوبيذي
كونستامونيتو
ذوخياريو
كسينوفوندس
باندوكراتور
البورازيري
ستافرونيكيتا
القدّيس بندلايمون
كارياس
كسيروبوتامو
إيفيرون
كوتلوموسيو
دافني
فيلوثيو
كاراكالو
سيمونوبترا
مناسك القدّيس ارتاميوس
غريغوريو
ذيونيسيو
القدّيس بولس
الإسقيط الجديد
قمّة آثوس
اللافرا
مناسك القدّيسة حنّة
مناسك القدّيسة حنّة الصغيرة
إسقيط القدّيس باسيليوس
كاتوناكيا
جبل آثوس
كيلومتر
٥
٠